فى العشية (١)

في العشية . ترجمة غائب طعمة فرمان
الآباء والبنون . ترجمة شوقي الضامن

И. С. Тургенев

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 5 ТОМАХ

ТОМ III
Накануне. Отцы и дети.

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

T $\frac{4702010100-366}{031(05)-85}$ 077—85

ISBN 5-05-000091-2
ISBN-5-05-000094 7

١

في يوم من اشد الايام قيظاً من صيـــف ١٨٥٣ كان شابان يستلقيان على العشب في ظل شجرة زيزفون عالية على شاطئ نهر موسكو ، غير بعيد عن كونتسوفو . كان احدهما ، وهو شاب طويل القامة ، اسمر البشرة ، اسود الشعر ، ذو انف حاد معوّج بعض الشيء ، وجبين عال ، في نحو الثالثة والعشرين كما يدل مظهره ، مستلقياً على ظهره ، ينظر الى البعيد في استغراق ، وقد قلّص قليلاً عينيه الرماديتين الصغيرتين ، ورسم على شفتيه العريضتين ابتسامـــة متحفظة . وكان الثاني يرقد على صدره ، وقد أسند رأسه الاشقر الشعر ، والأجعد على يديه كلتيهما ، متطلعاً ايضاً الى البعيد . كان اكبر سناً من رفيقه بثلاث سنوات ، ولكنه يلوح اصغر منه بكثير ، وقد طرّ شارباه او كادا ، وعلى ذقنه زغب خفيف . وكان في القسمات الدقيقة لوجهه المدور الغض ، وفي عينيه البنيتين العسليتين ، وشفتيه الجميلتين البارزتين ، ويديه البيضاوين شيء طفولي حلو ، شيء رشيق على نحو جذاب . وكان كل شيء فيه يفوح بمرح العافية السعيد ، يفوح بالفتوة — بخلو البال ، وبالثقـــة بالنفس ، والدلال ، بسحر الشباب . كان يقلّب عينيه ، ويبتسم ، ويسند رأسه ، وكل ذلك على طريقة الصبيان الذين يعرفون ان الابصار تتطلع اليهم بلطف . كان يرتدي معطفاً ابيض فضفاضاً اشبه بالبلوزة ، ويلف على رقبته النحيلة منديلاً ازرق ، وقد اطرحت قبعة قش مدعوكة على العشب ، بالقرب منه .

كان رفيقه ، بالقياس اليه ، يبدو عجوزاً ، وما كان لأحد ان يظن ، وهو ينظر الى شكله النافر ، بأنه هو الآخر كان يستمتع ، ويحس بالارتياح . كان يرقد في وضع غير مريح ، ورأسه الكبير

العريض من الأعلى ، والضيق الى الاسفل ، يستقر على رقبته الطويلة بطريقة خرقاء . وكان التثاقل يبدو حتى في وضعية يديه ، وفي جذعه المشدود باحكام بسترة سوداء قصيرة ، ورجليه الطويلتين بركبتيها المرفوعتين ، الشبيهتين بقائمتي الجندب الخلفيتين . ومع كل هذه الاوصاف لا يفوت المرء ان يرى فيه رجلاً حسن التربية ، فان طابع «الاستقامة» كان يبدو في كل كيانه المتخلخل ، كما ان وجهه غير الوسيم ، بل والمضحك بعض الشيء ، كان ينم عن تعوده على التأمل ، وعن الطيبة . كان يدعى اندريه بيتروفيتش بيرسيتيف ، وكان اسم رفيقه الشاب الاشقر الشعر بافل ياكوفليتش شوبين .

ابتدر شوبين يقول :

– لماذا لا تستلقي على صدرك ، مثلما استلقي انا ؟ ذلك احسن بكثير . لاسيما حين ترفع ساقيك ، وتضرب كعبيك احدهما بالآخر . هكذا . والعشب قرب انفك . وحين تمل من التطلع الى المنظر الطبيعي انظر الى حشرة منتفخة البطن ، كيف تدب على العشب ، او الى نملة ، وكيف تروح وتجيء . حقاً ، ذلك أفضل . والا فها انت الآن قد اتخذت وضعاً كلاسيكياً مزيفاً ، تماماً كراقصة الباليه ، حين ترتفق على طُنف كارتوني . تذكر ان لك الآن كامل الحق في الاستراحة . فليس مزاحاً ان تحصل على درجة علمية وتصبح مرشحاً ثالثاً . استرح ، سير . وكُفّ عن التصلب . ارخِ اطرافك !

نطق شوبين بكل هذا الكلام بخُنة ، في شبه تكاسل ، وفي شبه مزاح (الاطفال المدللون يتكلمون بهذا الشكل مع اصدقاء العائلة الذين يجلبون لهم الحلوى) ، واستطرد قائلاً ، دون ان ينتظر رد صاحبه :

– اكثر ما يبهرني في النمل والخنافس وغيرها من السادات الحشرات جديتها المدهشة . انها تركض رواحاً ومجيئاً وفي مظهرها عظمة واهمية وكأن لحياتها معنى ما ! حقاً فان الانسان ، ملك الكائنات ، المخلوق الأسمى ، يتطلع اليها باهتمام ، فلا يبدو عليها اكتراث به . والاكثر من ذلك ان بعوضة ما تحط على انف ملك الكائنات هذا ، وتستخدمه طعاماً لها . هذا شيء مهين . ومن ناحية اخرى : بأي شيء تقصر حياتها عن حياتنا ؟ ولماذا لا تتبختر ، اذا كنا نحن نسمح لانفسنا بالتبختر ؟ طيب ، يا فيلسوف ، حلّ هذه المسألة لي ! لماذا انت ساكت ؟ ها ؟

انتفض بيرسينيف وقال :
– ماذا ؟
– ماذا ! – كرر شوبين – ان صديقك يطرح امامك افكاراً عميقة ، بينما انت لا تستمع له .
– كنت استمتع بالمنظر . انظر الى هذه الحقول ، كيف تلمع ساخنة في الشمس ! (كان بيرسينيف يلفظ حرف السين بدلا من حرف الشين .)
قال شوبين :
– الوان عظيمة زاخرة . الطبيعة ، بكلمة واحدة .
هزّ بيرسينيف رأسه .
– كان ينبغي ان تعجب بذلك اكثر مني . هذا ميدانك . فأنت فنان .
– لا ، هذا ليس ميداني – اعترض شوبين ، ولبس قبعته على قفاه – أنا لحّام . وشغلي اللحم . تشكيل اللحم ، الاكتاف ، والاقدام ، الايدي . وهنا لا يوجد شكل ، ولا إكتمال . انفرط على كل الجوانب . . . ولا تستطيع ان تجمعه !
قال بيرسينيف مذكراً :
– ولكن هنا الجمال ايضاً . بالمناسبة ، هل انتهيت من لوحتك المحفورة ؟
– اي لوحة ؟
– الطفل والعنز .
– الى جهنم ! الى جهنم ! الى جهنم ! – هتف شوبين بصوت ممطوط – نظرت الى اعمال الفنانين القدامى الحقيقيين ، الى الفن القديم ، فحطمت لوحتي التافهة . انت تشير عليّ الى الطبيعة ، وتقول : «هنا الجمال ايضاً» . الجمال ، بالطبع ، في كل شيء ، الجمال حتى في انفك ، ولكنك لا تستطيع ان تتسقط كل جمال . حتى القدامى لم يحاولوا ان يتسقطوه . بل هو انصبّ في خليقتهم من تلقاء نفسه ، والله يعلم من اين او لعله من السماء . كان العالم كله ملكاً لهم . ولكنه يعزّ علينا أن نحيط به على سعة . فاليد قصيرة . نحن نلقي الشص على نقطة واحدة صغيرة ، وننتظر . فاذا علق به شيء ، فمرحى بك ، واذا لا يعلق . . .
واخرج شوبين لسانه .

اعترض بيرسينيف قائلاً :
— على مهلك ، على مهلك . هذه معاضلة . اذا كنت لا تتجاوب مع الجمال ، ولا تحبه في اي مكان تلتقيه ، فلن يظهر في فنك ايضاً . واذا كان المنظر الجميل ، والموسيقى الجميلة لا يقولان شيئاً لروحك ، اريد ان اقول اذا انت لا تتجاوب معهما . . .
— آخ ، يا متجاوب ! — قال شوبين فجأة ، وضحك نفسه من كلمته المبتكرة ، بينما غرق بيرسينيف في افكاره . ومضى شوبين يقول : — لا ، يا اخ ، انت ذكي ، فيلسوف ، مرشح ثالث في جامعة موسكو ، من الفظاعة الجدال معك ، لاسيما بالنسبة لي ، انا الطالب الذي لم يكمل دراسته . ولكنني اقول لك : ما عدا فني ، لا احب الجمال الا في النساء . . . في الفتيات ، وحتى هذا لم يكن الا منذ بعض الوقت . . .
وانقلب على ظهره ، ووضع يديه تحت رأسه .
مضت بضع لحظات في صمت . كان سكون قيظ الظهيرة يجثم على الارض اللامعة الغافية .
وعاد شوبين يقول :
— بمناسبة النساء ، كيف لا يستطيع أحد ان يسيطر على ستاخوف ؟ هل رأيته في موسكو ؟
— لا .
— فقد عقله تماماً ، العجوز هذا . يقضي اياماً كاملة قاعداً عند صاحبته افغوستينا خريستيانوفنا ، ويسأم كثيراً ، ولكنه يظل قاعداً . يحدق احدهما في الآخر ، شيء سخيف . . . بل من المقرف النظر اليهما . عجيب ! ان الله مَنّ على هذا الرجل بعائلة طيبة ، فلا يقنع ، ويريد افغوستينا خريستيانوفنا ! انا لا اعرف امقت من بوزها الوزي ! قبل أيام ، شكلت لها صورة كاريكاتورية ، على طريقة دانتان (٢) . فطلعت لا بأس بها تماماً . سأريك اياها . . .
فسأل بيرسينيف :
— وتمثال يلينا نيقولايفنا النصفي ؟ هل يتقدم في يديك ؟
— لا ، يا اخ ، لا يتقدم . ان هذا الوجه يمكن ان يسلمك الى القنوط . فأنت ترى امامك خطوطاً صافية ، حادة ، مستقيمة .

فتتصور أن إلتقاط الشبه ليس بالأمر الصعب ولكن ليس الامر كذلك . . . لن تظفر به ، مثل كنز . هل لاحظت كيف تصغي هي ؟ لا تتحرك قسمة واحدة من قسمات وجهها ، سوى أن تعبير نظراتها يتغيّر باستمرار ، وبسببها تتغير صورتها كلها . فماذا يمكن ان يفعل نحّات في هذه الحال ، ولا سيما اذا كان سيئاً ؟ مخلوقة مدهشة . . . مخلوقة عجيبة .

اضاف ذلك بعد صمت قصير . فكرر بيرسينيف في اثره :

— نعم ، انها فتاة مدهشة ».

— بينما هي ابنة نيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف ! وبعد ذلك حاول ان تتناقش عن الدم ، وعن الطبيعة . . الطريف انها ابنته بالضبط ، تشبهه ، وتشبه أمها ، آنا فاسيليفنا . أنا احترم آنا فاسيليفنا من كل قلبي ، فهي راعيتي . ولكنها بلهاء كالدجاجة . فمن اين اخذت يلينا طبيعتها ؟ مَنْ اشعل هذه الجذوة ؟ هذه مسألة اخرى ، عليك ان تحلها ، يا فيلسوف !

ولكن «الفيلسوف» كالسابق لم يجب بشيء ! كان بيرسينيف ، بشكل عام ، لا يحب الكلام الكثير ، وحين كان يتكلم ، كان يتكلم بانتسار ، وبلعثمات ، وبتلويح زائد من يديه ، اما في هذه المرة ، فقد لفّت روحه سكينة" غير اعتيادية ، اشبه بالتعب ، والحزن . كان قبل وقت قصير قد انتقل الى السكن في بيت خارج المدينة ، بعد عمل طويل شاق ، كان يضنيه خلال بضع ساعات في اليوم . وكان الاسترخاء وطيب الهواء ونقاوته ، والوعي بادراك المرام ، والحديث المتقلّب الطليق مع صديقه ، وصورة المخلوق الحبيب تبرز في خياله فجأة ، كل هذه الانطباعات المختلفة والمتواشجة لسبب ما ، انصبت فيه بشعور شامل واحد كان يهدئه ، ويقلقه ، ويستل قوته في وقت واحد . . . لقد كان شاباً شديد التأثر جداً .

كان الظل تحت شجرة الزيزفون نديّاً ساكناً ، وكان الذباب والنحل الحائم تحتها يبدو وكأنما خفف من طنينه . وكان العشب الصغير النظيف ، بلون الزمرد ، لا يتمايل ولا تتمازج فيه التلاوين الذهبية . كانت الانصال الطويلة تقف جامدة كالمسحورة ، وعناقيد الازاهير الصغيرة الصفر تتدلى جامدة على اغصان الزيزفون السفلى . كانت الرائحة الحلوة تنفذ الى اعماق الصدر مع كل شهيق ، ولكن

مدرك كان يستنشقها بارتياح . وفي البعيد ، وراء النهر ، وحتى انطباق السماء ، كان كل شيء يلتمع ، كل شيء يتألق ، ومن حين لآخر كانت نسمة تهب هناك ، وتخترق اللمعان وتزيد حدته ، وكان الاغبشاش، المشع يتماوج فوق الأرض . والطيور لا يسمع لها صوت ، فهي لا تغرد في ساعات القيظ ، ولكن الجنادب كانت تشقشق في كل مكان ، وكان لطيفاً سماع صوت الحياة الحار هذا ، وأنت في مكان ندي ، والسكون يهدهد اليك سنة من النوم ، مثيراً فيك الاحلام .

وفجأة قال بيرسينيف معيناً لسانه بحركات يديه :

– هل لاحظت اى شعور غريب تثيره الطبيعة فينا ؟ كل شيء فيها على درجة عالية من الامتلاء والصفاء ، واريد ان اقول ، الاكتفاء بالنفس ، ونحن ندرك ذلك ، ونستمتع به ، والطبيعة في الوقت ذاته ، على الاقل بالنسبـــــة لي ، تثير دائماً قلقاً ، فزعاً ، بل وشجناً . ما يعني هذا ؟ ايعني أننا ، حين نقف أمامها ، ونجابهها ، نعي اكثر بعدم امتلائنا ، وغموضنا ، أم لا يكفينا ما يُشعرها هي بالاكتفاء ، في حين الشيء الآخر ، واريد ان أقول ، الشيء الذي نحتاجه لا نجده فيها ؟

قال شوبين :

– حم . سأقول لك ، يا اندريه بيتروفيتش ، ما مبعث هذا كله . لقد وصفت انت احاسيس انسان وحيد لا يعيش ، بل ينظر فقط ، ويصيبه الانبهار . فما فائدة النظر ؟ عش حياتك ، وستكون نِعْمَ الفتى . مهما طرقت باب الطبيعة ، فلن ترد عليك بكلمـــة مفهومة ، لأنها لا تنطق . سترنّ وتئن كالوتر ، فلا تنتظر منها غناء . النفس الحيّة هي التي ترد ، والنفس النسائية في الغالب الأعم . ولهذا ، انصحك ، ايها الصديق النبيل ، أن توفر صديقة لقلبك ، وستختفي احاسيسك الشجية على الفور . هذا «ما نحتاجه» على حد تعبيرك . ذلك لأن هذا الفزع ، هذا الشجن ، ما هو الا جوع من نوع خاص . قدّم للمعدة طعاماً حقيقياً ، وسيكون كل شيء على ما يرام . احتَلْ موضعك من العالم ، كن جسماً ، يا اخي . ثم ما هي الطبيعة ، وما شأنها هنا ؟ أعِرْ اذنك واسمع : الحب . . . اية كلمة قوية ، حارة ! الطبيعـــــة . . . اي تعبير بارد ، مدرسي للتلاميذ ! ولهذا (واخذ شوبين يغني) «تحيا ماريا بيتروفنا !» (٣)

او ، لا – اضاف قائلاً – ليس ماريا بيتروفنا ، ولكن لا فرق ! قو مي كومبرنيه * .
رفع بيرسينيف جسمه قليلا ، واسند ذقنه على ذراعيـــه المطويتين . وقال دون ان ينظر الى صاحبه :
– ما الحاجة الى التهكم ، ما الحاجة الى السخرية ؟ ولكنك على حق . الحب كلمة عظيمة ، عاطفة عظيمة . . . ولكن عن اي حب تتحدث ؟
رفع شوبين جسمه قليلاً ايضاً .
– عن اي حب ؟ عن اي حب تشاء ، فقط أن يكون موجوداً . واعترف لك بأنني لا اظن ان هناك انواعاً مختلفة من الحب . اذا احببت . . .
فابتدر بيرسينيف قائلاً :
– من كل قلبي .
– نعم ، هذا طبيعي ، فالقلب ليس تفاحة ليُقسم . فاذا احببت ، فانت على حق . ولكن لم يخطر في بالي ان استهزئ . فان في قلبي الآن من الرقة ما يجعله ناعماً . . . اردت فقط ان اوضح لك ، لماذا تؤثر الطبيعة فينا هذا التأثير ، حسب رأيك . لأنها تثير فينا الحاجة الى الحب ، دون ان تقدر هي على تلبيتها . انها تدفعنا بهدوء الى احضان اخرى حيّة ، بينمـــا نحن لا نفهمها ، وننتظر منها شيئاً . آه ، اندريه ، اندريه ، رائعة هذه الشمس ، وهذه السماء ، ورائع كل ما حولنا ، بينما أنت تحزن . ولكن لو امسكت بيدك ، في هذه اللحظة ، يد إمرأة تحبها ، ولو ان هذه اليد ، وتلك المرأة كلها كانتا ملكاً لك ، بل ولو كنت تنظر بعينيها ، وتشعر بعاطفتها ، وليس بعاطفتك الوحيدة ، لما اثارت هذه الطبيعة فيك شجناً ، يا اندريه ، ولا فزعاً ، ولما صرت تلاحظ جمالها . ولابتهجت الطبيعة نفسها وغنّت ، وكأنما تردد نغمك ، لأنك ، عند ذاك ، كنت ستجعل لها ، لهذه العاجزة عن النطق ، لساناً ينطق !
وثب شوبين على قدميه ، ومشى مرتين او نحوهما جيئة وذهاباً ، بينما احنى بيرسينيف رأسه ، وغشيت وجهه حمرة خفيفة . قال :
– لست متفقاً معك تماماً . الطبيعة لا توحي لنا دائماً . . .

* انت تفهمني (بالفرنسية تلفظا ، كما ورد في الاصل) .

بالحب (لم ينطق بهذه الكلمة رأساً) . انها تهددنا ايضاً . تذكرنا بالأسرار المخيفة ، اجل ، الاسرار التي لا تُنال . أليست هي التي ينبغي أن تبتلعنا ، والتي تبتلعنا باستمرار ؟ فيها الحياة والموت . وللموت صوت عال فيها ، كما للحياة .

قاطعه شوبين قائلاً :

— وفي الحب ايضاً حياة وموت .

فمضى بيرسينيف يقول :

— ثم ، مثلاً ، حين اقف في الربيع ، في غابة ، في حرش اخضر ، ويخيل اليّ انني اسمع انغاماً رومانسية لبوق اوبيرون (٤) . (اعترى بيرسينيف بعض الخجل ، وهو ينطق هذه الكلمات) . — أمعقول أن هذا ايضاً . . .

فأسرع شوبين يقول :

— ظمأ للحب ، ظمأ للسعادة ، ولا اكثر ! انا اعرف هذه الانغام ايضاً ، واعرف ايضاً ذلك الحنان والتوقع اللذين يغمران النفس وهي في حِمى الغابة ، في احضانها ، أو عند المساء ، في الحقول المكشوفة ، حين تغرب الشمس ، والنهر تتصاعد انفاسه وراء الاجمات . ولكنني اتوقع ، واريد السعادة من الغابة ، ومن النهر ، ومن الارض ، ومن السماء ، ومن كل غيمة ، ومن كل عُشبة ، وأحس في كل شيء باقترابها ، واسمع نداءها ! «ربي منير وبهيج !» بهذا بدأت احدى قصائدي . ولا بد ان تقر بأنه مطلع رائع ، ولكن لم استطع ان اثنّيه . السعادة ! السعادة ! ما دامت الحياة لـــم تنقض ، وما دامت كل اعضائنا تحت سيطرتنا ، ما دمنا نصعد التل ، لا ان ننحدر منه ! اوه ، اللعنة ! — مضى شوبين يقول في اندفاع فجائي — نحن شبان ، ولسنا ذوي عاهة ، ولا بُلهاً . سنكسب السعادة لانفسنا .

وهزّ خصلات شعره ، ونظر الى فوق ، الى السماء ، بثقة في النفس ، وبتحد تقريباً . رفع بيرسينيف اليه بصره . وقال بخفوت :

— كأنما لا شيء ارفع من السعادة ، هيه ؟

سأل شوبين :

— مثلاً ؟

— خذ هذا مثلاً . ها نحن ، أنا وأنت شابان ، كما تقول ، ولنفرض اننا طيبان ، وكل واحد منا ينتظر لنفسه السعادة . . .

ولكن هذه الكلمة «السعادة» هي التي يمكن أن توحدنا ، وتلهبنا نحن الاثنين ، وتجعل احدنا يمد يده للآخر ؟ أليست انانية هذه الكلمة ، اقصد أليست كلمة مفرّقة ؟

— وانت هل تعرف الكلمات التي توحّد ؟

— نعم ، وهي ليست قليلة ، وانت ايضاً تعرفها .

— حقاً ؟ ما هي هذه الكلمات ؟

— الفن ، على الاقل ، ما دمت فناناً ، والوطن ، والعلم ، والحرية ، والعدالة .

فسأل شوبين :

— والحب ؟

— الحب كلمة موحّدة ، ولكن ليس الحب الذي تتعطش أنت اليه الآن . ليس الحب ـ المتعة ، الحب ـ الضحية .

تعبّس شوبين .

— هذا جيد للالمان . ولكنني اريد الحب لنفسي ، اريد ان اكون الرقم الأول .

كرر بيرسينيف :

— الرقم الاول . أما أنا فاعتقد أن كل هدف حياتنا هو في ان نجعل انفسنا الرقم الثاني .

قال شوبين بتعبيسة شاكية :

— اذا كان الجميع سيتصرفون كما تقول انت فلن يأكل احد على الارض اناناساً ، لان الجميع سيقدمونه للآخرين .

— اذن ، لا حاجة الى الاناناس . وعلى اية حال لا تخف ، فلن تعدم ابداً اناساً هواة حتى في انتزاع الخبز من افواه الآخرين .

وصمت الصديقان كلاهما . ثم قال بيرسينيف :

— قبل ايام التقيت مرة اخرى باينساروف . دعوته الى بيتي ، اريد ، من كل بد ، ان اعرفه بك . . . وبافراد عائلة ستاخوف .

— من اينساروف هذا ؟ آه ، تذكرت ، أهو الصربي او البلغاري الذي كنت تحدثني عنه ؟ أهو هذا المناضل ؟ ألعله هو الذي اوحى لك بكل هذه الافكار الفلسفية ؟

— ربما .

— اتراه شخصاً فريداً ؟

— نعم .

— ذكي ؟ موهوب ؟
— ذكي ؟ . . نعم . موهوب ؟ لا ادري . لا اظن .
— لا ؟ فماذا فيه ملفت للنظر ؟
— ستراه . والآن ، اعتقد ان علينا ان نذهب . آنا فاسيليفنا في انتظارنا ، على ما اظن . كم الساعة ؟
— الثالثة . لنذهب . ما اكتم الهواء ! ان هذا الحديث أجج كل دمي . كما انك تجلَّيت ايضاً . . . وليس دون طائل انني فنان . ألحظ كل شيء . اعترف بان امرأة تشغلك ، أليس كذلك ؟

واراد شوبين ان ينظر الى وجه بيرسينيف ، الا ان هذا اشاح بوجهه ، وخرج من تحت شجرة الزيزفون . تبعه شوبين ، منقلاً قدميه الصغيرتين بتراخ ورشاقة . كان بيرسينيف يمشي مشية ثقيلة ، يرفع كتفيه عالياً اثناء سيره ، ويمد رقبته ، ومع ذلك فقد بدا اكثر «استقامة» من شوبين ، وكان من الممكن ان نقول اكثر جنتلمانية ، لو لم تبتذل هذه الكلمة عندنا كثيراً .

٢

نزل الشابان الى نهر موسكو ، وسارا بمحاذاة الشاطئ . كانت النداوة تهب من النهر ، وطرطشة الامواج الصغيرة تداعب السمع . انشأ شوبين يقول :

— كنت ساسبح مرة اخرى ، ولكنني اخشى ان اتأخر . انظر الى النهر ، فكأنه يغمز لنا غاوياً . لو أن الاغريق القدامى كانوا هنا لرأوا فيه حورية ، ولكننا لسنا اغريقاً ، يا حورية ! نحن سكيفيون غلاظ الجلود .

قال بيرسينيف :

— عندنا ما يقابلها . . . حورية الماء .
— اف منك ومن حورياتك ! ما الذي تجديني ، انا النحات ، هذه ، سُعالى * الخيال المذعور البارد ، هذه الأطياف المولودة في كوخ ريفي مكتوم الهواء ، في عتمة ليالي الشتاء ؟ انا بحاجة الى

---

* السعلاة : حيوان خرافي يثير الفزع . **المترجم** .

1—899

النور ، الى الرحاجة . . . اوه ، يا الهي ، متى سأسافر الى ايطاليا ؟ متى . . .

— يعني تريد ان تقول الى اوكرانيا ؟

— اخجل من نفسك ، يا اندريـــه بيتروفيتش عن تعبيري بحماقة طائشة ، أنا بدون ذلك نادم عليها ندامة مرة . حسناً ، لقد تصرفت كالاحمق ، حين اعطتني آنا فاسيليفنا الفائقة الطيبة نقوداً لاسافر إلى ايطاليـــا ، فسافرت إلى الاوكرانيين ، لآكـــل اللقم الاوكرانية و . . . .

قاطعه بيرسينيف :

— لا تكمّل كلامك ، ارجوك .

— ولكني اقول ان هذه النقود لم تنفق هباء . فقد رأيت هناك نماذج من الناس ، ولاسيما من النساء . . . بالطبع ، أنا اعرف أن لا خلاص خارج ايطاليا .

قال بيرسينيف دون ان يلتفت اليه :

— تذهب الى ايطاليا ، ولا تقوم بشيء . مجرد ان تخفـــق بجناحيك ، ولا تطير . نحن نعرفك !

— ستافاسير (٥) طار . . . وليس هو الوحيد في ذلك . . . اذا كنت لا اطير ، فانا بطريق بحري ، بلا اجنحة — ثم مضى قائلاً — انا اختنق هنا ، اريد ان اسافر الى ايطاليا . فهناك الشمس ، هناك الجمال . . .

في تلك اللحظة ظهرت في الدرب الذي يسيران فيه فتاة في مقتبل العمر ، ترتدي قبعة عريضة من القش ، وعلى كتفها مظلة وردية .

هتف شوبين فجأة ، وهو يلوح بقبعته في حركة مسرحية :

— أوه ، ماذا ارى ؟ وهنا ايضاً يأتي الجمال للقيانا . تحية فنان خاشع للفاتنة زويا .

توقفت الفتاة التي خاطبها بهذه الكلمات ، وهددته باصبعها ، وتركت كلا الصديقين يقتربان منها ، وقالت بصوت صدّاح مع شيء من اللثغة :

— لماذا لا تأتيان الى الغداء ، يا سادة ؟ المائدة جاهزة .

قال شوبين ثانياً ذراعيه :

— ما هذا الذي أسمعه ؟ هل معقول أنك ، زويا الفاتنة ، عزمت

على الخروج في مثل هذا الحر لتبحثي عنا ؟ اهكذا يجب ان افهم معنى كلامك ؟ قولي ، معقول ؟ او ، لا ، الافضل ان لا تنطقي بهذه الكلمة . ستقتلني الندامة في الحال .

قالت الفتاة دون ان يخلو كلامها من الضيق :

— أوه ، كفَّ عن ذلك ، بافل ياكوفليفيتش . لماذا لا تتحدث معي بجدية ابداً ؟ سازعل .

اضافت بحركة غنجة من جسمها ، ومطت شفتيها .

— لا تزعلي عليَّ ، يا زويا نيكيتيشنا المُثلى . فانت لا تريدين ان ترميني في الهاوية الكئيبة من اليأس المسعور . اما الكلام الجدي فلا اجيده ، لانني لست رجلاً جدياً .

هزَّت الفتاة كتفيها ، وتوجهت الى بيرسينيف قائلة :

— انه دائماً بهذا الشكل . يعاملني كما يعامل طفلاً ، بينما تخطيت انا الثامنة عشرة . انا الآن كبيرة .

— اه ، يا الهي !

توجع شوبين ، مقلّباً عينيه الى الأعلى . وكشَّر بيرسينيف عن ابتسامة قصيرة في صمت .

ضرَبت الفتاة الارض بقدمها . ومضت تقول :

— بافل ياكوفليفيتش ! سأزعل ! ارادت Helène ان تذهب معي ، ولكنها بقيت في الحديقة . خافت من الحر ، ولكنني لم اخف منه . هيَّا لنذهب .

وسارت في الدرب في المقدمة ، تميس قليلاً بقدها الممشوق في كل خطوة ، وتزيح عن وجهها خصلات شعرها الناعمة الطويلة بيدها الحلوة المقفَّزة بقفاز غير مصبَّغ .

سار الصديقان في اثرها (كان شوبين تارة يضغط يديه على قلبه بصمت ، وتارة يرفعهما اعلى من رأسه) . وبعد لحظات وجدا انفسهما امام أحد البيوت الريفية العديدة المحيطة بكونتسوفو . كان هذا البيت الخشبي الصغير ذو العُلية والمطلي بالطلاء الوردي يقع وسط حديقة ، ويطل من وراء خضرة الاشجار في شيء من السذاجة . كانت زويا اول مَنْ فتح باب الحديقة . ركضت في الحديقة ، وراحت تصيح : «جئت بالأفّاقين !» . نهضت من مسطبة قرب الممر فتاة في ريعان الشباب ذات وجه شاحب معبِّر ، وظهرت

على عتبة البيت إمرأة في ثوب حريري ليلقي ، ورفعت منديلاً مطرزاً من القماش القطني فوق رأسها إتقاء الشمس ، وابتسمت بونى وفتور .

٣

كانت آنا فاسيليفنا ستاخوفا (الملقبة بشوبينا ، قبل زواجها) قد تيتمت من والديها ، وهي في السابعة من العمر ، وورثت ضيعة على قدر كاف من السعة . وكان لها اقارب اثرياء جداً ، وفقراء جداً . الفقراء من ابيها ، والاغنياء من أمها : الشيخ فولغين ، وامراء آل تشيكوراسوف . وقد وضعها الامير ارداليون تشيكوراسوف الذي صار وصياً عليها ، في احسن مدرسة داخلية في موسكو ، وبعد تخرجها من المدرسة ، اخذها لتعيش في بيته . وكان يعيش حياة غير مغلقة ، ويقيم حفلات راقصة في الشتاء . وقد استمالها نيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف ، زوجها المقبل ، في واحدة من هذه الحفلات ، حين كانت «في ثوب وردي فاتن بغطاء الرأس من الورود الصغيرة» . وقد احتفظت بهذا الغطاء . . . ونيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف هـــو ابن رائد متقاعد جرح في عام ١٨١٢ ، وحصل على وظيفة مربحة في بطرسبورغ . وقد دخل الابن ، وهو في السادسة عشرة ، في مدرسة عسكرية ، وتخرج ضابط حرس . كان وسيم الطلعة ، حسن البنيان ، يكاد يكون الفارس الاول في حفلات الطبقة المتوسطة التي كان يشهدها في الغالب . اما المجتمع الراقي فلم يكن له سبيل اليه . وكانت له امنيتان منذ شبابه : ان يكون ضابط حاشية ، وان يتزوج زواجاً مربحاً ؛ وسرعان ما تخلى عن امنيته الاولى ، الا أنه تشبث اكثر في امنيته الثانية . وتبعاً لذلك كان يسافر في كل شتاء الى موسكو . كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم الفرنسية بشكل لا بأس به ، واشتهر بأنه فيلسوف ، لأنه لم يكن يشترك في موائد الخمور . وصار ، وهو ما يزال برتبـــة ملازم ، يحب ان يجادل بحماس ، مثلاً ، هل في استطاعة الانسان ، أن يطوف الكرة الارضية خلال عمره كله ، وهل يقدر أن يعرف ماذا يجري في قاع البحر . وكان دائماً يجيب بالنفي .

كان نيقولاي ارتيميفيتش قد تخطى الخامسة والعشرين حين

«تعلّق» بآنا فاسيليفنا . وقد تقاعد عن الخدمة ، وسافر الى الريف ليدير شؤون الضيعة . وسرعان ما سئم حياة القرية ، فاعطى الضيعة الى الفلاحين باللزمة ، واقام في موسكو ، في بيت زوجته . في صباه لم يكن قد اشترك في لعبة ورق ، ولكن ولع في موسكو باليانصيب ، وحين أُلغي اليانصيب ، اغرم بلعبة الورق . وكان يسأم في البيت ، وصارت له علاقة مع ارملة من اصل الماني ، وصار يقضي معها اوقاته كلها تقريباً . وفي صيف ١٨٥٣ لم ينتقل الى كونتسوفو ، بل بقي في موسكو ، ليتعاطى المياه المعدنية ، على حد زعمه ، بينما اراد ، في الحقيقة ، ان يظل مع صاحبته الارملة . وعلى اية حال ، كان يتكلم قليلاً معها ايضاً ، ويجادل اكثر عما اذا كان في مستطاع الانسان ان يتنبأ بالطقس الى غير ذلك . وذات مرة سماه أحد الناس * Frondeur ، فراق له هذا اللقب كثيراً . كان يفكر مُرخياً طرفي شفتيه في رضى عن النفس هازاً جذعه : «نعم ، ليس من السهل ارضائي ، ولا سبيل الى خداعي» . وكان اعتراض نيقولاي ارتيميفيتش يتمثل في أنه اذا سمع ، على سبيل المثال ، كلمة «اعصاب» ، فانه سيقول : «اي شيء هذه الاعصاب ؟» واذا ذكر احد في حضوره نجاحات الفلك ، قال : «وهل تصدقون بالفلك ؟» . وحين كان يريد دحر الخصم كلياً كان يقول : «كل هذه مجرد اقوال» . ولا بد من الاعتراف بأن الكثيرين كانوا (وما يزالون حتى الآن) يرون هذا اللون من الاعتراض لا يمكن ان يدحض . ولكن نيقولاي ارتيميفيتش لم يكن يظن أن افغوستينا خريستيانوفنا كانت تسميه في رسائلها الى ابنة عمها فيودولينda بيترزيليوس بـ«Mein Pinselchen» ** .

كانت آنا فاسيليفنا ، زوجة نيقولاي ارتيميفيتش إمرأة صغيرة الجسم نحيلة دقيقة القسمات ، ميّالة الى الانفعال والاكتئاب . كانت في المدرسة الداخلية تدرس الموسيقى ، وتقرأ الروايات ، ثم تركت كل ذلك . وصارت تتأنق في ملابسها ، وحتى هذا تركته ، وانشغلت بتربية ابنتها ، الا أنها وهنت ، فسلمتها الى يدي مربية وانتهى بها المطاف الى ان تنقطع الى الاكتئاب والانفعال الهادئ ، ولا شيء

* الوعق المعترض (بالفرنسية اصلاً) .
** احمقي (بالالمانية في الاصل) .

آخر . اضرّت ولادتها ليلينا نيقولايفنا بصحتها ، ولم تعد قادرة على انجاب اولاد آخرين . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يلمح الى ذلك مبرراً علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا . كانت خيانة الزوج تُحزن آنا فاسيليفنا كثيراً ، وقد آلمها بشكل خاص أنه أهدى ، ذات مرة ، لصاحبته الالمانية بالخديعة حصانين رماديين من حظيرتها ، حظيرة آنا فاسيليفنا . لم تكن تعاتبه وجهاً لوجه قط ، ولكنها كانت تشكوه ، خفية ، الى اهل بيتها واحداً واحداً ، وحتى لابنتها . وكانت آنا فاسيليفنا لا تحب الخروج من البيت ، وكان يطيب لها ان يكون لديها ضيف يروي لها شيئاً ، وكانت الوحدة تسلمها إلى المرض في الحال . كان قلبها رقيقاً يحب الناس كثيراً ، ولكن الحياة سرعان ما طحنتها .

كان بافل ياكوفليفيتش شوبين ابن عمها الاكبر . وكان ابوه يعمل في وظيفة في موسكو ، واخواه يدرسان في مدرسة عسكرية . وكان هو اصغرهم ، والمفضّل لدى امه ، وكان هزيل البنية ، فبقي في البيت . وكان الاهل يودون لو يدخل الى الجامعة ، ويجدون عسراً في توفير متطلبات دراسته الثانوية . وكان قد أظهر ، منذ صغره ، ميلاً الى النحت ، وذات مرة ، رأى الشيخ فولغين ، الضخم البنية ، تمثالاً صغيراً لدى عمته (كان آنذاك في السادسة عشرة) فاعلن انه ينوي ان يشمل هذا النابغ الشاب برعايته . وقد غيَّرت وفاة ابي شوبين المفاجئة كل مستقبل ابنه الشاب او كادت . اهدى له الشيخ راعي المواهب ، تمثالاً نصفياً من الجبس لهوميروس ، ولا اكثر . ولكن آنا فاسيليفنا اعانته بالنقود ، قدَّبَّر ، على نحو ما ، أمر دخوله الى كلية الطب ، في الجامعة وهو في التاسعة عشرة . وكان بافل لا يحس اي ميل الى الطب ، ولكن كان من المستحيل حسب عدد الطلاب الموجود آنذاك التحاقه في كلية اخرى ، وفي الوقت ذاته كان يأمل بأن يدرس التشريح . ولكنه لم يتعلم التشريح ، ولم ينجح الى السنة الثانية ، وخرج من الجامعة دون ان ينتظر الامتحان ، يتفرغ كلياً الى مهمته . فعمل بدأب ، ولكن على فترات . وراح يتجول في ضواحي موسكو ، ويصيغ ويرسم الصور الشخصية للفلاحات الشابات ، ويلتقي باناس مختلفين ، شباناً وشيوخاً من ذوي المراتب العالية والواطئة ومع المقوّلبين الايطاليين ، والفنانين الروس ، وكان يرفض

الاكاديمية ، ولا يعترف بأي استاذ . وكان لا يخلو من موهبة ، فصار الناس يعرفونه في موسكو . وكانت امه ، وهي امرأة طيبة ذكية وباريسية المولد من عائلة معتبرة ، قد علمته اللغة الفرنسية ، واهتمت به ، واخذت ترعاه ليل نهار ، وتفتخر به ، ولدى احتضارها ، وهي لم تودع الشباب بعد ، متأثرة بمرض السل رجت آنا فاسيليفنا أن تضمه اليها وتأخذ بزمامه . وكان هو آنذاك في الحادية والعشرين . ونفذت آنا فاسيليفنا رغبة الأم الاخيرة . فصار بافل يحتل غرفة صغيرة في ملحق بيتها الريفي .

٤

قالت ربة البيت بصوت مشفق :

– لنذهب الى الغداء ، لنذهب – واتجه الجميع الى غرفة الطعام ، ومضت آنا فاسيليفنا تقول – اجلسي بقربي Zoé ، اما انت يا Helène فداري الضيف ، وانت يا Paul ، ارجوك لا تشاكس ، ولا تناكد Zoé . رأسي يوجعني اليوم .

قلّب شوبين عينيه صوب السماء ثانية ، فردت عليه Zoé بشبه ابتسامة . و Zoé هذه ، او بعبارة اصح ، زويا نيكيتشنا ميولر فتاة روسية ، المانية الاصل حلوة ، حولاء قليلاً ، ذات انف صغير عريض المنخرين ، وشفتين صغيرتين حمراوين ، شقراء الشعر ، ممتلئة الجسم . كانت تغني اغاني الرومانس الروسية بطريقة لا بأس بها ، وتعزف على البيانو بسلامة معزوفات مختلفة مرحة تارة ، ومؤثرة تارة اخرى . وكانت تختار ملابسها بذوق ، ولكن بشيء من الطفولية ، وبعناية مفرطة . اخذتها آنا فاسيليفنا كمرافقة لابنتها ، وابقتها قريبة الى نفسها على الدوام تقريباً . ولم تتشك يلينا من ذلك . وحين يصدف أن تخلو الى زويا كانت لا تعرف قطعاً عم تتحدث معها .

استمر الغداء وقتاً طويلاً ، وصار بيرسينيف يتحدث مع يلينا عن الحياة الجامعية ، وعن نواياه وآماله . وكان شوبين يستمع ، ويلازم الصمت ، ويأكل بنهم مبالغ فيه ، ملقياً ، من حين لآخر نظرات جزعة بشكل فكاهي ، الى زويا التي كانت ترد عليه بنفس الابتسامة الفاترة . وبعد الغداء خرجت يلينا مع بيرسينيف وشوبين

الى الحديقة . شيعتهم زويا بنظراتها ، وقد هزّت كتفيها قليلاً ، وجلست الى البيانو . اخذت آنا فاسيليفنا تقول : «لماذا لا تتمشين انتِ ايضاً ؟» إلا أنها اضافت ، دون ان تنتظر الجواب : «اعزفي لي شيئاً مشجياً . . .»

سألت زويا : — « La dernière pensée » de Weber? *

— آه ، نعم فيبر .

قالت آنا فاسيليفنا ، وقعدت على الكرسي ، واطلت الدمعة على رموشها .

وخلال ذلك قادت يلينا الصديقين الى تعريشة من الاقاصيا تتوسطها طاولة خشبية حولها مساطب . تلفت شوبين فيما حوله ، وقفز عدة مرات ، وقال همساً : «انتظرا قليلاً» ، وركض الى حجرته ، وجاء بقطعة من الطين، وأخذ يعجن تمثالاً لزويا ، وهو يهز رأسه ، ويغمغم ، ويضحك .

— عاد الى مُزحته القديمة .

قالت يلينا ، بعد ان نظرت الى ما يفعله ، مخاطبة بيرسينيف الذي كانت تتابع معه الحديث الذي بدئ على مائدة الغداء .

كرر شوبين :

— مُزحته القديمة . موضوع لا ينضب ابداً . اليوم بشكل خاص تحرق الاعصاب .

سألت يلينا :

— ولماذا ؟ كأنك تتكلم عن عجوز مزعجة خبيثة . إنها فتاة حلوة في ريعان الشباب . . .

قاطعها شوبين :

— حلوة ، بالطبع ، وحلوة جداً . انا واثق من ان اي عابر سبيل ينظر اليها ، لا بد أن يفكر : هذه هي الفتاة التي تحلو معها . . . رقصة «البولكا» . كما انني واثق من أنها تعرف ذلك ، وتستلذ به . . . لِمَ هذه الحركات المخجلة ، هذا التواضع الزائف ؟ طيب ، انتما تعرفان ما اريد ان اقوله . — اضاف من خَلَل اسنانه — على العموم ، انتما الآن مشغولان بشيء آخر .

---

* «الفكرة الاخيرة» لفيبر ؟ (بالفرنسية في الاصل) .

خرّب شوبين تمثال زويا ، واخذ يعجن الطين ويدعكه بعجالة ، وكأن ذلك عن انزعاج .

سألت يلينا بيرسينيف :

— اذن ، فانت تود ان تكون استاذاً ؟

— نعم — ردّ هذا ، ضاغطاً يديه الحمراوين بين ركبتيه — هذه أمنيتي المفضلة . بالطبع أنا اعرف جيداً كل ما ينقصني لاستجيب لمتطلبات هذا المرام الرفيع . . . اريد أن اقول انا قليل التأهل للغاية ، ولكن آمل في الحصول على السماح بالسفر للخارج . واقيم هناك ثلاث او اربع سنوات ، اذا اقتضى الامر ، وعندئذ . . .

وتوقف ، واطرق ببصره ، ثم رفع عينيه بسرعة ، وعدّل شعره ، مبتسماً بحراجة . وكان بيرسينيف حين يتكلم مع امرأة ، يصير كلامه ابطأ من ذي قبل ، واكثر تلفظاً بحرف السين .

سألت يلينا :

— أتريد ان تكون استاذ التاريخ ؟

— نعم ، او الفلسفة — واضاف مخفضاً صوته — اذا كان ذلك ممكناً .

— انه منذ الآن قوي في الفلسفة ، كالشيطان — قال شوبين ، وهو يحز خطوطاً عميقة في الطين بأظفره — فما حاجته الى السفر للخارج ؟

سألت يلينا ، وقد ارتفقت على كوعها ، وراحت تنظر في وجهه :

— وستكون راضياً تماماً عن وضعك ؟

— تماماً ، يلينا نيقولايفنا ، تماماً . فأي شيء يمكن ان يكون ارفع من هذه الرسالة ؟ السير على خطـــــا تيموفي نيقولايفيتش (٦) . . . مجرد التفكير في مثل هذه الممارســـة يملؤني حبوراً وخجلاً ، — نعم . . . خجلاً من ادراكي لصغر قابلياتي . ابي المرحوم باركني على هذا الامر . . . أنا لن انسى ابداً كلماته الاخيرة .

— ابوك توفي في شتاء هذا العام ؟

— نعم ، يلينا نيقولايفنا ، في شباط .

فمضت يلينا تقول :

— يقال انه ترك مخطوطة مؤلف عظيم ، أهذا صحيح ؟

— نعم ، صحيح . لقد كان رجلاً رائعاً ، كنت ستحبينه لو كنت تعرفينه ، يلينا نيقولايفنا .

— انا واثقة من ذلك . وما هو محتوى هذا المؤلَّف ؟

— هناك بعض الصعوبة في تقديم محتوى هذا المؤلف لك بكلمات قليلة . كان ابي رجلاً متعلماً جداً من اتباع شيلينغ (٧) . وكان يستخدم تعابير ليست واضحة دائماً . . .

قاطعته يلينا :

— اندريه بيتروفيتش ، اعذرني على جهلي : ما معنى من اتباع شيلينغ ؟

ابتسم بيرسينيف ابتسامة خفيفة .

— الفيلسوف الالماني شيلينغ ، وكانت تعاليم شيلينغ . . .

وفجأة هتف شوبين :

— اندريه بيتروفيتش ! إكراماً للرب ذاته ! يعني تريد أن تلقي محاضرة على يلينا نيقولايفنا عن شيلينغ ؟ رحماك !

تمتم بيرسينيف واحمرّ :

— ليست محاضرة اطلاقاً ، بل اردت . . .

فأسرعت يلينا تستدركه :

— ولماذا لا محاضرة ؟ انا وانت محتاجان الى محاضرات ، بافل ياكوفليفيتش .

تفرّس شوبين فيها ، وقهقه فجأة .

استفهمت ببرود ، وبحدة تقريباً :

— ولِمَ تضحك ؟

سكت شوبين . وبعد برهة قال :

— طيب ، يكفي . لا تزعلي . انا المقصّر . ولكن مع ذلك ، ما الحاجة الى الكلام عن الفلسفة الآن ، في مثل هذا الطقس ، وتحت هذه الاشجار ؟ الافضل ان نتحدث عن البلابل ، عن الورود ، عن العيون الفضة ، والبسمات .

فاستطردت يلينا قائلة :

— نعم ، وعن الروايات الفرنسية ، وعن الملابس النسائية .

فردّ شوبين :

— وليكن عن الملابس النسائية ، اذا كانت جميلة .

— ممكن ، ولكن اذا كنا لا نريد ان نتحدث عن الملابس ؟ انت

تعتبر نفسك فناناً حراً ، فلماذا تعتدي على حرية الآخرين ؟ ثم اسمح لي ان اسألك لماذا تهاجم زويا اذا كنت تفكر بهذه الطريقة ؟ الحديث عن الملابس وعن الورود يناسبها بشكل خاص .

احتدم شوبين فجأة ، ووثب من على المسطبة . وراح يقول بصوت متهدج :

– هكذا اذن ؟ انا فاهم تلميحك . انت تريدين أن تعيديني اليها ، يلينا نيقولايفنا . يعني انا زائد هنا ، بعبارة اخرى ؟

– لم افكر في ابعادك عن هنا .

فتابع شوبين يقول محتد المزاج :

– انت تريدين ان تقولي انا لا أستأهل صحبة اخرى ، وانني لا اصلح الا لها ، فانا فارغ وسخيف ، وتافه ، كتلك الالمانية المعسولة . أليس كذلك ؟

قطبّت يلينا حاجبيها . وقالت :

– لم يكن لك فيها هذا الرأى دائماً ، يا بافل ياكوفليفيتش .

صاح شوبين :

– اها ! توبيخ ! توبيخ هذه المرة ! طيب ، نعم ، كانت هناك لحظة ، انا لا انكر ، لحظة واحدة فقط ، حين كان ذانك الخدان الطريان ، المبتذلان . . . ولكن لو كنت اريد ان ابادلك التوبيخ ، واذكّرك . . . وداعاً – اضاف فجأة – انا مستعد ان اتخبط في الكذب .

وضرب بيده الرأس الذي صاغه من الطين ، وخرج راكضاً من التعريشة ، ولاذ في حجرته .

قالت يلينا ، وهي تشيعه بنظرها :

– طفل .

قال بيرسينيف بابتسامة خفيفة :

– فنان . كل الفنانين بهذا الشكل . يجب ان يسامحوا على نزاوتهم . هذا من حقهم .

قالت يلينا :

– نعم . ولكن بافل لم يأت حتى الآن بشيء يثبت له هذا الحق . ماذا صنـــــع حتى الآن ؟ هات يدك ، ولنتمشى في الدرب المعرّش . قطع بافل علينا حديثنا . كنا نتحدث عن مؤلف والدك .

تناول بيرسينيف يد يلينا ، وسار وراءها في الحديقة ، ولكن

الحديث الذي اُستهل لم يُستأنف ، بعد أن قُطع مبكراً جداً . عاد بيرسينيف يطرح من جديد تصوراته عن لقب الاستاذية ، وعن نشاطه المقبل . كان يسير جنب يلينا ببطء ، وبخطوات مرتبكة ، ويمسك بيدها غير متمالك حركاته ، يصدمها بكتفه احياناً ، ولم ينظر اليها قط . ولكن كلامه كان يجري بخفة وبطلاقة تامة تقريباً ، وكان يعبر ببساطة وثقة . وكانت عيناه المطوفتان ببطء في جذوع الاشجار ، ورمل الدرب والعشب ، تشعان بالرقة الهادئة للمشاعر النبيلة ، وصوته المطمئن يفصح عن فرحة انسان يدرك ان التوفيق يحالفه في الاعراب عن نفسه امام شخص آخر عزيز عليه . وكانت يلينا تصغي اليه بانتباه ، وقد ادارت جسمهـــا نحوه نصف استدارة ، ولم تصرف بصرها عن وجهه الشاحب قليلاً ، وعن عينيه الودودتين الوديعتين ، المتحاشيتين في الوقت ذاته ، الالتقاء بعينيها . وكانت روحها تتفتح ، وتشعر بشيء رقيق عادل وطيب ينصب في قلبها ، او يتنامى فيه .

٥

ظل شوبين معتكفاً في حجرته حتى الليل . احلولك الظلام تماماً . وكان الهلال عالياً في السماء . وكانت المجرّة قد طلعت ، والنجوم شرعت تترامض ، حين ودّع بيرسينيف آنا فاسيليفنا ، ويلينا ، وزويا ، وتقدّم من باب حجرة صديقه . وجد الباب مغلقاً ، فأخذ يطرقه . فصدر صوت شوبين :

— مَنْ هناك ؟

اجاب بيرسينيف :

— أنا .

— ماذا تريد ؟

— بافل ، دعني ادخل ، لا تشاكس . كيف لا تخجل ؟

— انا لا اشاكس . أنا نائم وأحلم بزويا .

— كفى ، ارجوك . لستَ طفلاً . دعني ادخل ، اريد ان اتحدث اليك .

— الم تشبع بعدُ حديثاً مع يلينا ؟

– يكفي ، يكفي ، دعني ادخل !

ردّ شوبين بشخير مصطنع . هزّ بيرسينيف كتفيه ، وسار الى البيت .

كانت الليلة دافئة وساكنة سكوناً غير عادي وكأن كل ما فيها يتسمع ويتربص . وكان بيرسينيف الذي شمله الظلام الساكن يتوقف دون ارادته ويتسمع ويتربص . وكان الحفيف الخافت الشبيه برفيف ثوب نسائي يرتفع من حين الى آخر في ذرى الاشجار القريبة ، ويثير في نفس بيرسينيف احساساً حلواً ومتوجساً ، احساساً في منتصف الطريق الى الرهبة . سرى دبيب القشعريرة على خديه ، وتثلّجت عيناه بدمعة خاطفة . فقد كان يود لو انه يسير بلا صوت تماماً ، يتخبأ ، ينسل انسلالاً . مرّت خفقة ريح حادة على جنبه ، فكاد يجفل ، وجمد في مكانه . وقعت خنفساء ناعسة من على غصن ، وارتطمت في الطريق . صاح بيرسينيف بخفوت : «ها !» وتوقف مرة اخرى . ولكنه شرع يفكر في يلينا ، فاختفت كل هذه الاحاسيس العابرة دفعة واحدة . ولم يبق الا الوقع المنعش لطراوة الليل ، لنزهة ليلية . وامتلأت روحه كلها بصورة الفتاة . سار بيرسينيف مطرق الرأس ، وراح يسترجع في ذاكرته كلماتها واسئلتها . وخيل اليه انه يسمع وقع خطوات سريعة خلفه . ارهف سمعه . كان شخص يجري ، ليلحق به . ترددت انفاس متلاحقة ، وفجأة طلع شوبين امامه من دائرة الظل السوداء لشجرة كبيرة ، حاسر الرأس ، منفوش الشعر ، ممتقعاً بكليته في ضوء القمر . وراح يقول بصعوبة :

– انا مسرور لأنك سلكت هذا الطريق . لو لم الحق بك لبقيت مسهّداً طوال الليل . اعطني يدك . انت ذاهب الى البيت ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– سارافقك .

– ولكن كيف تسير حاسر الرأس ؟

– لا بأس . وخلعت ربطة عنقي ايضاً . الجو دافئ الآن .

قطع الصديقان عدة خطوات . وسأل شوبين فجأة :

– كنتُ اليوم شديد الحماقة . أليس صحيحاً ؟

– نعم ، بصريح العبارة . لم استطع ان افهمك . انا لم ارك



بهذا الشكل قط . يا الله ، ما الذي جعلك تغضب ! من اجل مثل هذه التوافه ؟

غمغم شوبين :

— حم . هذه طريقتك في التعبير ، ولكن هذه ليست توافه بالنسبة لي . اسمع — اضاف قائلاً — يجب ان انبهك الى اني . . . اني . . . ولك ان تظن بي ما تشاء . . انا . . اي ، نعم . . انا مغرم بيلينا .

— مغرم بيلينا !

كرر بيرسينيف ، وتوقف . فمضى شوبين يقول متصنعاً عدم المبالاة :

— نعم . وهل يدهشك ذلك ؟ سأقول لك اكثر من هذا . انني ، حتى هذا المساء ، كنت آمل بأنها ستحبني ، هي الاخرى ، مع مرور الزمن . ولكن اليوم اقتنعت بان امنياتي خائبة ، اذ انها احبت شخصاً آخر .

— شخصاً آخر ؟ من هو ؟

— مَنْ ؟ احبتك انت !

صاح شوبين ، وضرب بيرسينيف على كتفه .

— احبتني !

كرر شوبين :

— احبتك .

تراجع بيرسينيف خطوة . وجمد بلا حراك . امعن شوبين النظر فيه بحدة .

— ويدهشك هذا ، ايضاً ؟ انت فتى متواضع . ولكنها تحبك . وفي وسعك ان تطمئن بهذا الخصوص .

قال بيرسينيف اخيراً في ضيق :

— اي هراء تقول !

— لا ، ليس هراء . على العموم ، لماذا نحن واقفان ؟ لنواصل السير . المشي اخف على النفس . انا اعرفها منذ زمان ، واعرفها بشكل جيد . ولا يمكن ان اخطأ . وقعت في قلبها موقعاً حسناً . في وقت ما كانت معجبة بي ، ولكنني اولاً شاب طائش جداً بالنسبة لها بينما انت مخلوق جدي ، أنت شخصية نظيفة خلقياً وجسدياً ، أنت . . . انتظر ، انا لم اكمل ، أنت متحمس معتدل نقي الضمير

ممثل حقيقي لكهنة العلم الذين تفخر بهم عن حق طبقة النبلاء الروس المتوسطي الحال ! وثانياً ، رأتني يلينا ، قبل ايام ، اقبل يد زويا .

— يد زويا ؟

— نعم ، يد زويا . فماذا تأمر أن افعل ؟ كتفاها جميلتان .

— كتفاها ؟

— نعم ، كتفاها ، يداها ، هل هناك فرق ؟ وجدتني يلينا وسط هذه الممارسات الحرة بعد الغداء ، بينما كنت قبل الغداء اشتم زويا بحضورها . ويلينا ، مع الاسف ، لا تفهم كل مثل هذه التناقضات الطبيعية . واذا بك تظهر هنا ، انت مثالي وتؤمن . . . على فكرة ، بأي شيء تؤمن ؟ . . تحمر ، وترتبك ، وتتحدث عن شيللر (٨) ، عن شيلينغ (وهي دائماً تبحث عن الناس المرموقين) فصار النصر حليفك ، بينما أنا ، التعيس ، احاول ان امزح . . . و . . . في غضون ذلك . . .

وانفجر شوبين بالبكاء فجأة ، وانتحى جانباً ، وجلس على الارض ، وانشب اصابعه في شعره .

اقترب بيرسينيف منه . وقال :

— يافل . ما هذه الطفولية ؟ رحماك ! ماذا بك اليوم ؟ الله يعلم أية سخافة دارت في رأسك ، وتبكي ايضاً . في الحقيقة يبدو لي انك تتظاهر .

رفع شوبين رأسه . والتمعت الدموع على خديه في ضوء القمر ، ولكن وجهه كان يبتسم . قال :

— اندريه بيتروفيتش ، تستطيع ان تظن بي ما تشاء . بل ويمكن ان اوافق على انني الآن في حالة هستيريا ، ولكنني اعشق يلينا ، قسماً بالله ، ويلينا تحبك . على العموم ، وعدتك بأن ارافقك الى البيت ، وسأفي بوعدي .

ونهض .

— ما اروع الليل ! فضياً ، داجياً ، فتياً ! ما اطيب الوقت الآن للمحبوبين ! وما ابهج سهرهم ! هل ستنام ، يا اندريه بيتروفيتش ؟

لم يجب بيرسينيف ، وغذّ خطاه . ومضى شوبين يقول :

— الى اين تستعجل ؟ صدق بكلامي ، لن تتكرر مثل هذه

الليلة في حياتك ، بينما ليس في انتظارك في البيت غير شيلينغ . حقاً انه قدم لك خدمة اليوم ، ولكن لا تستعجل ، على اية حال . غنّ ، اذا كنت تحسن الغناء ، وغنّ بصوت اعلى ، اذا كنت لا تحسنه : اخلع قبعتك ، وادفع رأسك الى الوراء ، وابتسم للنجوم . انها جميعاً تصوب انظارها اليك ، واليك وحدك . النجوم لا تفعل شيئاً غير النظر الى العشاق ، ولهذا السبب نراها بهذه الفتنة . انت عاشق ، يا اندريه بيتروفيتش ، أليس كذلك ؟ لا تجيبني . . . لماذا لا تجيبني ؟ – وعاد شوبين يقول – اوه ، لو كنت تشعر بانك سعيد ، فاصمت ، اصمت ! انا اثرثر ، لأنني عاثر الحظ ، غير محبوب ، حاوٍ ، ممثل ، بهلوان ، ولكن اي سرور صامت كنت سأشعر به في هذه النسائم الليلية ، تحت هذه النجوم ، تحت احجار الالماس هذه ، لو كنت اعرف أنني محبوب ! . . بيرسينيف ، هل انت سعيد ؟

ظل بيرسينيف على صمته ، يسير بسرعة في الطريق المستوية . والى الأمام كانت انوار القرية التي يعيش فيها تتوامض من خَلَل الاشجار . وكانت القرية كلها مؤلفة من عشرة بيوت ريفية صغيرة . وفي بداية القرية تماماً ، الى يمين الطريق ، تحت شجرتي البتولا كثيرتي الفروع كان الحانوت الصغير قد اغلق كل نوافذه ، ولكن شريطاً عريضاً من النور كان يرتمي كالمروحة من بابه المفتوح ، على العشب المسحوق بالاقدام ، ويسقط في الاعلى على الشجرتين ، مضيئاً بقوة بطون اوراقهما المتكاثفة الضاربة الى بياض . وكان ثمة فتاة ، خادمة كما يدل مظهرها ، تقف في الحانوت مديرة ظهرها الى العتبة ، تماكس صاحب الحانوت . وكان خدها المدوّر وعنقها الرقيق لا يكادان يبدوان من تحت المنديل الاحمر الذي القته على رأسها ، واسندته بيدها العارية عند الذقن . دخل الشابان شريط الضوء . نظر شوبين داخل الحانوت ، وتوقف ، وهتف : «آنوشكا !» التفتت الفتاة بخفة ، ولاح وجه حلو المحيّا عريض قليلاً ، ولكنه غض ذو عينين بنيتين مرحتين ، وحاجبين اسودين . كرر شوبين : «آنوشكا !» امعنت الفتاة النظر فيه ، وارتعبت ، وعلاها الخفر ، ونزلت من درجات مدخل الحانوت ، دون ان تكمل شراءها ، وانسلت مارة بهما بخفة ، وعبرت الطريق الى اليسار ، متلفتة قليلاً . تنحنح الحانوتي ، وتثاءب في اثرها . وكان رجلاً مترهلاً لا يكترث لأي

شيء في الدنيا ، مثل جميع اصحاب الحوانيت الصغار في الضواحي . بينما خاطب شوبين بيرسينيف بهذه الكلمات : «ها . . . ها انت ترى . . . عندي عائلة اعرفها هنا . . . كما هو عندهم . . . لا يذهب بك الظن . . .» وركض وراء الفتاة المبتعدة دون ان يكمل كلامه .

صاح بيرسينيف في اثره :

— امسح دموعك ، على الأقل .

ولم يستطع ان يكبح ضحكته . ولكنه ، حين عاد الى بيته ، لم يكن على وجهه اثر للمرح . ولم يضحك بعد . لم يصدق لحظة واحدة بما قاله شوبين له ، ولكن الكلمة التي نطق بها نفذت عميقاً في قلبه ، وفكر مع نفسه : «بافل يستغفلني . . . ولكنها ستحب في وقت ما . . . فمن ستحب ؟»

كان في حجرة بيرسينيف بيانو غير كبير ولا جديد ، ولكن له نبرة ناعمة ولطيفة ، وان لم تكن صافية تماماً . جلس بيرسينيف اليه ، وأخذ يضرب على مفاتيحه . وكان مثل جميع النبلاء الروس قد تعلّم الموسيقى منذ الصغر ، ومثل جميع النبلاء الروس تقريباً كان سيئاً في عزفه الى درجة كبيرة ، ولكنه كان كثير الولع بالموسيقى . في الواقع كان لا يحب في الموسيقى الفن ، ولا تلك الاشكال التي تعبّر بها (كانت السيمفونيا والسوناته بل حتى الاوبرا تسلمه الى الضجر) ، بل كان يحب عفويتها ، يحب تلك الاحاسيس المبهمة واللذيذة ، الهائمة والشمولية التي يثيرها في النفس تآلف الاصوات وتنقلها من درجة الى اخرى . ظل اكثر من ساعة ملازماً البيانو ، مكرراً عدة مرات نفس النغمات ، باحثاً عن نغمات جديدة في غير اتقان ، متوقفاً وجامداً على السباعيات المصغّرة . وكان قلبه يئن ، وعيناه تمتلئان بالدموع غير مرة ، ولم يخجل منها . فقد كان يسكبها في الظلام . ويفكر مع نفسه : «بافل على حق . أنا اشعر ان هذا المساء لن يتكرر» . واخيراً وقف ، واشعل الشمعة ، والقى الروب على كتفيه ، وتناول من الرف المجلد الثاني لكتاب «تاريخ اسرة هوغينشتاوفين» لراومر (٩) ، وزفر مرتين أو نحوهما ، وانكب على القراءة بدأب .

وفي اثناء ذلك كانت يلينا قد عادت الى غرفتها ، وجلست امام النافذة المفتوحة ، واسندت رأسها على يديها . صارت لها عادة الجلوس الى نافذة غرفتها زهاء ربع ساعة كل مساء . كانت تتحادث مع نفسها في هذا الوقت ، وتراجع ما حصل في اليوم الجاري . قبل حين اتمت العشرين من عمرها . كانت طويلة القامة ، شاحبة الوجه بسمرة ، وعيناها الوسيعتان الرماديتان تحت حاجبين مستديرين كانتا محاطتين بنمش صغير ، وانفها وجبينها مستقيمين تماماً ، وفمها مطبقاً ، وذقنها مستدقاً بدرجة معتبرة . وكانت ضفيرتها الذهبية الداكنة تسرح الى الاسفل من جيدها الرقيق . وكان في كيانها كله ، في تعبير وجهها المنتبه المرتعب قليلاً ، وفي نظرتها الصافية والمتقلّبة في الوقت ذاته ، وفي ابتسامتها المتوترة ، كما تبدو ، وفي صوتها الهادئ ، غير المستوى في نبراته ، شيء عصبي ، منفعل ، شيء مندفع عجول ، وباختصار ، شيء لا يروق لكل الناس ، بل يُنفّر بعضهم . وكانت يداها ضيقتين ، ورديتين ، ذواتي اصابع طويلة وكانت قدماها ضيقتين ايضاً . وكانت مشيتها سريعة ، مندفعة تقريباً ، في شيء من الميلان الى الامام . وقد نشأت نشأة غريبة جداً . في البداية كانت تعبد أباها ، وبعد ذلك تعلقت بأمها بهيام ، ثم بَرُدَ شعورها نحوهما كليهما ، لاسيما نحو الأب . وفي المدة الاخيرة كانت تعامل أمها ، وكأنها جدتها المريضة . وصار ابوها الذي كان يفتخر بها ، حين كانوا يعتبرونها طفلة غير اعتيادية ، يخشاها حين كبرت . وراح يقول عنها انها جمهورية متحمسة ، والله يعلم على مَنْ طلعت ! كان الضعف يضايقها ، والحماقة تغضبها ، والكذب لن تغفره لأحد «ابد الآبدين» . وكانت متطلباتها لا تتراجع امام اي شيء ، وحتى الصلوات كانت تمزجها احياناً بالتقريع . وحالما يفقد الانسان احترامها – وكانت تكوّن رأيها بسرعة ، وفي احيان كثيرة ، بسرعة شديدة جداً – حتى يكف عن الوجود بالنسبة لها ... وكانت كل الانطباعات تلتصق بقلبها بقوة . فالحياة ليست سهلة عليها .

كانت المربية التي عهدت آنا فاسيليفنا اليها اكمال تربية ابنتها – وهذه التربية ، ونضعها بين القوسين ، لم تبدأها السيدة

الضجرة امها ابداً — من الروسيات ، ابنة مرتشٍ قد افلس ، وخريجة معهد ، مخلوقة شديدة الحساسية ، طيبة ، كاذبة . كانت تعشق من حين لآخر ، حتى انتهى بها الأمر الى ان تتزوج ١٨٥٠ (حين دخلت يلينا سنتها الثامنة عشرة) ضابطاً ، هجرها في الحال . وكانت هذه المربية شغوفة جداً بالادب ، تقوم بنظم الشعر ، وهي التي حببت القراءة الى يلينا ، ولكن القراءة لوحدها لم تكن ترضي يلينا ، فقد كانت تتعطش الى العمل والبرّ منذ الطفولة ، وكان المتسولون والجياع والمرضى يشغلون بالها ، ويثيرون قلقها ويسلمونها الى العذاب . كانت تراهم في احلامها ، وتسأل عنهم كل معارفها ، وتقدم الاعانات باهتمام ، وبعظمة لاارادية ، وبانفعال تقريباً . وكان جميع الحيوانات المنبوذة وكلاب الحراسة النحاف ، والقطط المحكومة بالموت ، والعصافير الساقطة من اعشاشها ، وحتى الحشرات والزواحف تجد عند يلينا الرعاية والحماية . كانت تطعمها بنفسها ، ولا تقرف منها . وكانت امها لا تمنعها ، بينما كان ابوها يزعل على ابنته بسبب عاطفيتها المبتذلة ، على حد قوله ، ويؤكد ان البيت مملوء بالكلاب والقطط ، ولا محط لقدم فيه . وكان يصيح عليها احياناً : «لينوتشكا * ، هذا عنكبوت يبتلع ذبابة ، فتعالي بسرعة ، وانقذي الذبابة البائسة !» فكانت لينوتشكا تجري مذعورة تماماً وتحرر الذبابة من شراك العنكبوت وتنظف قوائمها . وكان ابوها يقول متهكماً : «والآن ، دعيها تلسعك ، إذا كنت بهذه الطيبة» . ولكنها لم تكن تصغي اليه . وعندما كانت في العاشرة تعرفت بفتاة متسولة تدعى كاتيا كانت تذهب للقائها في الحديقة سراً ، تجلب لها الاطايب ، وتهدي لها المناديل ، والقطع النقدية من فئة العشرة كوبيكات ، لأن كاتيا لم تكن تأخذ اللُعب . كانت تجلس الى جانبها على الارض الصلبة ، في مكان منعزل ، وراء اجمة القرّاص . وتأكل خبزها الناشف بشعور الفرح المستكين ، وتستمع الى حكاياتها . وكانت لكاتيا عمة ، هي عجوز حقود ، كثيراً ما كانت تضربها . وكانت كاتيا تكرهها ، ولا تفتأ تقول انها ستهرب منها ، وتعيش **طليقة في ارض الله الواسعة** وكانت يلينا تنصت باحترام خفي وذعر الى تلك الكلمات الجديدة التي لم تعهدها من قبل ،

---

* صيغة تدليل من اسم يلينا . **المترجم** .

وتتفرس في كاتيا ، وعند ذاك كان كل شيء فيها ، عيناها السوداوان السريعتان مثل عيني وحش صغير ، ويداها الملوحتان ، وصوتها النحيل الكامد ، وحتى ثوبها الممزق يبدو ليلينا غير عادي وله لون خاص ويكاد ان يكون مقدّساً . وكانت يلينا تعود الى البيت ، وتفكر طويلاً ، بعد ذلك ، في المتسولين ، في ارض الله الواسعة ، وتفكر كيف ستقطع لها عصا من شجرة جوز ، وتضع جرابها على كتفها ، وتهرب مع كاتيا ، وكيف ستضرب في الطرقات ، وعلى رأسها اكليل من القنطريون العنبري ، مثل ذلك الذي رأته على كاتيا ذات مرة . وكان اذا دخل أحد من اهلها غرفتها ، في ذلك الوقت ، كانت تنكمش ، وتتعبس . وذات مرة هرعت للقيا كاتيا ، والمطر منهمر ، فتوسخ ثوبها ، ورآها ابوها ، وعيّرها بأنها بنت قذرة ، فلاحة . فصعد الدم الى وجهها ، وجثم على قلبها شعور بالرعب والهناءة . كانت كاتيا كثيراً ما تغني اغنية خشنة من اغاني الجنود . وقد تعلمتها يلينا منها . . . سمعتها آنا فاسيليفنا تغنيها ، فاستولى عليها الغيظ . وسألتها :

— من اين جئت بهذه الوضاعة ؟

فأكتفت يلينا بالنظر الى امها ، ولم تحر جواباً . فقد احست بأن تقطيعها اربأ اهون عليها من البوح بسرها ، وعاد الى قلبها الشعور بالرهبة والعذوبة معاً . وعلى اية حال ، لم تستمر صحبتها لكاتيا طويلاً . فقد اصابت الحمى هذه الفتاة المسكينة ، وتوفيت بعد بضعة ايام .

وعندما سمعت يلينا بوفاة كاتيا افتقدتها كثيراً وتأرق كثيراً في الليل . وظلت آخر كلمات المتسولة ترن في اذنيها بلا انقطاع ، بل وكان يخيل اليها انها تسمع صوتاً يناديها . . .

وتتابعت الاعوام ، ومرّ صبا يلينا سريعاً وغير ملحوظ كالمياه تحت طبقة الجليد ، خاملاً من الخارج ، بينما هو في صراع واضطراب في الداخل . ولم تكن لها صديقات ، فهي لم تصادق واحدة من جميع الفتيات اللاتي كن يترددن على بيت آل ستاخوف . ولم تثقل سلطة الوالدين على يلينا قط ، حتى انها اصبحت ، وهي في السادسة عشرة ، في كامل الاستقلال تقريباً فعاشت حياتها الخاصة لكنها حياة وحيدة . وكانت نفسها تهفو وتخمد وحيدة . كانت قلقة مثل طائر في القفص وان لم يكن للقفص وجود ، ولم يمنعها احد ، ولكنها

كانت تتحرق شوقاً ، وتتعذب . ولم تكن هي نفسها تفهم احياناً ذاتها ، بل كانت تخاف منها . كان كل شيء يحيط بها يبدو لها فاقد المعنى او غير مفهوم . وكانت تفكر : «كيف سأعيش بدون حب ؟ ولكن لا أحد احبه !» فترعبها هذه الافكار ، هذه الاحاسيس . وكادت حمى خبيثة ان تودي بها ، وهي في الثامنة عشرة ، وظل كيانها يصارع زمناً طويلاً ، وإن كان معافى وقوياً بطبيعته ، ولكنه هزّ من الاساس . واخيراً اختفت عقابيل الداء . ولكن أباها ما زال يتحدث عن اعصابها بشيء من الحنق . احياناً كان يخطر في ذهنها انها تريد شيئاً لا يريده احد ولا يفكر فيه في كل روسيا . ثم هدأت ، بل وضحكت من نفسها ، وراحت تقضي الأيام خليّة البال ، ولكن شيئاً قوياً لا اسم له ، صار فجأة يغلي في داخلها ، دون ان تقدر على مقاومته ، حتى ليكاد يطفح الى الخارج . ومرّت العاصفة ، وارتخى جناحاها بتعب قبل ان يطيرا بها ، ولكن هذه العواصف خلفت اثراً فيها . ومهما حاولت ان تخفي ما كان يجري في داخلها فقد كان الاضطراب والوحشة المعتملة في صدرها تظهر حتى في هدوئها الظاهري ، وكان أهلها غالباً ما كانوا على حق ، حين يهزون اكتافهم ، في دهشة ، غير فاهمين سرّ «غرابة اطوارها» .

في اليوم الذي بدأت فيه قصتنا ظلت يلينا ملازمة النافذة اطول من المعتاد . فكرت طويلاً في بيرسينيف ، وفي حديثها معه . لقد راق لها . صدّقت بدفء مشاعره ، ونقاء مقاصده . وكان من قبل لم يتحدث اليها قط كما تحدث في ذلك المساء . تذكرت تعبير عينيه المتهيبتين ، وابتسامته ، وكانت هي الاخرى تبتسم ، وتستغرق في التفكير ، ولكنها لم تعد تفكر فيه . اخذت تحدق «في الليل» من خلال النافذة المفتوحة . وحدقت طويلاً في السماء القاتمة الواطئة . ثم نهضت ، وازاحت شعرها عن وجهها بحركة من رأسها ، ودون ان تعرف السبب ، مدّت الى هذه السماء ذراعيها العاريتين المتجمدتين ، ثم اسبلتهما ، وركعت على ركبتيها امام سريرها ، وضغطت وجهها على الوسادة ، وراحت تبكي بدموع غريبة محيّرة لكنها حارقة رغم كل جهودها لكبت العاطفة المسيطرة عليها .

في نحو الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي اتخذ بيرسينيف العربة العائدة الى موسكو . فقد كان بحاجة الى تسلم نقود من البريد ، وشراء بعض الكتب ، كما كان يريد ان ينتهز الفرصة ، ويلتقي باينساروف ، ويتحدث اليه . فقد عنّ له ، اثناء حديثه الاخير مع شوبين ، ان يدعو إينساروف الى بيته الريفي . الا انه لم يعثر عليه بسرعة ، فقد انتقل اينساروف من شقته القديمة الى شقة لم يكن الوصول اليها سهلاً . كانت تقع في فناء خلفي لبيت آجري قبيح ، شيّد على الطراز البطرسبورغي بين اربات وشارع بوفارسكيا . راح بيرسينيف ينتقل بدون جدوى من مدخل بيت قذر الى آخر ، ويستفهم عبثاً من بواب تارة ، ومن «مستطرق» تارة اخرى . في بطرسبورغ يحاول البوابون تحاشي نظرات الزائرين ، الا انهم في موسكو اكثر تحاشياً . لم يستجب احد لبيرسينيف ، سوى خياط فضولي ليس عليه غير صدار ، وشلة من الخيوط الرمادية متدلية من كتفه ، اطلّ صامتاً من فتحة شباكه العالية ، بوجهه الكابي غير الحليق وعينه المكدومة ، وسوى ماعز اسود بلا قرون التفت اليه ، وهو فوق كومة من الزبالة ، وارسل ثغاء شاكياً ، وصار يجتر طعامه اسرع من ذي قبل . واخيراً اشفقت على بيرسينيف امرأة في معطف قديـــم وحذاء بالٍ ، واشارت لـــه الى شقة اينساروف . وجده بيرسينيف في البيت . وكان اينساروف يستأجر غرفة من نفس الخياط الذي نظر من فتحة الشباك في كثير مـــن اللامبالاة الى ورطة رجل ضائع ، وهي غرفة كبيرة تكاد تكون فارغة ، ذات جدران خضراء داكنة ، وثلاث نوافذ مربعة ، فيها سرير صغير موضوع في ركن ، واريكة جلدية في ركن آخر ، وقفص ضخم متدل قرب السقف تماماً ، كان مأوى لبلبل في وقت ما . وحالما اجتاز بيرسينيف عتبة الباب ، حتى اقبل اينساروف للقائه ، ولكنه لم يهتف : «أها ، هذا انت !» او : «اوه ، يا إلهي ! اية مصادفة ؟» بل لم يقل حتى «مرحباً» ، بل شدّ على يده فقط ، وقاده الى المقعد الوحيد الموجود في الغرفة . وقال له :

— اجلس .

وجلس هو على حافة الطاولة . واضاف اينساروف وهو يشير الى تل من الاوراق والكتب على الارض :

– ها انت ترى ما تزال هناك فوضى ، ولم ارتب اموري ، كما ينبغي . لم يتح لي الوقت .

كان اينساروف يتكلم الروسية بطريقة سليمة جداً ، ناطقاً ، كل كلمة بقوة وصفاء ، ولكن صوته الحنجري ، واللطيف فى الوقت ذاته فيه رنّة غير روسية . وكان اصله الاجنبي (كان بلغاري المولد) يظهر بوضوح اكثر في مظهره الخارجي . كان شاباً في نحو الخامسة والعشرين ، نحيفاً ومعروقاً ، ذا صدر غائص ، ويدين معقدتين ، وقسمات وجه حادة ، وانف معكوف ، وشعر سبط اسود فاحم ، وجبهة صغيرة ، وعينين صغيرتين غائصتين متفرستين ، وحاجبين كثيفين ، وكانت اسنانه البيضاء الجميلة تلوح للحظة ، حين يبتسم ، من بين شفتيه النحيلتين القاسيتين المرسومتين بدقة بالغة . وكان يلبس سترة قديمة ، ونظيفة مزررة الى الرقبة .

سأله بيرسينيف :

– لماذا انتقلت من منزلك السابق ؟

– هذا ارخص ، واقرب الى الجامعة .

– ولكن الآن عطلة . . . ثم ما هذه الرغبة في العيش فى المدينة صيفاً ! كان الاحرى بك ان تستأجر بيتا ريفياً ، ما دمت قد عزمت على الانتقال .

لم يرد اينساروف بشيء على هذه الملاحظة ، وقدم لبيرسينيف غليونه قائلاً : «ارجو المعذرة ، لعدم توفر السيكائر والسيغار لديّ» .

اشعل بيرسينيف الغليون . ومضى يقول :

– ها انا قد اجرت بيتاً صغيراً قرب كونتسوفو . رخيص ، ومريح جداً . بل عندي حجرة زائدة في الأعلى .

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشيء .

مصّ بيرسينيف نفساً من غليونه ، وعاد يقول نافثاً خيطاً رفيعاً من الدخان .

– بل قلت لنفسي : ما الطف لو رغب أحد من الناس . . . انت مثلاً كما دار في ذهني . . . لو وافق ان يسكن في تلك الحجرة في الأعلى . ما رأيك ، يا دميتري نيكانوريتش ؟

رمقه اينساروف بعينيه الصغيرتين .
— أتقترح عليّ ان اعيش معك في البيت الريفي ؟
— نعم ، عندي في الاعلى حجرة زائدة .
— أنا شاكر لك كثيراً ، يا اندريه بيتروفيتش ، ولكن اعتقد أن مواردي لا تسمح لي بذلك .
— كيف هذا ، لا تسمح ؟
— لا تسمح بان اعيش في بيت ريفي في الضواحي . من المستحيل ان ادفع اجرة مسكنين .
— ولكنني . . . — شرع بيرسينيف يقول وتوقف ، ثم مضى يقول — لن يكلفك ذلك اي مصرف زائد . لنقل ستظل هذه الحجرة مؤجرة لك ، وفي المقابل سيكون كل شيء رخيصاً جداً في الريف . بل يمكن ان نعد طعامنا سوية ، على سبيل المثال .
صمت اينساروف . وشعر بيرسينيف بالحراجة . وبعد برهة شرع يقول :
— على الأقل زرني في احد الاوقات . على مقربة دانية مني تقيم عائلة كم اود ان اعرفك بها . ليتك تعرف يا اينساروف ، اية فتاة رائعة في هذه العائلة ! ثم هناك صديق قريب اليّ ، انسان ذو موهبة كبيرة ، وأنا واثق من انك ستصادقه . (الروسي يعرض عليك معارفه ، اذا لم يكن لديه ما يضيفك عليه .) تعال ، حقاً . والافضل من ذلك ان تنتقل الينا . حقاً . اذن ، لاستطعنا ان تعمل سوية ونقرأ سوية . . انت تعرف انني ادرس التاريخ والفلسفة . وانت تهتم بكل ذلك . ثم ان لديّ كتباً كثيرة .
نهض اينساروف ، وصار يذرع الغرفة . واخيراً سأل :
— هل لي ان اعرف كم تدفع ايجاراً لبيتك الريفي ؟
— مائة روبل فضي .
— وكم غرفة فيه ؟
— خمس .
— يعني حسابياً كل غرفة بعشرين روبلاً ؟
— حسابياً . . . ولكنني لا احتاج اليها اطلاقاً . وستظل فارغة .
— ربما ، ولكن اسمع — اضاف اينساروف بحركة من رأسه قاطعة ، وسمحة في الوقت ذاته — لا استطيع ان اقبل اقتراحك ، الا اذا قبلت انت ان تأخذ النقود مني وفق الحساب . في مقدوري

ان ادفع عشرين روبلاً ، لاسيما انني ساقتصد فيما عدا ذلك ، حسب اقوالك .

— بالطبع . ولكنني ، في الحقيقة ، خجلان .

— والا لا يجوز ، يا اندريه بيتروفيتش .

— حسب ما تشاء . ولكن كم انت متصلب !

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشيء .

واتفق الشابان على اليوم الذي ينبغي ان ينتقل اينساروف فيه . واستدعيا صاحب البيت ، الا ان هذا اكتفى ، في البداية ، بارسال إبنته ، وهي صبية في نحو السابعة من العمر ، تضع على رأسها منديلاً زاهياً كبيراً . استمعت الى كل ما قاله اينساروف بانتباه ، وبشيء من الفزع ، وخرجت صامتة . وعلى اثرها ظهرت امها ، وهي حامل في شهرها الاخير ، تضع على رأسها منديلاً ايضاً ، ولكنه صغير جداً . واوضح لها اينساروف انه سينتقل الى بيت ريفي قرب كونتسوفو ، ولكنه سيبقي الغرفة على حسابه ، ويأتمنها على كل اغراضه . وبدا الفزع على زوجة الخياط ايضاً ، وانصرفت . واخيراً جاء صاحب البيت ، وبدا انه فهم كل شيء في اول الامر ، سوى انه قال في سهوم : «قرب كونتسوفو ؟» ، ثم فتح الباب فجأة ، وراح يصرخ : «الغرفة تبقى على حسابك ؟» وهدأه اينساروف فكرر الخياط بحدة : «لانني اريد ان اعرف» ، وانصرف .

عاد بيرسينيف الى بيته راضياً جداً على نجاح اقتراحه . رافقه اينساروف الى الباب بلطف وادب قلّ ان يؤدى في روسيا ، وحين بقي وحده ، خلع سترته بحرص ، واخذ يصف اوراقه .

٨

في مساء ذلك اليوم جلست آنا فاسيليفنا في حجرة الجلوس في بيتها ، وهي توشك ان تبكي . وكان في الحجرة ، فيما عداها ، زوجها ، وشخص يدعى اوفار ايفانوفيتش ستاخوف ، هو احد اقارب زوجها البعيدين ، ضابط متقاعد في الستين من العمر ، سمين الى حد الجمود ، ذو عينين ناعستين صفراوين ، وشفتين سميكتين بلا لون في وجه منتفخ اصفر . وكان منذ تقاعده يعيش دائماً في موسكو

من فوائد رأسمال صغير خلفته له زوجته ، وهي من عائلة تجار . وكان لا يفعل شيئاً ، ومن المستبعد انه كان يفكر ، وحتى اذا فكر ، فقد كان يحتفظ بافكاره في سره . مرة واحدة فقط انفعل في حياته ، وابدى نشاطاً ، اي انه قرأ في الجرائد نبأ عن آلة موسيقية جديدة في معرض لندن الدولي تدعى «كونترو بومباردون» ورغب ان يوصي عليها ، بل وراح يسأل الى اين يرسل النقود ، وبوساطة ايــة دائرة ؟ وكان اوفار ايفانوفيتش يرتدي سترة فضفاضة بلون التبغ ، ومنديلاً ابيض حول رقبته ، وكان يأكل مرات عديدة وبكميات كبيرة ، وفي الحالات الحرجة فقط ، اي حين يتعين عليه ان يبدي رأيا ، كان يحرك اصابع يده اليمنى في الهواء بارتعاص — ابتداء من الابهام حتى الخنصر ، وبعد ذلك من الخنصر حتى الابهام ، قائلاً بتعسر : «بالاحرى . . . على نحو ما ، ذاك . . .»

كان اوفار ايفانوفيتش جالساً في مقعد وثير قرب النافذة يتنفس بضيق . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يذرع الحجرة بخطى كبيرة ، وقد حشر يديه في جيبيه ، وارتسم على وجهه عدم الرضى .

واخيراً توقف ، وهزّ رأسه . وقال :

— أجل ، في زماننا كانت تربية الشبان تختلف . ولم يكونوا يبيحون لانفسهم الاستهانة بالشيوخ (لفظ النون من انفه على طريقة الفرنسيين) . والآن انظر فيما حولي ، ولا يسعني الا ان اندهش . ربما لستُ على صواب ، وهم الذين على صواب ، ربما . ومع ذلك فان لي نظرتي الخاصة الى الاشياء . فلست اهبل بالولادة . ما رأيك في هذا ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟

اكتفى اوفار ايفانوفيتش بان نظر اليه ، وحرك اصابعه . ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

— يلينا نيقولايفنا ، مثلاً ، لا افهمها تماماً . فأنا بالنسبة لها لست على درجة كافية من السمو . وقلبها من السعة بحيث يحتضن الطبيعة كلها ، الى اصغر صرصار او ضفدعة ، وباختصار ، يحتضن كل شيء باستثناء ابيها الذي انجبها . طيب ، رائع . انا اعرف ذلك ، ولا احشر نفسي . لان في ذلك اعصاباً ، ودرجة عالية من التعلم ، وافكاراً سامية . وكل ذلك ليس من اختصاصي . ولكن السيد شوبين ، وليكن فناناً مدهشاً غير اعتيادي ، فليس ذلــك موضع جدالي ، الا انه يستهين بمن هو اكبر سناً منه ، ويمكن ان

يقال ايضاً ، بمن يدين له بالكثير ، على اية حال . وهذا ما لا استطيع ان اسمح به dans mon gros bon sens * واعترف بذلك . ولست متصلباً في طبيعتي . ولكن لكل شيء حده .

دقت آنا فاسيليفنا الجرس بانفعال ، فدخل الصبي الخادم . قالت :

– لماذا لا يأتي بافل ياكوفليفيتش ؟ يعني ، لماذا لا يأتي وقد استدعيته ؟

هزّ نيقولاي ارتيميفيتش كتفيه .

– ولكن لماذا تريدين استدعاءه؟ انا لا اطلب ذلك مطلقاً ، بل ولا ارغب فيه .

– كيف لماذا ، نيقولاي ارتيميفيتش ؟ هو الذي ضايقك ، ولربما اعاق دورة علاجك . اريد ان استوضحه . اريد ان اعرف بم استطاع ان يثير غضبك ؟

– اكرر لك انني لا اطلب ذلـــك . ما هذا الهوس . . . devant les domestiques . **

احمرّت آنا فاسيليفنا قليلاً .

– عبثاً ان تقول ذلـــك ، يا نيقولاي ارتيميفيتش . انــــا مستحيل . . . devant... les domestiques . . . اذهب ، فيديوشكا ، وأت ببافل ياكوفليفيتش الى هنا ، حالاً . . .

خرج الصبي الخادم .

– لا حاجة الى كل ذلك مطلقاً – قال نيقولاي ارتيميفيتش من خلال اسنانه ، وعاد يذرع الحجرة – لم يكن هذا غرضي من كلامي .

– وكيف . يجب ان يعتذر Paul امامك .

– لا ، وما حاجتي الى اعتذاراته ؟ ثم ما هي الاعتذارات ؟ كلها اقوال .

– وكيف ما الحاجة ؟ يجب ان نرده الى الصواب .

– رديه انت الى الصواب . فهو يطيعك اكثر . أما أنا فليس لي عتب عليه .

---

* مع كل ما املك من الادراك السليم (بالفرنسية في الاصل) .

** امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

– لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، انت اليوم متعكر المزاج منذ قدومك . بل اراك تنحف في المدة الاخيرة . اخشى أن دورة علاجك لا تساعدك .

قال نيقولاي ارتيميفيتش :

– دورة العلاج ضرورية لي . كبدي ليست على ما يرام .

وفي تلك اللحظة دخل شوبين . وكان يبدو متعباً . وكانت ابتسامة خفيفة وساخرة بعض الشيء ترف على شفتيه « قال :

– هل طلبت مجيئي ، يا آنا فاسيليفنا ؟

– نعم ، طلبت ، طبعاً . لا ، يا Paul ، هذه فظاعة . أنا مستاءة منك كثيراً . كيف يمكنك ان تستهين بنيقولاي ارتيميفيتش ؟

– وهل تشكى لك نيقولاي ارتيميفتش مني ؟

سأل شوبين ذلك ، ونظر الى ستاخوف بنفس تلك الابتسامة الساخرة .

استدار هذا ، واطرق ببصره .

– نعم ، اشتكى . انا لا اعرف بم اذنبت في حقه ، ولكنك يجب ان تعتذر حالاً ، لان صحته منحرفة جداً الآن ، واخيراً ، يجب علينا جميعاً ، ونحن في سن الشباب ، ان نحترم اصحاب الافضال علينا .

«آه ، يا للمنطق !» – فكر شوبين ، ووجه كلامه الى ستاخوف .

– انا مستعد للاعتذار اليك ، نيقولاي ارتيميفيتش – قال بانحناءة احترام خفيفة – اذا كنت قد اساءت اليك بشيء حقاً .

– انا اطلاقاً . . . لست – ردّ نيقولاي ارتيميفيتش ، وهو يتحاشى النظر الى شوبين كالسابق – على العموم ، اسامحك بطيب خاطر ، لانني ، كما تعلم ، لست انساناً متصلباً .

قال شوبين :

– اوه ، هذا ليس موضع شك مطلقاً . ولكن اسمح لي ان استفسر : هل تعرف آنا فاسيليفنا ما يشكّل ذنبي ازاءك ؟

قالت آنا فاسيليفنا :

– لا ، انا لا اعرف شيئاً .

واشرأبت بعنقها . فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يهتف :

– اوه ، يا ربي ! كم مرة ترجيت ، وتوسلت ، كم مرة قلت :

ما ابغض كل هذه الايضاحات والتمثيليات على نفسي ! مرة في العمر يأتي الانسان الى بيته ، ويريد ان يستريح – والناس تقول محيط عائلي ، interieur * ، والانسان يجب ان يكون وسط عائلته – ويجد امامه التمثيليات والمنغصات . ولا لحظة راحة . فالانسان مضطر الى ان يذهب الى النادي . . . او الى مكان آخر . والانسان كائن حيّ ، ولكيانه العضوي مطالب ، بينما هنا . . .

ولم يتم نيقولاي ارتيميفيتش كلامه ، وخرج بسرعة وصفق الباب . وراقبته آنا فاسيليفنا ، وهو يخرج . وهمست بمرارة :

– الى النادي ؟ انت لا تذهب الى هناك ، ايها الطائش ! لا أحد في النادي تهدي اليه الخيول من مجموعتي ، وخيول رمادية فضلاً عن ذلك ! اللون المفضل لديّ . نعم ، نعم ، أيها الرجل المستخف – اضافت بعد ان رفعت صوتها – انت لا تذهب الى النادي . اما انت ، يا Paul – قالت ذلك واقفة – كيف لا تخجل من نفسك ؟ لا اظنك طفلاً صغيراً . والآن صار رأسي يوجعني . هل تعرف اين زويا ؟

– يبدو انها في حجرتها في الأعلى . الثعلبة الحصيفة الصغيرة تلك تلوذ دائماً في جحرها ، في مثل هذا الطقس .

– طيب ، ارجوك ، ارجوك – وراحت آنا فاسيليفنا تبحث فيما حولها – هل رأيت القدح الذي اضع فيه الفجل الحار المدقوق ؟ Paul ، اعمل معروفاً ، ولا تجعلني اغضب في المستقبل .

– كيف يمكن ان اغضبك ، يا عمة ؟ اعطيني يدك لاقبلها . أما فجلك الحار فقد رأيته على المنضدة الصغيرة في غرفة مكتبك .

– داريا دائماً تنساه في مكان ما .

قالت آنا فاسيليفنا ، وخرجت مع حفيف ثوبها الحريرى .

أراد شوبين ان يتبعها ، ولكنه توقف ، بعد ان سمع وراءه صوت اوفار ايفانوفيتش البطيء .

قال الضابط المتقاعد مباعداً بين الكلمات :

– ما كان . . . تعامل . . . هكذا . . . يا رضيع .

اقترب شوبين منه .

– على اي شيء أعامـــــل ، يا اوفار ايفانوفيتش المحمود الخصال ؟

---

* المقصود هنا جو راحة في البيت (بالفرنسية في الاصل) .

— على اي شيء ؟ انت شاب . يعني إحترم . نعم .

— احترم مَنْ ؟

— مَنْ ؟ معروف من . لا تكشر ، هيه .

صالب شوبين ذراعيه على صدره . وهتف :

— آه منك ، يا ممثل مبدأ المشاعة الفلاحية . انت قوة الارض السوداء ، اساس الصرح الاجتماعي !

شرع اوفار ايفانوفيتش يحرك اصابعه .

— كفى ، يا اخ ، لا تثيرني .

ومضى شوبين يقول :

— هذا نبيل تخطى سن الشباب ، على ما يبدو ، ولكن اي ايمان طفولي سعيد ما يزال يكمن فيه ! احترم ! ولكن هل تعرف ، أيها الرجل العاطفي ، السبب في غضب نيقولاي ارتيميفيتش عليَّ ؟ لانني قضيت معه صباح اليوم كله عند صاحبته الالمانية ، واليوم غنينا ، ثلاثتنا : «لا تبتعدي عني» (١٠) . فليتك سمعتنا . يبدو ان ذلك يؤثر فيك . غنينا ، يا سيدي ، غنينا . ولكن شعرت بالوحشة ، بعد ذلك ، اذ رأيت الأمر ليس على ما يرام ، والعواطف الرقيقة اكثر من اللازم . فأخذت اناكدهما كليهما . وكانت النتيجة جيدة . في البداية غضبت الالمانية عليَّ ، وبعد ذلك عليه ، وبعدها غضب هو عليها ، وقال لها إنه سعيد في بيته فقط ، وان الجنة هناك ، في بيته . فقالت له انه بلا خلق ، فقلت لها : «آخ» بالالمانية . وخرج هو ، وبقيت أنا . وجاء الى هنا ، اقصد ، الى الجنة ، واذا به يقرف من الجنة . وهكذا اخذ يتذمر . . طيب ، والآن ، مَنْ المذنب ، في رأيك ؟

قال اوفار ايفانوفيتش :

— انت ، بالطبع .

تفرس شوبين فيه . وشرع يقول بصوت متذلل :

— هل لي ان اتجرأ واسألك ، ايها الفارس المحترم : هل هاتان الكلمتان الغريبتان اللتان تكرمت بقولهما كانتا نتيجة لفعل قابليتك على التفكير ، ام استجابة غريزية لحاجة فجائية في ان تنطق بشيء يهز الهواء يسمى صوتا ؟

قال اوفار ايفانوفيتش كالمتأوه :

— قلت . . لا تثيرني . . .

اخذ شوبين يضحك ، وخرج مسرعاً .
— اي — نطق اوفار ايفانوفيتش بعد ربع ساعة — هات . . . قدح فودكا .
جلب الصبي الخادم الفودكا والمزة على صينية . تناول اوفار ايفانوفيتش قدح الفودكا من الصينية بهدوء ، ونظر اليه باهتمام مشدد ، ولمدة طويلة ، وكأنه لا يفهم بشكل واضح ماذا في يده . ثم نظر الى الصبي الخادم ، وسأله هل اسمه فاسكا ؟ ثم اتخذ سمت المغموم ، وشرب الفودكا ، وتمزز ، ودس يده في جيبه ليخرج المنديل . ولكن الصبي الخادم كان قد عاد بالصينية والقارورة الى مكانهما منذ وقت طويل ، ولحق ان يأكل الرنجة المتبقية من المزة ، وأن يغط في سنة من النوم سانداً ظهره الى معاطف اسياده ، واوفار ايفانوفيتش ما زال ممسكاً بمنديله امامه ، على اصابعه المتباعدة ، ينظر في النافذة تارة ، والى ارض الحجرة وجدرانها في نفس الاهتمام المشدد .

٩

عاد شوبين الى مسكنه في ملحق البيت ، وفتح كتاباً . دخل خادم نيقولاي ارتيميفيتش الشخصي الى غرفته بحذر ، وقدم له مذكرة صغيرة ثلاثية الشكل مختومة بختم ضخم يمثل شعار العائلة . وقد جاء في هذه المذكرة : «آمل بأنك ، كرجل نزيه ، لن تبيح لنفسك التلميح ، حتى بكلمة واحدة ، الى السند النقدي الذي اشير اليه اليوم صباحاً . فانت تعرف علاقاتي ، والقواعد التي اتبعها ، وضآلة المبلغ نفسه ، وغير ذلك من الظروف . واخيراً ، هناك اسرار عائلية يجب احترامها ، والطمأنينة العائلية شيء مقدس لا يذكره الا êtres sans coeur * ، وليس لي سبب في ان اعدك منهم (ارجو ان تعيد لي هذه المذكرة) ن . س .» .
كتب شوبين بقلم الرصاص في الاسفل : «لا تقلق ، فأنا ما ازال لا استل المناديل من الجيوب» وأعاد المذكرة الى الخادم ،

* الذين لا قلب لهم (بالفرنسية في الاصل) .

واستمر في قراءتـــه . ولكن الكتاب سرعان ما انزلق بين يديه . نظر الى السماء الآخذة بالتوهج بحمرة المساء ، والى شجرتي الصنوبر الفتيتين الضخمتين المنتصبتين بمعزل عن الاشجار الأخرى ، وفكر مع نفسه : «اشجار الصنوبر ضاربة الى الزرقة في النهار ، ولكنها بهذه الخضرة الرائعة في المساء» ، وخرج الى الحديقة ، بأمل خفي في ان يلتقي يلينا . ولم يخدعه أمله . فقد لاح فستانها في الطريق الى الامام بين الاجمات . لحق بها ، ولمّا حاذاها ، قال :

— لا تنظري في ناحيتي . فأنا لا استحق .

القت عليه نظرة خاطفة ، وابتسمت ابتسامة خاطفة ، وواصلت سيرها في اعماق الحديقة . فمضى شوبين في اعقابها . وقال :

— ارجوك ان لا تنظري اليّ . ومع ذلك فأنا اتحدث اليك . وتلك هي ظاهرة متناقضة تماماً ! ولكن هذا لا يهم . ليست هذه اول مرة يحدث لي ذلك . تذكرت هذه اللحظة انني ، حتى الآن ، لم اسألك صفحاً ، كما ينبغي ، عن تصرفي الاحمق يوم أمس . الست غاضبة عليّ ، يا يلينا نيقولايفنا ؟

توقفت ، ولكنها لم تجبه على الفور ، لا لأنها غاضبة ، بل لأن أفكارها كانت بعيدة عنه . واخيراً قالت :

— لا ، لست غاضبة ، البتة .

عض شوبين على شفته . وغمغم :

— اي وجه مستغرق لامبالٍ — ثم مضى يقول رافعاً صوته — يلينا نيقولايفنا ، اسمحي لي بأن اقص عليك حادثة صغيرة . كان لي صديق ، وكان لهذا الصديق صديق ايضاً .كان في باديء الامر ، يتصرف كما يجدر بانسان معتبر ، وبعـــد ذلك صار يسرف في الشرب . وفي صباح باكر من احد الايام التقاه صديقي في الشارع (وكانت علاقتهما قد انقطعت ولاحظي ذلك) ، التقاه ورآه سكران ، فصدّ صديقي عنه . ولكن الرجل دنا منه وقال : «ما كنت سازعل لو لم تسلّم عليّ ، ولكن لماذا تصد عني ؟ ربما سكرت لانني في ضائقة . ويتغمدني الله برحمته !»

وصمت شوبين . فسألت يلينا :

— هذا فقط ؟

— فقط .

— أنا لا افهمك . الى اي شيء تغمز ؟ قبل لحظة كنت تقول لي لا تنظري في ناحيتي .
— نعم ، وقلت لك الآن : الصدُّ غير لطيف .
فشرعت يلينا تقول :
— ولكن هل معقول انني . . .
— غير معقول ؟
احمرَّت يلينا قليلاً ، ومدَّت يدها لشوبين . فصافحها بقوة .
قالت يلينا :
— كأنما ضبطتني بشعور سيء ازاءك . ولكنك غير منصف في ارتيابك . لم يخطر في بالي أن اتجنبك .
— وليكن ، وليكن . ولكن يجب ان تقري بأن آلافاً من الافكار تدور في رأسك الآن ، فلا تأتمنيني على اي واحد منها . ها ؟ ألست اقول الحقيقة ؟
— ربما .
— ولِمَ ذاك ؟ لِمَ ؟
قالت يلينا :
— افكاري ليست واضحة حتى لي .
فاهتبلها فرصة ليقول :
— ولهذا بالذات يجب ان تأتمنيها لأحد . ولكن سأقول لك لماذا لا تفعلين ذلك . إن لك فكرة سيئة عني .
— انا ؟
— نعم ، أنت . تتصورين أن نصف ما في نفسي مصطنع ، لأنني فنان ، وانني غير مقتدر ليس فقط على اي عمل — ولربما أنت على حق في ذلك — بل وعلى أية عاطفة عميقة حقيقية . وانني لا استطيع حتى ان ابكي بصدق ، وانني ثرثار وناشر اقاويل . كل ذلك لأنني فنان . هل نحن بعد هذا ، اناس بؤساء نحن مغضوب عليهم من قبل الرب؟ أنت ، مثلاً ، وأنا مستعد الى ان اقسم ، لا تصدقين بندامتي .
— لا ، يا باقل ياكوفليفيتش ، أنا مصدقة بندامتك ، واصدق بدموعك . ولكن يبدو لي ان ندامتك بحد ذاتها ودموعك ايضاً تلذ لك .

جفل شوبين .

— أوه ، احسب ان هذه حسب تعبير الاطباء ، حالة مستعصية casus incurabilis . عندئذ لا يبقى امامي غير ان احني رأسي ، واذعن . ومع ذلك ، آه ، يا إلهي ! هل من الممكن حقاً ، هل من الممكن ان انشغل طوال الوقت بنفسي ، بينما تعيش الى جانبي مثل هذه النفس ؟ وأنا اعرف انني لن استطيع ابداً ان انفذ اليها ، ولا ان ارى ما يحزنها ويفرحها ، وما يطوف في ذهنها ، وماذا تريد والى اين تسير . . . خبريني — قال بعد برهة من الصمت — أتظنين انك لن تحبي فناناً ابداً ، ومهما تكن الظروف والدوافع ؟

حدقت يلينا في عينيه تماماً .

— لا ، بافل ياكوفليفيتش ، لا .

قال شوبين بجزع هزلي :

— وهذا ما اقتضى البرهنة عليه . اذن ، كان من الأليق ، على ما اظن ، الا اعرقل نزهتك الانفرادية . لو كنت معلماً لسألتك : على اساس اية معطيات قلت : لا ؟ ولكنني لست معلماً . انا طفل ، حسب مفاهيمك ، ولكن الناس لا يصدون عن الاطفال ، تذكري هذا . وداعاً ، وليتغمدني الله برحمته !

ارادت يلينا ان توقفه ، ولكنها فكرت قليلاً ، ثم قالت ايضاً :

— وداعاً .

خرج شوبين من الفناء ، والتقاه بيرسينيف على مسافة قصيرة من بيت آل ستاخوف الريفي . كان يسير بخطى نشيطة ، وقد احنى رأسه ، ودفع قبعته على علبائه .

هتف شوبين :

اندريه بيتروفيتش !

توقف هذا . فمضى شوبين يقول :

— سر في طريقك ، سر . لا شيء . لم يكن في نيتي ان اوقفك . اذهب قدماً الى الحديقة ، وستجد يلينا هناك . اظنها تنتظرك . على اية حال انها تنتظر احداً . . . انت تفهم قوة هاتين الكلمتين : انها تنتظر ! اتعرف يا أخ اي ملابسة مدهشة ؟ تصوّر انني اعيش معها ، منذ سنتين ، في بيت واحد واعشقها ، ولكن الآن فقط ، في هذه اللحظة رأيتها لاول مرة ، ولا اقول فهمتها لأول مرة ، رأيتها ، وبسطت ذراعي باندهاش . ارجوك لا تنظر اليّ بهذه الابتسامة الزائفة السخرية التي لا تناسب ملامحك الرصينة . افهم انك تريد

ان تذكرني بآنوشكا . ثم ماذا ؟ أنا لا ارفض . آنوشكا تناسب مقامي . فلتعش الانوشكات والزوريات ، وحتى الافغوستينات الخريستينوفات انفسهن ! اذهب الى يلينا ، الآن ، وأنا ذاهب ، فهل تظنني ذاهباً الى آنوشكا ؟ لا ، يا اخ ، بل اسوأ ، انا ذاهب الى الامير تشيكوراسوف . هناك راعي فنون بهذا الاسم ، من تتر قازان ، مثل فولغين . هل ترى رسالة الدعوة هذه ، وهذه الحروف R.S.V.P. * ؟ لا راحة لي في القرية ايضاً . ! Addio ** .

استمع بيرسينيف الى خطبة شوبين الرنانة في صمت ، وكأنما يأخذه شيء من الارتباك نيابة عنه ، ثم دخل فناء بيت ستاخوف . أما شوبين فقد ذهب بالفعل ، الى الأمير تشيكوراسوف وصار يحدثه بالكثير من أوقح العبارات ، بأكثر الطرق تهذيباً . وقد ضحك راعي الفنون هذا ، من تتر قازان ، وضحك ضيوفه ، دون اي مرح من جانب احدهم ، وتفرقوا ، مغتاظين جميعاً مثل سيدين التقيا ، في شارع نيفسكي ، واحدهما قليل المعرفة بالآخر ، فاذا بهما يكشران عن اسنانهما بابتسامة ، ويحركان عيونهما وانفيهما وخديهما بعذوبة مفتعلة ، وحالما يبتعد احدهما عن الآخر يتخذان عدم اكتراثهما السابق ، أو سمتهما الوعِق البواسيري في اغلب الاحيان .

١٠

استقبلت يلينا بيرسينيف بود ، ولكن ليس في الحديقة ، بل في حجرة الجلوس ، واستأنفت حديث الامس حالاً ، وفي شيء من نفاد الصبر . وكانت وحدها . فقد انسلَّ نيقولاي ارتيميفيتش بهدوء الى حيث لا تعلم . بينما كانت آنا فاسيليفنا منطرحة في الأعلى ، وعلى رأسها عصابة مبللة . وكانت زويا جالسة الى جانبها ، وقد عدَّلت تنورتها باعتناء ، وطوت يديها على ركبتيها . وكان اوفار ايفانوفيتش يأخذ غفوة في العُلية على اريكة عريضة مريحة اطلق

---

* الحروف الاولى من جملة فرنسية معناها : الرجاء اعلامنا بالجواب (بالفرنسية في الاصل) .

** وداعاً (بالايطالية في الاصل) .

عليها «جالبة النوم» . عاد بيرسينيف الى تذكر ابيه من جديد ، فقد كان يحمل له ذكرى قدسية . فلنذكر نحن بعض الكلمات عنه .

كان والد بيرسينيف يملك اثنين وثمانين قناً اعتقهم قبيل وفاته ، وكان من المتنورين (١١) ومن طلاب جامعة غوتينغين القدامى ، وله مؤلف مخطوط عن «تجليات او تحولات الروح في العالم» هو خليط فريد من فلسفة شيلينغ وسفيدينبورغ (١٢) والنزعة الجمهورية . وقد اخذ ابنه الى موسكو ، وهو صبي ، بعد وفاة امه مباشرة ، وتولى تربيته بنفسه . وكان يتهيأ لكل درس ، ويجتهد بنقاء ضمير غير اعتيادي ، وبدون توفيق على الاطلاق . لانه كان حالماً وكُتُبياً ، وصوفياً ، ويتكلم بلعثمة ، وبصوت كامد ، ويستخدم كلمات مبهمة ومنمّقة ، وبتشابيه ، على الاغلب ، وكان ينكمش حتى من ابنه ، الذي كان متعلقاً به كثيراً . فلا غرابة في أن الإبن كان لا يفتأ يحملق بعينيه خلال دروسه ، ولا يتقدم في الدراسة اطلاقاً . واخيراً حدس العجوز (كان في نحو الخمسين من العمر ، فقد تزوج متأخرا جداً) ان الامور لا تسير على ما يرام ، فأدخل ابنه «اندريوشا» * في مدرسة داخلية . وصار اندريوشا يتعلم ، ولكنه لم يخرج من رقابة ابيه . فكان ابوه يزوره باستمرار ، مضجراً صاحب المدرسة بمواعظه واحاديثه ، كما ان الضيف غير المدعو اثقل على المراقبين ايضاً ، اذ كان من حين لآخر يحمل لهم كتباً في التربية معقدة جداً على حد تعبيرهم . وحتى تلامذة المدرسة صاروا يتحرجون لدى رؤيتهم وجه العجوز الاسمر المجدور وجسده الضامر في سترة فراك رمادية مدببة الذيل يرتديها دائماً . وكانوا لا يحدسون قط في أن هذا السيد الجهم الذي لم تلح الابتسامة على شفتيه قط ، بأنفه الطويل ومشيته الشبيهة بمشية الغرانق كان يأسو بقلبه على كل واحد منهم ، ويشفق تماماً تقريباً كما يأسو ويشفق على ابنه من صُلبه . وذات مرة عنّ له ان يتحادث معهم عن واشنطن (١٣) . وخاطبهم قائلاً «يا تلامذتي الصغار» ولكن تلامذته الصغار انفضّوا من حوله حالما سمعوا الرنات الأولى من صوته الغريب . لم يكن طريق خريج

* صيغة تدليل من اسم اندريه . **المترجم** .

جامعة غوتينغين النزيه هذا مفروشاً بالورود . كان دائماً مسحوقاً بسير التاريخ ، وبمختلف ضروب الاسئلة والتخيلات . وحين دخل بيرسينيف الابن الى الجامعة ، كان الأب يذهب معه الى المحاضرات ، ولكن صحته اخذت تخونه . وهزتـــه احداث ١٨٤٨ من الاساس (وكان عليه ان يغير الكتاب كله) غير انه توفي شتاء ٥٣ قبل تخرج ابنه من الجامعة ، الا أنه قد هنأه مسبقاً بدرجة علميـــة وباركه لخدمة العلم . وقال له قبل ساعتين من وفاته : «اقدم المشعل لك ، فقد حملته أنا طوال ما كنت قادراً على حمله ، فلا تتخل انت عنه الى آخر العمر» .

تحدث بيرسينيف ليلينا طويلاً عن ابيه . واختفى الارتباك الذي كان يحسه في وجودها ، ولم يعد يلفظ السين شينا كثيراً . وانتقل الحديث الى الجامعة . فسألته يلينا :

— قل لي هل كان بين رفاقك أناس مرموقون ؟

وتذكر بيرسينيف كلام شوبين .

— لا ، يلينا نيقولايفنا ، الحق اقول لك ، لم يكن بيننا رجل واحد مرموق . ومِنْ أين يأتي ! يقال ان جامعة موسكو مرت بعهد طيب (١٤) ، ولكن ليس الآن . هي الآن مدرسة وليست جامعة . كنت اجد صعوبة مع رفاقي .

اضاف ذلك مخفضاً صوته . همست يلينا :

— صعوبة ؟

فمضى بيرسينيف يقول :

— على اية حال ، لا بد ان اذكر انني اعرف طالباً — لم يكن في فصلي في الحقيقة ، وهو بالفعل انسان مرموق .

سألت يلينا بحماس :

— وما اسمه ؟

— اينساروف ، دميتري نيكانوريتش . وهو بلغاري .

— ليس روسياً ؟

— لا ، ليس روسياً .

— ولماذا يعيش في موسكو ، اذن ؟

— جاء اليها للدراسة . وهل تعرفين لأي هدف يدرس ؟ هناك فكرة واحدة تشغلـــه : هي تحرير بلاده . وسيرتـــه ايضاً غير اعتيادية . فقد كان ابوه تاجراً ميسوراً جداً ، من مواليد تيرنوف .



وتيرنوف الآن بلدة صغيرة ، بينما كانت في ماضيها عاصمة بلغاريا ، عندما كانت بلغاريا مملكة مستقلة . وكانت تجارته في صوفيا ، وله علاقات مع روسيا . وشقيقته ، عمة اينساروف ، ما تزال تعيش في كييف ، وقد تزوجت معلماً اقدم للتاريخ في مدرسة ثانوية هناك . وفي عام ١٨٣٥ ، اي قبل ثمانيـة عشر عاماً ، وقعت حادثة نكراء ، اذ اختفت ام اينساروف فجأة ، وبعد اسبوع وجدت مذبوحة .

ارتعدت يلينا ، فتوقف بيرسينيف ، ولكنها قالت :

— واصل ، واصل .

— وأُشيع ان احد الاغوات الاتراك اختطفها وقتلها . ولما عرف والد اينساروف بالحقيقة اراد ان ينتقم ، ولكنـه تمكن من جرح التركي بخنجر لا غير . . . وقد قُتِل رمياً بالرصاص .

— قتل ؟ بدون محاكمة ؟

— نعم ، وكان اينساروف في ذلك الحين في سنه الثامنة فبقي بين ايدي الجيران . وعرفت الأخت بما حدث لعائلة اخيها ، فاعلنت رغبتها في احتضان ابن اخيها . فأُرسل الى اوديسا ، ومن هناك الى كييف . وقضى في كييف اثنتي عشرة سنة كاملة ، ولهذا يتكلـم الروسية جيداً .

— يتكلم الروسية ؟

— مثلك ومثلي . وحين اتم العشرين من العمر (وكان ذلك في بداية ١٨٤٨) رغب في السفر الى بلاده . وزار صوفيا وتيرنوف ، وجاب بلغاريا كلها طولاً وعرضاً ، وقضى فيها سنتين تعلم فيها لغته القومية من جديد . ولاحقته الحكومة التركية ، ومن المحتمل انه تعرض ، في هاتين السنتين ، الى مخاطر كبيرة . فقد رأيت على رقبته ذات مرة ندبة عريضة ، لا بد انها كانت اثراً لجرح . ولكنه لم يكن يحب الكلام عن ذلك . فهو صموت ايضاً بطبعـه . كنت احاول الاستفسار منه ولكنني لم اظفر بطائـل . فهو يرد بعبارات شائعة ، انه عنود جداً . وفي عام ١٨٥٠ عاد مـن جديـد الى روسيا ، الى موسكو بنية إكمال تعليمه كلياً ، والاختلاط بالروس ، وفيما بعد ، حين يتخرج في الجامعة . . .

قاطعته يلينا :

— ماذا فيما بعد ؟

— ما يقضي به الله . فمن الصعب التنبؤ بالمستقبل .
ظلت عينا يلينا معلقتين ببيرسينيف وقتاً طويلاً . ثم قالت :
— اثرت اهتمامي الشديد بقصتك . كيف شكل صاحبك هذا الذي سميته . . . اينساروف ؟
— كيف اقول لك ؟ ليس قبيحاً ، على ما اظن . حسناً ، سترينه بنفسك .
— وكيف ؟
— سآتي به اليك ، هنا . بعد غد سينتقل الى قريتنا ، ليعيش معي في مسكن واحد .
— صحيح ؟ ولكن هل سيقبل بزيارتنا ؟
— دون شك ! سيكون مسروراً جداً .
— وهل هو فخور ؟
— هو ؟ لا ، البتة . يعني اذا اردت الحقيقة ، فهو فخور ، ولكن ليس في المعنى الذي تقصدين . فهو مثلاً لا يستدين الفلوس من أحد .
— وهل هو فقير ؟
— نعم ، ليس غنياً . عندما سافر الى بلغاريا جمع ما تيسر له من مخلفات ابيه الصغيرة ، كما تساعده عمته . ولكن كل ذلك ضئيل تافه .
فلاحظت يلينا قائلة :
— لعل له الكثير من ضبط النفس .
— نعم . انه رجل من حديد . وفيه ، في الوقت ذاته ، وسترين ذلك بنفسك ، شيء طفولي منزّه ، مع كل تمركزه وصرامته وحتى تكتمه . والحق ان نزاهته ليست نزاهتنا التافهة ، نزاهة الذين ليس لهم ما يخفونه . . . ولكن انتظري ، سآتي به اليك .
سألت يلينا مرة أخرى :
— وهل هو خجول ؟
— لا ، ليس خجولاً . المغرورون وحدهم خجولون .
— وهل انت مغرور ؟
ارتبك بيرسينيف ، وبسط ذراعيه بحيرة . فمضت يلينا تقول :
— انت تثير فضولي . طيب ، قل لي ألم يثأر من الاغا التركي ؟

ابتسم بيرسينيف :

— الثأر يوجد في الروايات فقط ، يلينا نيقولايفنا . فضلاً عن ان هذا الاغا ربما كان قد مات في غضون الاثنتي عشرة سنة هذه .

— على اية حال ، ألم يقل السيد اينساروف لك شيئاً عن هذا ؟

— لم يقل شيئاً .

— فلماذا سافر الى صوفيا ؟

— كان ابوه يعيش هناك .

غرقت يلينا في تفكير ، ثم قالت :

— يحرر وطنه ! حتى النطق بهذه الكلمتين رهيب ، لعظمتهما . . .

وفي تلك اللحظة دخلت الغرفة آنا فاسيليفنا ، فانقطع الحديث . عندما كان بيرسينيف في طريق عودته الى البيت هذا المساء انتابته احاسيس غريبة . لم يندم على نيته في تعريف يلينا باينساروف . ورأى من الطبيعي جداً ان تخلف احاديثه عن البلغاري الشاب ذلك التأثير العميق لدي يلينا . . . كما انه هو نفسه حاول ان يقوّي ذلك التأثير ! ولكن شعوراً مبهماً ومعتماً تسلل خفية الى قلبه . فإكتأب إكتئاباً مسموماً . الا ان هذا الاكتئاب لم يعقه عن الانكباب على «تاريخ اسرة غوغينشتاوفين» ، وبدأ يقرأه من الصفحة التي توقف عندها مساء اليوم الفائت .

١١

بعد يومين وصل اينساروف الى مسكن بيرسينيف مع متاعه ، بما عاهد به بيرسينيف . لم يكن لديه خادم ، الا انه نظم غرفته ، ورتّب الاثاث ، ومسح الغبار ، وكنس الارضية دون اية مساعدة . وامضى وقتاً طويلاً جداً في وضع منضدة الكتابة في المكان الذي أبا ان يستوعبها ، ولكن اينساروف بما جبل عليه من اصرار صموت ، حقق ما يريد . ولمّا هيأ حجرته ، رجا بيرسينيف ان يتقبل منه عشرة روبلات كمقدمة ، واخذ عصا غليظة ، وخرج يتفقد ما يحيط بمنزله الجديد . وعاد بعد حوالى ثلاث ساعات فدعاه

بيرسينيف الى ان يشاركه طعامه ، فاجابه انه لا يمانع في تناول الغداء معه اليوم ، ولكنه قد تفاوض مع ربة البيت بالفعل ، وسيتلقى طعامه منها . اعترض بيرسينيف قائلاً :

— رحماك ! ستطعمك بشكل سيئ . ان هذه المرأة لا تجيد الطبخ نهائياً . فلماذا لا تريد ان تشاركني طعامي ؟ سنقتسم المصروفات بالمناصفة .

اجاب اينساروف بابتسامة هادئة :

— امكانياتي لا تساعدني ان آكل مثلما تأكل .

وكان في ابتسامته تلك شيء لا يبيح اية مقاومة . فلم يضف بيرسينيف كلمة . وبعد الغداء عرض بيرسينيف عليه ان يأخذه الى آل ستاخوف ، الا ان اينساروف ردّ بانه يريد ان يكرس كل المساء للكتابة الى اصحابه البلغار ، ولهذا يرجو أن تؤجل زيارة آل ستاخوف الى يوم غد . وكان بيرسينيف يعرف من قبل صلابة اينساروف فيما يريده ، ولكنه الآن فقط ، وهو معه تحت سقف واحد ، استطاع ان يقتنع كلياً بأن اينساروف لم يغير قط قراراً كان قد اتخذه ، مثلما لم يؤجل قط تنفيذ وعد كان قد قطعه . في البداية كان هذا الضبط الاكثر شدة من الضبط الالماني يبدو لبيرسينيف ، الروسي القح ، غريباً بعض الشيء ، بل ومضحكاً قليلاً . ولكنه سرعان ما ألفه ، واخيراً صار يجده مريحاً جداً ، على اقل تقدير ، ان لم يكن اهلاً للاحترام .

في اليوم الثاني من وصول اينساروف استيقظ في الرابعة صباحاً ، وطاف طوافاً سريعاً في كل كونتسوفو تقريباً ، وسبح في النهر ، وشرب كوباً من الحليب البارد ، وجلس يعمل . ولم يكن عمله قليلاً ، فقد كان يدرس التاريخ الروسي ، والقانون ، والاقتصاد السياسي ، وكان يترجم الاغاني والمدونات التاريخية البلغارية ، ويجمع المواد عن المسألة الشرقية ، ويضع كتاباً في النحو الروسي للبلغار ، وكتاباً في النحو البلغاري للروس . جاءه بيرسينيف ، وتحدث معه عن فورباخ (١٥) . استمع اينساروف اليه بانتباه ، ولم يعترض الا نادراً ، ولكن باقتدار ، وكان واضحاً من اعتراضاته انه كان يحاول ان يحدد لنفسه مساراً ، فاما الى دراسة فورباخ ، واما الى امكانية الاستغناء عنه . وبعد ذلك ساق بيرسينيف الحديث الى دراساته ، وسأله هل سيريه شيئاً منها ؟

فقرأ اينساروف له اغنيتين او ثلاثاً من الاغاني البلغارية التي ترجمها ، ورغب في ان يسمع رأيه فيها . فرأى بيرسينيف ان الترجمة صحيحة ، وان كان ينقصها القدر الكافي من التدفق . فأخذ اينساروف ملاحظته بعين الاعتبار . وانتقل بيرسينيف من الاغاني الى وضع بلغاريا الراهن ، فلحظ ، لاول مرة ، التغيّر الكبير الذي ظهر على اينساروف ، بمجرد ذكر اسم وطنه . لم يتوهج وجهه او يرتفع صوته ، لا ، ابداً ! بل ان كيانه كله ، بدا كما لو صبت فيه صلابة واندفاع ، ولاحت خطوط شفتيه اكثر حدة واصراراً ، واشتعلت في اغوار عينيه نار صماء اقوى من ان تخمد . لم يكن اينساروف يحب الافاضة في الحديث عن سفرته الى وطنه ، ولكنه كان يتحدث عن بلغاريا عموماً بطواعية مع كل انسان . كان يتحدث بتؤدة ، عن الاتراك وعن مظالمهم ، وعن محن ورزايا اهل وطنه ، وعن امانيهم ، وكانت كل كلمة من كلماته تنطق بهوى وحيد طالما تروّى فيه وركز تفكيره عليه من زمان .

وكان بيرسينيف في غضون ذلك يفكر مع نفسه : «اغلب الظن ان الاغا التركي دفع ثمن قتله لابيه وأمه» .

وما كاد اينساروف يسكت حتى فُتح الباب ، وظهر شوبين على العتبة .

دخل الحجرة مسترخياً . وبيرسينيف الذي كان يعرفه جيداً ، ادرك على الفور انه مغتاظ من شيء ما .

ابتدر يقول ، وقد انطلقت اسارير وجهه واشرقت :

— لاقدم نفسي ، بلا كلفة . أُدعى شوبين ، وانا صديق هذا الشاب (واشار الى بيرسينيف) أظن أنك السيد اينساروف ، أليس كذلك ؟

— نعم ، اينساروف .

— اذن ، هات يدك ، ولنتعارف . لا اعرف هل حدثـــك بيرسينيف عني ، ولكنه حدثني الشيء الكثير عنك . هل نزلت هنا ؟ ممتاز ! لا تغضب عليّ ، إذا كنت اتفرس فيك بهذا الشكل . انا ، بالحرفة ، نحات ، واتنبأ بأنني ، عن قريب ، ساتقدم لك بطلب السماح لي بأن انحت رأسك .

قال اينساروف :

— رأسي في خدمتك .

— ماذا سنفعل اليوم ؟ ها ؟ — قال شوبين وقد جلس فجأة على مقعد واطئ ، واسند كلتا يديه على ركبتيه المنفرجتين كثيراً — يا اندريه بيتروفيتش ، هل لسيادتك خطة ما لهذا اليوم ؟ الطقس رائع . وفي الجو رائحة تبن وعُليق جاف حتى . . . كأنك تحتسي شاياً بالنعنـــــاع . حبذا لو نقوم بشيء خارق . فنرَي ساكن كونتسوفو الجديد كل مفاتنها العديدة . (ومضى بيرسينيف يفكر مع نفســــــه : «هو مغيظ») طيب ، ما لك صامت ، يا صديقــــي هارتسيو ؟ افتح فمك النبوئي . هل نقوم بشيء خارق ، ام لا ؟

قال بيرسينيف :

— لا اعرف ما رأي اينساروف . اظن انه يتهيأ ليعمل .

استدار شوبين على مقعده ، وسأل في خُنّة :

— أتريد ان تعمل ؟

قال هذا :

— لا . في امكاني ان اكرس اليوم لنزهة .

فقال :

— آه ! رائع حقاً . هيا ، يا صديقي اندريه بيتروفيتش ، وغط رأسك الحكيم بقبعة ، ولنذهب الى حيث تمتد ابصارنا . وابصارنا فتية ، وستمتد بعيداً . انا اعرف حانة صغيرة ، نفيسة في رداءتها ، سيقدمون لنا فيها طعاماً فائقاً في سماجته ، ولكننا سنكون مبتهجين كثيراً . فلنذهب .

بعد نصف ساعة كان الثلاثة يسيرون على شاطئ نهر موسكو . كان اينساروف يرتدي قبعة غريبة الشكل مرتخية الحاشية من الجانبين جعلت شوبين في بهجة غير طبيعية تماماً . كان اينساروف يسير على مهل ، ويتطلع ، ويستنشق الهواء ، ويتكلم ويبتسم بهدوء . فقد وهب يومه هذا للاستمتاع ، فكان يتلذذ به تماماً . اسر شوبين في اذن بيرسينيف : «بهذا الشكـــــل يتنزه الاولاد المهذبون في ايام الآحاد» . وكان شوبين نفسه يتصرف بخفة ، يركض الى الامام ، يتوقف متخذاً اوضاع تماثيل معروفة ، يتقلب على العشب . فان رصانة اينساروف لم تكن تغيظه ، بل كانت تجعله يتصرف كالبهلول . وقد نبهه بيرسينيف مرة او مرتين : «ما هذه العفرتة ، يا فرنسي !» فكان شوبين يرد عليه : «اجل ، انا فرنسي ، نصف فرنسي ! اما انت فابق في منتصف المسافة

بين الهزل والجد ، كما كان يقول لي نادل حانة» . استدار الشبان مبتعدين عن النهر ، وساروا في اخدود ضيق عميق بين حائطين تشكلهما سنابل الجودار الذهبي العالي ، وقد القى عليهم احد هذين الحائطين ظلاً مزرقاً . وبدا وكأن الشمس المشرقة تنزلق على اعالي السنابل ، والقُبَّرات تصدح ، وطيور السماني تهدل ، والعشب مخضوضر في كل مكان . وكانت نسمة دافئة تنوس ، وترفع انصاله ، وتهز تويجات الزهور . ووصل الشبان الى الحانة «النفيسة في رداءتها» بعد جولات طويلة واستراحات واحاديث قيل وقال (بل ان شوبين حاول حتى ان يلعب القفّازية مع ريفي عابر تساقطت اسنانه كان يضحك باستمرار من الاعيب السادة معه) . كاد النادل يوقع كل واحد منهم ارضاً ، وقدّم لهم بالفعل طعاماً سمجاً جداً ونبيذاً رديئاً ، الا ان ذلك ، على العموم ، لم يمنعهم من ان يمرحوا بكل قلوبهم ، كما تنبأ شوبين . وكان شوبين نفسه اضجهم مرحاً ، واقلّهم نصيباً منه في الوقت ذاته . شرب في صحة فينيلين الغامض والعظيم ايضاً وفي صحة ملك بلغاري يدعى كروم (١٦) او خروم يعود تاريخه الى عهد آدم تقريباً .

صحح له اينساروف :

– الى القرن التاسع .

فهتف شوبين :

– الى القرن التاسع ؟ آوه ، يا للسعادة !

لاحظ بيرسينيف ان شوبين مع كل الاعيبه ونزواته ونكاته ، كان يبدو كمن يمتحن اينساروف ، ويتحسسه ، ويقلق في دخيلة نفسه . بينما ظل اينساروف على هدوئه وصفائه .

واخيراً عادوا الى كونتسوفو ، وغيروا ملابسهم ، ولكي يحافظوا على المزاج الذي شملهم منذ الصباح عزموا على زيارة آل ستاخوف في المساء . وهرع شوبين في المقدمة ليعلن عن هذه الزيارة .

١٢

هتف بلهجة خطابية ، وهو يدخل حجرة الجلوس في بيت آل ستاخوف ، حيث لم يكن فيها ، في تلك اللحظة ، غير يلينا وزويا :

— البطل اينساروف سيشرف الآن هنا .
فسألت زويا بالالمانية :
— Wer ؟ * .

وكانت حين تؤخذ على غرة تعبر بلغتها القومية دائماً . رفعت يلينا جذعها . نظر شوبين اليها وعلى شفتيه ابتسامة لعوب ، احست بالضيق . ولكنها لم تقل شيئاً .

وكرر قائلاً :

— سمعت ؟ السيد اينساروف قادم الى هنا .

قالت :

— سمعت . وسمعت كيف سميته . انا مندهشة منك حقاً . السيد اينساروف لم يطأ بعد بقدمه هذا البيت ، ومع ذلك ترى من الضروري ان تتهازل .

استرخى شوبين فجأة . وغمغم :

— انت على حق ، انت دائماً على حق ، يلينا نيقولايفنا . ولكنني لا اقصد شيئاً من كلامي . والله . لقد تنزهنا النهار كله سوية ، واؤكد لك انه رجل ممتاز .

— لم اكن اسألك عن هذا .

قالت يلينا ذلك ، ونهضت .

فسألت زويا :

— هل السيد اينساروف شاب ؟

اجاب شوبين في ضيق :

— عمره مائة واربعة واربعون عاماً .

اعلن الصبي الخادم وصول الصديقين . فدخلا . قدّم بيرسينيف اينساروف . دعتهما يلينا الى الجلوس ، وجلست هي . وذهبت زويا الى الطابق العلوي ، لتبلغ آنا فاسيليفنا . وبدأ حديث عادي جداً ، مثل كل الاحاديث في اللقاء الاول . وكان شوبين يراقب من ركن في صمت ، وان لم يكن ما يستدعي المراقبة . وكان يلحظ في يلينا ضيقاً مكبوتاً منه ، ولا شيء آخر . وكان ينظر الى بيرسينيف والى اينساروف ، ويقارن بين وجهيهما كنحات . وكان يفكر مع نفسه : «كلاهما غير جميل . للبلغاري وجه مميز

* من ؟ (بالالمانية في الاصل) .

الملامح ، يستجيب للنحت . والآن توضح بشكل جيد . وجه الروسي يصلح للرسم اكثر . الخطوط غائبة ، والسمة موجودة . واظن كليهما يمكن ان يعشق . وهي لا تحب الآن ، ولكنها ستحب بيرسينيف» . انتهى الى ذلك مع نفسه . ودخلت آنا فاسيليفنا حجرة الجلوس ، واتخذ الحديث طابع الحديث الذي يجري بين مستأجري البيوت الريفية بالذات ، لا حديث الريف . اي انه كان حديثاً متنوعاً جداً في وفرة المواضيع المتناولة ، الا ان وقفات قصيرة متعبة جداً كانت تقطعه كل ثلاث دقائق . وفي احدى تلك الوقفات التفتت آنا فاسيليفنا نحو زويا . وفهم شوبين ايماءتها الصامتة ، فتلوّت اساريره في زعل . جلست زويا الى البيانو ، وانشأت تعزف ، وتغني كل ما كانت تعرفه من اغان . ولاح اوفار ايفانوفيتش من وراء الباب ، الا انه حرّك اصابعه ، واختفى ثانية . وخرج الجميع ليتنزهوا في الحديقة بعد ان شربوا الشاي . وهبط الظلام وراء النافذة ، فانصرف الضيوف .

لقد ترك اينساروف في نفس يلينا ، بالفعل ، انطباعاً اقل مما كانت تتوقع هي نفسها ، او بعبارة ادق ، لم يترك في نفسها الانطباع الذي كانت تتوقعه . اعجبتها صراحته وعفويته ، كما راق لها وجهه ، ولكن اينساروف بشخصيته الركينة بهدوء ، والبسيطة بشكل غير ملفت للنظر لم تنسجم ، على نحو ما ، مع الصورة التي خلقتها في ذهنها احاديث بيرسينيف . كانت يلينا تنتظر شيئاً اكثر «غرابة» دون ان تفكر في ذلك . وكانت تقول لنفسها : «ولكنه اليوم لم يتكلم الا قليلاً . وانا الملومة ، اذ لم الحّ عليه بالاسئلة ، فلننتظر حتى المرة القادمة . . . غير ان عينيه معبرتان ، نقيتان» . لم تشعر بالرغبة في احناء قامتها امامه باعجاب ، بل في تقديم يدها اليه بود . وكانت في حيرة من أمرها ، فقد كانت تتصور الناس «الابطال» من امثال اينساروف في صورة غير الصورة التي ظهر فيها . وذكرتها كلمة «بطل» بشوبين ، فاحمرت ، وهي ترقد في سريرها ، واستبد بها الغضب .

في طريق العودة سأل بيرسينيف اينساروف :

— ما رأيك في المعارف الجدد ؟

اجاب اينساروف :

– اعجبوني كثيراً ، ولا سيما الابنة . لا بد انها فتاة طيبة . كانت بادية القلق ، ولكن قلقها جميل .

فقال بيرسينيف :

– يجب ان نكثر من زيارتهم .

– نعم ، يجب .

قال اينساروف ، ولم يقل شيئاً آخر حتى وصوله الى البيت . وعندما وصل اسرع الى الاعتكاف في غرفته حالاً غالقاً الباب عليه ، الا ان الشمعة ظلت مشتعلة فيها الى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل .

اما بيرسينيف فما كاد يقرأ صفحة واحدة من راومر ، حتى اصابت حفنة من الرمل الدقيق زجاج نافذته . جفل مباغتاً . وفتح النافذة ، ورأى شوبين شاحب الوجه بلون الكتان المبيض .

بادره بيرسينيف قائلاً :

– يا لك من همام ، يا فراشة الليل !

قاطعه شوبين :

– هسس ! جئتك خفية ، مثلما جاء ماكس الى اغاثا (١٧) . عندي كلمتان اريد ان احدثك بهما من دون بد ، على انفراد .

– ولكن ادخل الغرفة .

– لا ، لا حاجة – اعترض شوبين ، واتكأ بمرفقيه على افريز النافذة – هنا أمرح ، واكثر شبهاً بما يجري في اسبانيا . اولاً ، اهنئك . اسهمك رجحت . ورجلك الخارق المحمود الخصال سقط . واستطيع ان اضمن ذلك . ولكي اثبت لك عدم تحيزي هاك اسمع مواصفات السيد اينساروف . لا مواهب . ولا شاعرية ، وقدرات على العمل هائلة ، وذاكرة كبيرة ، وعقل غير متعدد الجوانب ، وغير عميق ، ولكنه سليم ونشيط . جفاف وقوة ، بل وحتى موهبة في الكلمات ، حين يدور الحديث حول بلغاريا الكئيبة ، بيني وبينك . اذن ؟ هل ستقول انني غير منصف ؟ وهناك ملاحظة اخرى . لا اعتقد انك ستخاطبه بضمير المفرد ولا احد فعل ذلك من قبل . وانا كفنان ، ممقوت له ، وانا فخور بذلك . جاف ، جاف ، ولكنه يستطيع ان يطحننا جميعاً . انه مرتبط بأرضه . وليس مثل قربنا الفارغة التي تتودد للشعب قائلة : يا ماء الحياة ، انصبَّ فينا ! (١٨) ومهمته ، الى جانب ذلك ، سهلة ، وايسر على الفهم :

التخلص من الترك ، ولا اكثر ! ولكن هذه الخصال كلها ، والحمد لله ، لا تروق للنساء . انه بلا جاذبية ، بلا شارم * ، اي بدون ما لدينا انت وانا .

غمغم بيرسينيف :

— وما شأني انا في هذا ؟ ثم أنك في البقية ايضا غير محق . فهو لا يمقتك البتة . وهو يخاطب ابناء وطنه بضمير المفرد . . . انا اعرف ذلك .

— هذا شيء آخر ! انه ، بالنسبة لهم ، بطل . واعترف لك ان لي فكرة مغايرة عن الابطال . البطل يجب ان لا يجيد الكلام ، البطل يجأر ، كالثور ، الا انه اذا ضرب بقرنه انهارت الجدران . ولا ينبغي له ان يعرف لماذا يستخدم قرنيه ، ولكنه يستخدمهما . ثم ربما زماننا يحتاج الى ابطال من عيار آخر .

سأل بيرسينيف :

— لماذا يشغل اينساروف بالك الى هذه الدرجة ؟ هل معقول أنك جئت راكضاً اليّ لغرض واحد ، هو ان تصف لي خصاله ؟

قال شوبين :

— جئت اليك ، لانني احسست بكآبة شديدة في بيتي .

— هكذا اذن ! لعلك تريد ان تبكي مرة اخرى ؟

— لك ان تضحك مني ! لقد جئت الى هنا لانني مستعد ان انتف شعري ، لان اليأس والضيق والغيرة تعذبني .

— الغيرة ؟ الغيرة ممن ؟

— منك ، ومنه ، ومن الجميع . يعذبني حين افكر مع نفسي ، آه لو كنت فهمتها من قبل ، لو استطعت ان ادبر الأمر بحذق . . . ولكن لا جدوى من الكلام ! في النهاية سأظل اضحك ، واتحامق ، واتهازل كما تقول هي ، وبعد ذلك سأشنق نفسي .

قال بيرسينيف :

— كل شيء تفعل الا الشنق .

— لا بالطبع ، في مثل هذه الليلـة . ولكن تمهل حتى حلول الخريف . الناس ايضاً في مثل هذه الليلة لا يموتون الا من السعادة . آه ، السعادة ! كل ظل من شجرة ملقى عبر الطريق يبدو وكأنه

* كلمة فرنسية charme تعني فِتْنَة" . **المترجم** .

يهمس الآن : «انا اعرف اين السعادة . . . هل تريد ان ادلك ؟» وددت لو ادعوك الى النزهة ، ولكنك الآن تحت تأثير النثر . نم ، عسى ان تحلم بالمعادلات الحسابية ! اما انا فروحي تفيض . انتم ، ايها السادة ، حين ترون احداً يضحك تتصورون ان الحياة سهلة عليه . وتستطيعون ان تثبتوا له انه يناقض نفسه ، يعني انه لا يعاني . عفا الله عنكم !

ابتعد شوبين عن النافذة بسرعة . اراد بيرسينيف ان يصيح في اثره : «آنوشكا !» ولكنه امسك نفسه . لقد كان شوبين شاحب الوجه حقاً . حتى ان بيرسينيف بعد دقيقتين ، تصور انه يسمع نشجات . فنهض ، وفتح النافذة ، ولم يسمع شيئاً . وفي البعيد فقط ، كان ريفي ، عابر سبيل ربما ، يغني ، «يا سهب موزدوك» * .

١٣

لم يزر اينساروف آل ستاخوف اكثر من اربع او خمس مرات خلال الاسبوعين الاولين من اقامته بجوار كونتسوفو . وكان بيرسينيف يزورهم بين يوم ويوم . وكانت يلينا تُسر به دائماً ، وينعقد بينهما حديث طريف حيوي على الدوام . ومع ذلك فقد كان في الغالب يعود الى البيت مكتئب الوجه . وانقطع شوبين عن الزيارة كلياً تقريباً . فقد انغمر في فنه كالمحموم ، فكان تارة يغلق عليه حجرته ، ويخرج من هناك فجأة في بلوزة ، وقد تلطخ كله بالطين ، وتارة يقضي اياماً في الاستوديو الذي اتخذه في موسكو ، حيث كان يستقبل الموديلات والمقولبين الايطاليين ، واصدقاءه واساتذته . ولم تتح ليلينا مرة واحدة فرصة للتحدث الى اينساروف كما تهوى . كانت في غيابه تتهيأ لسؤاله عن اشياء كثيرة ، ولكنها كانت تخجل من استعداداتها ، حين كان يأتي . وكانت رصانة اينساروف بالذات تربكها ، فيخيَّل اليها أنها غير محقة في حمله على ان يفصح عن مكنون صدره ، فقررت ان تتريث .

---

* اغنية شعبية روسية . **الناشر** .

ومع كل هذا كانت تشعر بأنه كان يجذبها اليه اكثر فاكثر ، مع كل زيارة يقوم به ، ومهما كانت الكلمات المتبادلة قليلة الاهمية ، ولكن لم تسنح لها فرصة الخلو به ، بينما الدنو من شخص يقتضي التحدث اليه على انفراد ، مرة واحدة على الأقل . وكانت تتحدث عنه الى بيرسينيف كثيراً . وكان بيرسينيف يدرك ان اينساروف اثار خيال يلينا ، فكان يبتهج بأن صديقه لم يسقط ، كما كان شوبين يؤكد . فكان يحدثها بحرارة وبأدق التفاصيل عن كل ما كان يعرفه عنه (نحن في الغالب ، حين نريد ان نثير اعجاب شخص نطري في احاديثنا معه اصدقاءنا وفي الوقت ذاته لا يكاد يخطر على بالنا اننا بذلك نطري انفسنا ايضاً) . واحياناً فقط ، كانت تعتمل في قلبه تلك الكآبة غير اللطيفة المعروفة له ، حين كانت وجنتا يلينا الشاحبتان تكتسيان حمرة خفيفة ، وعيناها تتألقان وتتسعان .

ذات مرة جاء بيرسينيف الى آل ستاخـــــوف في غير الوقت المعتاد ، في نحو الحادية عشرة صباحاً . وخرجت يلينا اليه في القاعة .

انشأ يقول بابتسامة متكلفة :

— تصوري ان صاحبنا اينساروف اختفى .

قالت يلينا :

— كيف اختفى ؟

— اختفى . خرج في مساء امس الاول ، ولم يعد حتى الآن .

— ألم يقل الى اين ذهب ؟

— لا .

حطت يلينا على مقعد .

— اغلب الظن أنه ذهب الى موسكو .

قالت ذلك ، وهي تحاول ان تبدو غير مكترثة ، ويدهشها في الوقت ذاته انها تحاول ان تبدو غير مكترثة . اعترض بيرسينيف قائلاً :

— لا اظن . لم يخرج وحده .

— مع مَنْ ؟

— يوم امس الاول جاء اليه ، قبيل الغداء ، شخصان لا بد انهما من ابناء وطنه .

— بلغاريان ؟ لماذا تتصور ذلك ؟

— لانهم ، اذا لم يخني سمعي ، كانوا يتكلمون لغة لا افهمها ، ولكنها سلافية . . . وانت ، يا يلينا نيقولايفنا ، لا تجدين في شخصية اينساروف غير القليل من الغموض . فأي شيء اكثر غموضاً من هذه الزيارة ؟ فتصوري . جاءآ اليه وراحا يصيحان ويتجادلان ، وبكثير من الوحشية والحنق . . . وكان هو ايضاً يصرخ .

— هو ايضاً ؟

— نعم ، كان يصرخ بهما . يبدو ان احدهما يشكو من الآخر له . ليتك نظرت الى هذين الزائرين ! الوجهان اسمران عريضا الوجنات ، بأنفين كأنوف الصقور ، وقد تخطى كل واحد منهما الاربعين من العمر . وثيابهما رديئة مغبرّة مبللة بالعرق ، وهما من حيث المظهر ليسا حرفيين ولا من السادة . . . الله يعلم اي رجلين هما .

— وخرج معهما ؟

— نعم . أطعمهما ، وخرج معهما . وقد اخبرتني ربة البيت بأن الاثنين أكلا سلطانية ضخمة مملوءة بالعصيدة . حسب قولها كانا يتسابقان بالتهام الطعام كذئبين .

ابتسمت يلينا ابتسامة مقتضبة خفيفة . وقالت :

— سترى ان كل ذلك سيتكشف عن شيء اعتيادي جداً .

— عسى ان يكون ! ولكن ما كان عليك ان تستخدمي هذه الكلمة . ليس في اينساروف شيء اعتيادي ، رغم ان شوبين يؤكد . . .

— شوبين ! — قاطعته يلينا ، وهزت كتفيها — ولكن يجب ان تقر بأن ذينك السيدين الملتهمين العصيدة . . .

فلاحظ بيرسينيف مبتسماً :

— ثيميستوكليس اكل ايضاً في عشية معركة سالومي (١٩) .

— صحيح . ولكن في اليوم التالي حدثت معركة . وعلى اية حال اعلمني حين يعود .

اضافت يلينا ، وحاولت تغيير الحديث ، ولكن الحديث انفرط . جاءت زويا ، واخذت تسير في الحجرة على اطراف اصابعها ، ملمّحة بذلك ان آنا فاسيليفنا لم تستيقظ بعد .

انصرف بيرسينيف .

وفي مساء ذلك اليوم أرسل تذكرة الى يلينا يقول فيها : «عاد

ملوّحاً مغبراً حتى حاجبيه . ولكنني لا اعرف سبب رحيله والمكان الذي رحل اليه . فهل ستعرفين انت ؟»
همست يلينا :
– هل ستعرفين انت ؟ وهل هو يتحدث اليّ ؟

١٤

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي كانت يلينا واقفة في الحديقة امام وجار صغير يضم جروين . (وجدهما البستاني مرميين عند السياج ، فحملهما اليها ، بعد ان اسرت له الغسالات ان السيدة الشابة تشفق على كل انواع الحيوانات . ولم يخطـــأ في تقديره . فقد اعطته يلينا خمسة وعشرين كوبيكا .) نظرت في الوجار ، وتيقنت من ان الجروين سالمان معافيان ، وان قشاً طرياً قد فُرش لهما ، واستدارت ، وكادت تند منها صيحة ، حين رأت اينساروف مقبلاً عليها وحده عبر الدرب المعرّش .

– مرحباً – قال وهو يقترب منها ، رافعاً قبعته عن رأسه . وقد لاحظت ايضاً ان بشرته قد تلوّحت كثيراً بالفعل في الايام الثلاثة الاخيرة – اردت ان اجيء مع اندريه بيتروفيتش ، ولكنه تأخر في تحضير نفسه ، فجئت بدونه . لا احداً عندكم في البيت . اما نائمون ، او يتنزهون ، فجئت الى هنا .

ردّت يلينا :

– كأن في كلامك نبرة اعتذار . لا حاجة الى هذا اطلاقاً . نحن جميعاً نُسر كثيراً في رؤيتك . تفضل اجلس هنا ، على المسطبة ، في الظل .

وجلست هي ، وجلس اينساروف الى جانبها .

قالت :

– اظن انك لم تكن في البيت في المدة الاخيرة ؟

اجاب :

– نعم . سافرت . . . هل اخبرك اندريه بيتروفيتش بذلك ؟
ونظر اينساروف اليها ، وابتسم ، وأخذ يلعب بقبعته . وكان ،

وهو يبتسم ، يرمش بسرعة ، ويمط شفتيه ، مما اضفى عليه مظهراً سمحاً جداً .

وقال ، وهو ما يزال يبتسم :

– اغلب الظن ان اندريه بيتروفيتش اخبرك انني سافرت مع شخصين زريين .

ارتبكت يلينا قليلاً ، ولكنها شعرت فوراً بضرورة قول الصدق مع اينساروف دائماً .

قالت بحزم :

– نعم .

فاذا به يسألها فجأة :

– وماذا فكرت فيَّ ؟

رفعت يلينا بصرها اليه ، وقالت :

– فكرت ، فكرت انك دائماً تعرف ما تفعل ، وانك غير قادر على ان تفعل شيئاً غير محمود .

– طيب ، وشكراً لك على ذلك . المسألـــة ، يا يلينـــا نيقولايفنا – بدأ قوله مقترباً منها في وثوق – لدينا هنا جماعة صغيرة من رجالنا . وبيننا اناس قليلو التعليم ، ولكن الجميع اوفياء للقضية العامة وفاء قوياً . ومن سوء الحظ ان الامر لا يمضي دون مشاحنات . ولكن الجميع يعرفونني ، ويثقون بي ، ولهذا دعوني الى البت في احدى المشاحنات . فسافرت .

– الى مكان بعيد ؟

– الى ترويتسكي باساد ، على بعد ستين فرسخاً . فإن لنا رجالنا في الدير ايضاً . ولم تذهب جهودي عبثاً ، على اقل تقدير . فقد سويت الأمر .

– وواجهت صعوبة ؟

– نعم . ظل احدهم متصلباً طوال الوقت . لا يريد ان يعيد النقود .

– كيف ؟ كان الشجار بسبب النقود ؟

– نعم ، كما انها ليست كثيرة . وانت ، ماذا كنت تظنين ؟

– وتقطع ستين فرسخاً من اجل هذه التوافه ؟ تضيّع ثلاثة ايام ؟

– ليست هذه توافه ، يا يلينا نيقولايفنا ، اذا كان ابناء وطني متورطين . فالرفض هنا غير معذور . ها انا اراك لا تحجبين

عونك حتى عن الجراء . ولك مني الثناء على ذلك . لا ضير في ان اضيّع الوقت . وبعد ذلك اعوّضه . وقتنا ليس مُلكاً لنا .

– مُلْك مَنْ ، اذن ؟

– ملك كل مَنْ بحاجة الينا . وانا اعرب لك عن كل هذا ، فجأة ، لانني اعتز برأيـــك . واتخيل كيف ادهشك اندريـــه بيتروفيتش .

قالت يلينا بصوت خافض :

– ولماذا تعتز برأيي ؟

ابتسم اينساروف مرة اخرى .

– لأنك فتاة طيبة ، ولست ارستقراطية . وهذا كل ما في الأمر .

رساد صمت قصير .

قالت يلينا :

– هل تدري ، يا دميتري نيكانوروفيتش ، انك لاول مرة بمثل هذه الصراحة معي ؟

– وكيف ذاك ؟ اتصور انني دائماً كنت احدثك بكل ما افكر فيه .

– لا ، هذه هي المرة الاولى . وانا مسرورة جداً بذلك . وانـا ايضاً احب ان اكون صريحة معك . فهل هذا ممكن ؟

ضحك اينساروف وقال :

– ممكن .

– احذرك من انني فضولية جداً .

– لا بأس ، تفضلي .

– حدثني اندريه بيتروفيتش بالكثير من القصص عن حياتك ، وعن شبابك . وانا اعرف حقيقة واحدة ، حقيقة مريعة . . . اعرف انك سافرت الى بلادك فيما بعد . . . ارجوك ، لا ترد عليّ ، اذا كان سؤالي يبدو لك غير لائق ، ولكن فكرة معينة تعذبني . . . خبرني ، هل التقيت بذلك الرجل . . .

وتقطعت انفاس يلينا . فقد اخذها الخجل والارتعاب مـــن جسارتها . وكان اينساروف يتفرس فيها ، مقلّصاً عينيه قليلاً ، جاساً ذقنه باصابعه .

واخيراً شرع يقول بصوت اوطأ من صوته الاعتيادي ، فكاد ذلك يفزع يلينا :

— يلينا نيقولايفنا . انا اعرف الى مَنْ تشيرين بالرجل الذي ذكرته الآن . لا ، لم التق به ، والحمد لله ! لم ابحث عنه . لم ابحث عنه ، لا لانني لم اعتبر نفسي محقاً في قتله — كان من الممكن ان اقتله بهدوء اعصاب — ولكن لأن الثأر الشخصي لا يجدي شيئاً ، حين يتعلق الامر بانتقام شعبي جماعي . . او ، لا ، هذه الكلمة لا تفي بالغرض . . . حين يتعلق الامر بتحرير الشعب . عندئذ سيكون الاول منافياً للآخر . وحتى ذاك سيأتي وقته . . . سيأتي وقته .

كرر الجملة الاخيرة ، هازاً رأسه .

نظرت يلينا اليه من جنب ، وقالت بتهيب :

— أتحب وطنك كثيراً ؟

اجاب :

— هذا غير معروف الآن . ولكن حين يموت احدنا في سبيله ، عندئذ يمكن القول انه كان يحب وطنه .

فتابعت يلينا قولها :

— اذن ، لو مُنِعتَ من العودة الى بلغاريا لضقت من العيش في روسيا ؟

اطرق اينساروف برأسه . ثم قال :

— يبدو لي ان ذلك لن اتحمله .

وعادت يلينا تقول :

— قل لي : هل من الصعب تعلّم اللغة البلغارية ؟

— لا ، قطعاً . من العيب على الروسي ان لا يعرف البلغارية . الروسي يجب ان يعرف كل اللغات السلافية . هل تريدين ان اجلب لك كتباً بلغارية ؟ وسترين كم ذلك سهلاً . واية اغانٍ لنا ! ليست اسوأ من الاغاني الصربية . دعيني اترجم لك واحدة منها . انها تتحدث عن . . . ولكن هل تعرفين شيئاً من تاريخنا ؟

اجابت يلينا :

— لا ، لا اعرف شيئاً .

— انتظري ، وساجلب لك كتاباً . على الاقل ستعرفين منه حقائق رئيسية . اذن ، اسمعي الاغنية . . . على العموم من الافضل ان اجلب لك ترجمة مكتوبة . انا واثق من انك ستحبيننا . فانت تحبين جميع المضطهدين . آه ، لو تعرفين كم هو موفور اقليمنا !

ومع ذلك يُداس ، ويعذب – اضاف بحركة لاارادية من يده ، واكتسى وجهه دُكنة – سلبونا كل شيء . سلبوا كنائسنا ، وحقوقنا ، واراضينا . والاتراك الملاعين يسوقوننا سوق القطيع ، ويذبحوننا . . .

وهتفت يلينا :

– دميتري نيكانوروفيتش !

توقف .

– اعذريني . انا لا استطيع ان اتكلم عن ذلك ببرودة اعصاب . ولكنك قبل لحظات كنت تسألينني : هل احب وطني ؟ واي شيء غيره يمكن ان يحب الانسان في الدنيا ؟ ما هو الوحيد الثابت ، الاعلى من كل الشكوك ، والذي يأتي الايمان به بعد الايمان بالله ؟ وحين يكون هذا الوطن بحاجة اليك . . . لاحظي ان اشد الفلاحين فقراً ، اكثر البائسين مسغبة في بلغاريا وانا تجمعنا الرغبة في شيء واحد ، للجميع هدف واحد . فتصوري روح الثقة والصلابة التي يقدمها هذا !

صمت اينساروف لحظة ، ثم عاد يتحدث عن بلغاريا . واصغت يلينا له بانتباه متلهف عميق وحزين ايضاً . وعندما انتهى عن كلامه سألته ثانية :

– اذن ، لن تبقى في روسيا ، مهما يكن من شيء ؟

وحينما انصرف ظلت تحدق في اثره وقتاً طويلاً . في ذلك اليوم صار ، بالنسبة لها ، انساناً آخر . ودعته انساناً آخر ، غير الذي استقبلته قبل ساعتين .

ومنذ ذلك اليوم صار اينساروف يتردد اكثر فاكثر ، وبيرسينيف أقل فأقل . ونشأ بين الصديقين شيء غريب كان كلاهما يحسه جيداً ، ولكنه لا يستطيع تسميته ، ويخشى من توضيحه . وانقضى شهر على هذا المنوال .

١٥

كانت آنا فاسيليفنا تحب البقاء في البيت ، كما يعرف القارئ ، الا ان رغبة قاهرة كانت تستولي عليها احياناً ، بشكل مفاجئ

تماماً ، في شيء غير اعتيادي ، في * partie de plaisir مذهلة ، وكلما كانت هذه الـ partie de plaisir اصعب على التحقيق ، تتطلب اعداداً وتحضيرات اكثر وقلقاً اشد لآنا فاسيليفنا نفسها كانت تطيب لها اكثر . فاذا اعترتها هذه النزوة شتاء أمرت بأن تحجز مقصورتان او ثلاث مقصورات متجاورة ، وجمعت كل معارفها وذهبت الى المسرح وحتى الى حفلة تنكرية . اما اذا جاءتها صيفاً طلعت الى خارج المدينة ، الى ابعد ما تستطيع . وفي اليوم التالي كانت تشكو صداعاً ، وتتأوه ، وتلازم الفراش ، وبعد شهرين او نحوهما تتأجج في نفسها نفس الرغبة في «شيء غير اعتيادي» مرة اخرى . وهذا ما حصل الآن ايضاً . فقد ذكر احد في حضورها محاسن تساريتسينو ، فاعلنت بغتة انها تنوي السفر الى تساريتسينو بعد غد . وحدث جيشان في البيت . وهرع رسول الى موسكو يطلب نيقولاي ارتيميفيتش الزوج ، وذهب كبير الخدم معه لشراء النبيذ ومعجون الطيور ومختلف المأكولات . وعُهد الى شوبين باستئجار عربة ركوب (لأن مركبة البيت وحدها لا تكفي) والحصول على خيول اضافية . وذهب صبي خادم مرتين الى بيرسينيف واينساروف ، حاملاً معه مذكرتي دعوة كتبتا اولاً بالروسية ، وبعد ذلك كتبتها زويا بالفرنسية . واهتمت آنا فاسيليفنا نفسها باعداد لوازم السفر للآنستين . وفي غضون ذلك كادت partie de plaisir ان تفسد ، فقد عاد نيقولاي ارتيميفيتش من موسكو كدر المزاج وعقاً متذمراً (كان لا يزال يغضب على افغوستينا خريستيانوفنا) ولما عرف جلية الامر اعلن بحزم انه لن يسافر ، وان من الحمق الانتقال من كونتسوفو الى موسكو ، ومن موسكو الى تساريتسينو ، ومن تساريتسينو مرة اخرى الى موسكو ، ومن موسكو مرة اخرى الى كونتسوفو . واضاف اخيراً : ليثبتوا لي اولاً ان هذه النقطة من الكرة الارضية اكثر بهجة من تلك فسأسافر . بالطبع ، ما كان في وسع احدهم ان يثبت له ذلك . فقد كانت آنا فاسيليفنا مستعدة لالغاء partie de plaisir بسبب افتقارها الى مرافق معتبر ، ولكنها تذكرت اوفار ايفانوفيتش ، ومن شدة الضيق ارسلت مَنْ يطلبه في غرفته ، قائلة : «الغريق يتشبث بالقشة» . واوقظ اوفار

---

* نزهة مُبهجة (بالفرنسية في الاصل) .

ايفانوفيتش من نومه ، فنزل الى الاسفل ، واستمع الى عرض آنا فاسيليفنا صامتاً ، وحرك اصابعه قليلاً ، ووافق ، وسط دهشة الجميع . قبلته آنا فاسيليفنا من خده ، وقالت له انه لطيف جداً . ابتسم نيقولاي ارتيميفيتش بازدراء ، وقال : «Quelle bourde»* . (وكان عند سنوح الفرصة يحب ان يستعمل الكلمات الفرنسية «الانيقة») . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي خرجت من فناء منزل آل ستاخوف المركبة والعربة المستأجرة محملتين الى فوق . وفي المركبة جلست السيدات وخادمة وبيرسينيف ، وجلس اينساروف الى جانب الحوذي ، بينما جلس في العربة المستأجرة اوفار ايفانوفيتش وشوبين . وكان اوفار ايفانوفيتش نفسه قد دعا شوبين باشارة من اصبعه ، وكان يعرف ان شوبين سيناكده اثناء الطريق ، الا ان «قوة الارض السوداء» والفنان الشاب كانا مشدودين برابطة غريبة وصراحة مناكفة . وعلى اية حال ، لم يتحرش شوبين بصديقه البدين هذه المرة ، وتركه بسلام . فقد كان ميالاً الى الصمت شارد الفكر ، ناعماً .

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء اللازوردية الصافية ، حين كانت العربتان تدنوان من اطلال قلعة تساريتسينو ، الكئيبة الجهماء حتى في الظهيرة . نزل جمع المسافرين بكليته الى العشب ، وسار ، في الحال ، الى الحديقة . كانت يلينا وزويا واينساروف في المقدمة ، وسارت آنا فاسيليفنا وراءهم وعلى وجهها سيماء السعادة التامة ، متأبطة ذراع اوفار ايفانوفيتش . وكان هذا يلهث ويسير متثاقلاً وقبعة القش الجديدة تنغرز في جبينه ، وقدماه تتلظيان في الحذاء الطويل الرقبة ، ولكنه كان يحس بمتعة ايضاً . وكان شوبين وبيرسينيف آخر الموكب . همس شوبين لبيرسينيف : «سنكون ، يا أخ ، في الاحتياط كقدامى المحاربين» ثم اضاف ، وهو يشير بحاجبيه الى يلينا : «هناك بلغاريا الآن» .

كان الطقس رائعاً ، وكل شيء حولهم يزهر ويطن ويشدو . ومن بعيد كانت مياه الغدران تتلألأ ، والنفس يغمرها احساس وضاء بالحبور . وكانت آنا فاسيليفنا لا تفتأ تردد «آه ، ما الطف ذلك ، ما الطفه !» ، وكان اوفار ايفانوفيتش يهز رأسه بتأييد ،

---

* اية سخافة (بالفرنسية في الاصل) .

وهو يرد على تعجبها المتهلل ، بل ونبس ذات مرة : «مـــن غير كلام!» . وكانت يلينا تتبادل مع اينساروف الكلمات من حين لآخر . وكانت زويا تمسك حافة قبعتها العريضة باصبعين ، وتحرك ، بغنج ، من تحت ثوبها الوردي الشفاف ، قدميها الصغيرتين في حذاء رمادي فاتح مدوّر البوز ، وتنظر تارة الى الجنب ، وتارة الى الخلف . هتف شوبين فجأة بصوت خفيض : «اها ! زويا نيكيتيشنا تلتفت كما يبدو . فلاذهب انا اليها . يلينا نيقولايفنا تزدريني الآن ، وتحترمك انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، والامر سيّان ، لاذهب . كفاي فتوراً . اما انت يا صديقي ، فأنصحك بأن تدرس النباتات ، فذلك في وضعك احسن ما تستطيع ان تفكر فيه . فهو نافع من الناحية العلمية ايضاً . مع السلامة !» واسرع شوبين نحو زويا ، وقدّم لها ذراعاً معكوفة قائلاً : * « Ihre Hand, Madame » وامسكها ، وانطلق معها الى الامـام . توقفــت يلينا ، ونادت بيرسينيف ، وتأبطت ذراعه ايضاً ، ولكنها استمرت في حديثهـا مع اينساروف . كانت تسأله ما ذا تسمى في لغته زنبقة الوادي ، والقيقب ، والبلوط ، والزيزفون . . .(وكان اندريه بيتروفيتش المسكين يقول في سره : «بلغاريا !») .

وفجأة صدرت صيحة من الامام . رفع الجميع رؤوسهم . طارت علبة سيكائر شوبين ووقعت في أجمة ، بعد ان قذفتها يد زويا . صاح : «انتظري ، وساحاسبك على هذا !» . وانسل الى الأجمة ، وعثر فيها على علبة السيكائر ، وعاد الى زويا . ولكن ما كاد يقترب منها حتى طارت علبة السيكائر مرة اخرى عبر الطريق . وتكررت هذه المزحة حوالى خمس مرات ، فكان يضحك في كل مرة ، ويهدد ، اما زويا فكانت تبتسم في سرها ، وتتكور كالقطة . واخيراً قبض على اصابعها ، وعصرها عصراً جعلها توصوص ، وتنفخ على يدها وقتاً طويلاً ، بعد ذلك ، وتتظاهر بالزعل ، بينما كان يسر هو في اذنها شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا الى اوفار ايفانوفيتش بمرح :

– مشاكسون ، الشباب .

فلاعب هذا اصابعه .

---

* اعطيني يدك ، يا سيدة (بالالمانية في الاصل) .

5*

وقال بيرسينيف ليلينا :

– هل ترين ما تفعل زويا نيكيتيشنا ؟

فردت عليه :

–وشوبين ؟

وخلال ذلك وصل الجمع كله الى تعريشة الحسناء ميلوفيدوفا ، وتوقف ليستمتع بمنظر بُرك تساريتسينو . وكانت تمتد عدة فرستات واحدة بعد الآخرى ، ومن ورائها كانت الغابات الكثيفة تبدو سوداء . وكان العشب البارض الذي يكسو منحدر التل كله حتى البركة الرئيسية يضفي على الماء لوناً زمردياً يانعاً على نحو فذ . وما من موجة تسري حتى عند الشاطىء ، وما من زبد ، بل ولا رقرقة تدب في سطح الماء الصقيل . وبدا وكأن كتلة زجاج متجمدة قد استقرت في جرن ضخم ثقيلة وضاءة ، وغطست السماء فيها الى القعر ، وراحت الاشجار الفرعاء تحدق ساكنة في اعماقها الشفافة . ظل الجميع يمتعون ابصارهم في المنظر بصمت ولوقت طويل ، وحتى شوبين هدأ ، وزويا غرقت في سهوم . واخيراً رغب الجميع بالاجماع في ركوب متن الماء . ركض شوبين واينساروف وبيرسينيف متسابقين على العشب الى الاسفل . وعثروا على قارب كبير مصبوغ ، ووجدوا مجذّفين ، ودعوا السيدات . نزلت السيدات اليهم . وهبط اوفار ايفانوفيتش خلفهن بحذر . وبينما كان ينزل الى القارب ، ويتخذ مكانه فيه ارتفع ضحك كثير . قال احد المجذفين ، وهو شاب افطس في قميص قطني احمر مخطط : «حذار ، يا سيد ، ان تغرقنا» فرد اوفار ايفانوفيتش : «هس ، هس ، يا عربيد !» . وتحرك القارب . وتناول الشباب المجاذيف ، ولكن اينساروف وحده كان يحسن التجذيف . اقترح شوبين ان يغنوا جميعاً اغنية روسية ، وشرع هو يغني : «بانحدار الفولغا الام . . .» ، وانضم اليه بيرسينيف وزويا ، وحتى آنا فاسيليفنا (كان اينساروف لا يحسن الغناء) ولكن الاصوات تنافرت ، وتشربك المغنون في البيت الثالث من الاغنية ، وبيرسينيف وحده حاول ان يمضي بالاغنية بصوته الواطئ : «لا شيء يرى في الامواج» ولكنه سرعان ما ارتبك هو الآخر . وتغامز المجذفان ، وكشرا عن اسنانهما بصمت . قال لهم شوبين : «ها ؟ الظاهر ان السادة لا يعرفون كيف يغنون ؟» اكتفى الشاب ذو القميص الاحمر المخطط

بهزرأسه . قال شوبين : «على مهلك ، اذن ، يا افطس . ستريك ، يا زويا نيكيتشنا ، غني لنا : « Le lac » لنيدرمير (٢٠) . اتركوا التجذيف !» ارتفعت المجاذيف المبللة في الهواء ، كالاجنحة ، وجمدت في مكانها ، تقطر قطرات ترن في سقوطها في الماء . انساب القارب قليلاً ، ثم وقف ، ودار قليلاً في الماء كالبجعة . تمنّعت زويا ، فقالت آنا فاسيليفنا بلطف : * « Allons ! » . خلعت زويا قبعتها ، وغنت : « O lac! l'année à peine a fini sa carrière. . . » * *

وانطلق صوتها الصافي ، وان كان ضعيفاً ، منداحاً على مرآة البركة . وكانت كل كلمة ترجع صدى بعيداً في الغابات ، حيث كان ثمة مَنْ يغني بصوت صداح وغامض ، ولكنه لاانساني ولا يمت بصلة الى المكان . وحين فرغت زويا من الغناء ترددت «برافو» عالية من احدى التعريشات على الشاطىء ، وطلع منها بعض الالمان الحمر الوجوه الذين جاءوا الى تساريتسينو للهو والسمر . وكان بعضهم قد خلعوا سترهم واربطة العنق ، وحتى الصدارات ، وظلوا يصيحون « bis ! » بالحاف ، حتى ان آنا فاسيليفنا امرت بالتحول الى طرف البركة الآخر باسرع وقت . ولكن قبل ان يرسو القارب الى الشاطىء لحق اوفار ايفانوفيتش ان يدهش اصحابه مرة اخرى . فقد لاحظ ان الصدى في مكان معين من الغابة كان يرجع كل كلمة بوضوح مميز ، فراح فجأة يصيح بصوت السمّان . في بادىء الامر جفل الجميع ، ولكنهم شعروا على الفور بارتياح حقيقي ، لاسيما وان اوفار ايفانوفيتش كان يصيح بمهارة شديدة وشبه كبير بالسمان . وقد شجعه هذا الامر ، فحاول ان يموء كما تموء القطة ، ولكن مواءه لم يكن موفقاً كثيراً . فأطلق صياح السمان ، ونظر الى الجميع وصمت . اندفع شوبين يقبله فدفعه عنه . وفي تلك اللحظة رسا القارب ، وهبط الجميع الى الشاطىء .

وخلال ذلك كان الحوذي والخادم والخادمة قد جلبوا السلال من المركبة ، واعدوا الغداء على العشب ، تحت اشجار الزيزفون المعمرة . وجلس الجميع متحلقين حول الخوان المفروش على العشب ، وشرعوا يأكلون معجون الطيور والاطايب الاخرى . وكانت شهية

* هيا ! (بالفرنسية في الاصل) .

* * ايه ، ايتها البحيرة ! ما كاد العام يقطع شوطه (بالفرنسية في الاصل) .

الجميع ممتازة ، وكانت آنا فاسيليفنا من حين لآخر ترجو ضيوفهـا ان يتذوقوا الاطعمة ، وتحثهم على ان يأكلوا اكثر ، مؤكدة ان الاكل في الهواء الطلق صحة وعافية . وكانت تتوجه بمثل هذه الجمل الى اوفار ايفانوفيتش ، فكان هذا يتمتم من فم مملوء : «كوني مطمئنة» . وكانت هي تؤكد باستمرار : «حمداً للرب على هذا اليوم الرائع !» وقد تغيرت كثيراً ، فكأنها ارتدت الى الشباب عشرين عاماً . ذكر بيرسينيف ذلك لها فقالت : «نعم ، نعم . كنت في زماني مبرّزة ، اذا عدت عشر من النساء كنت واحدة منهن» . وانضم شوبين الى زويا ، وراح يصب لها النبيذ دون انقطاع ، فكانت ترفض ، فيلح في استضافتها ، حتى انتهى به الامر الى ان يشرب هو القدح كله ، ثم عاد يستضيفها من جديد . كما كان يؤكد لها انه يود ان يسند رأسه الى ركبتيها ، ولم ترد هي ان تبيح لـه «مثل هذه الفلتة الكبيرة» . وكانت يلينا اكثر الجميع جدية ، ولكن قلبها كان تغمره سكينة عجيبة لم تذقها منذ زمان . وكانت تشعـر بأنها طيبة الى ما لا حد له ، فتود ان يرافقها بيرسينيف ايضاً ، لا اينساروف وحده . . . وكان اندريه بيتروفيتش يدرك على نحو مبهم ما معنى ذلك ، ويرسل الزفرات خلسة .

انقضت الساعات سراعاً ، واقترب المساء . وفجأة لاح القلق على آنا فاسيليفنا ، فقالت : «آه ، يا ربي ، الوقت متأخر . أكلتم وشربتم ، يا سادة . والآن حان وقت الانصراف» . واستعجلت ، واستعجل الجميع معها ، ونهضوا ، وساروا باتجاه القلعة ، حيث تقف العربتان . ولما مروا بالبرك وقفوا جميعاً ليمتعوا انظارهم في تساريتسينو للمرة الاخيرة . كانت الوان ما قبيل المساء تتوهج ساطعة في كل مكان . توردت السماء ، والتمعت اوراق الشجـر متماوجة الالوان ، مستثارة بهبوب النسيم . وكانت المياه البعيدة تشع كالذهب المذاب . وكانت الابراج الضاربة الى الحمـرة والتعريشات المتناثرة في الحديقة تبرز حادة المعالم من بين خضرة الاشجار القاتمة . قالت آنا فاسيليفنا : «وداعاً ، يا تساريتسينو ، لن ننسى ابداً رحلة اليوم !» وفي تلك اللحظة وقع حادث غريب ليس من السهل نسيانه بالفعل ، وكأن في حدوثه تأكيداً على قولها .

وهذا ما حدث : ما كادت آنا فاسيليفنا ترسل تحية الوداع الى تساريتسينو حتى ترددت فجأة ، من وراء أجمة ليلق عالية ، على

بعد عدة خطوات منها ، هتافات وضحكات ، وصيحات متنافرة ، وطلعت الى الدرب عصبة من الرجال الشُعث ، هم نفس هواة الغناء الذين صفقوا لزويا بحماس . وكان السادة الهواة هؤلاء في سكر شديد . توقفوا عند مرأى السيدات ، الا ان احدهم ، وهو مديد القامة ذو رقبة كرقبة الثور ، وعينين حمراوين كعينيي الثور ايضاً ، انفصل عن رفاقه ، وتقدم من آنا فاسيليفنا التي سمّرها الفزع ، منحنياً بحركة خرقاء ، متمايلاً في مشيته . وقال بصوت اجش :

— بونجور ، مدام . كيف صحتك ؟

تراجعت آنا فاسيليفنا قليلاً ؛ فمضى العملاق يقول بلغة روسية ركيكة :

— لماذا لم تريدي ان تعيدي الغناء ، عندما كانت جماعتنا تصيح « bis ! » وبرافو وفورو ؟

فترددت اصوات من جماعته :

— نعم ، نعم ، لماذا ؟

تقدم اينسااروف الى الامام ، الا ان شوبين اوقفه ، وحجب بنفسه آنا فاسيليفنا قائلاً :

— اسمح لي ، ايها الغريب المحترم ، ان اعرب لك عن الدهشة الصادقة التي تثيرها تصرفاتك فينا جميعاً . انت ، بقدر ما يسعفني حكمي ، من الفرع الساكسوني لقبيلة القفقاس ، وبالتالي نفترض فيك الاطلاع على آداب السلوك الراقية ، بينما انت تتكلم مع سيدة ليست لك معها سابق معرفة . تأكد انني في ظرف غير هذا الظرف سأكون بشكل خاص مسروراً جداً للتعرف عليك ، لانني الحظ فيك تطوراً جباراً في عضلات biceps, triceps, deltoïdeus، مما ساعتبره شرفاً حقيقياً لي ، كنحات ، ان اتخذك موديلاً . ولكن في هذه المرة اتركنا وشأننا .

اصغى «الغريب المحترم» الى خطبة شوبين كلها مميلاً رأسه جانباً بازدراء ، متخوصراً بيديه . واخيراً قال :

— انا يعرف لا شيء مما يقول انت . ربما انت يحسب انا اسكافاً او اوسطه ساعات ؟ اي ! انا ضابط ، انا موظف نعم .

قال شوبين :

— انا لا اشك في ذلك .

— الذي اقوله — مضى الغريب يقول مزيحاً اياه بيده الجبارة

كما يُزاح غصن من الطريق – اقول لماذا لم تغن bis ، لما صحنا bis ؟ والآن سانصرف في هذه اللحظـــة لو ان هذه الفراولاين ، وليست تلك المدام ، لا حاجة لي بها ، لو ان هذه او تلك (واشار الى يلينا والى زويا) اعطتني einen Kuss ، كما تقول بالالمانية ، بوسه . نعم . ها ؟ هذا لا شيء .

وترددت اصوات في صفوف الجمع مرة اخرى :

– لا شيء ، einen Kuss ، هذا لا شيء .

قال الماني مغرور للغاية مختنقاً بضحكته :

– * Ach! Der Sakramenter!

امسكت زويا بيد اينساروف ، الا انه انفلت منها ، وصار امام العملاق الوقح وجهاً لوجه . وقال له بصوت حاد وان لم يكن عالياً :

– تفضل ، انصرف .

قهقه الالماني بثقل .

– كيف انصرف ؟ انا احب هذه ايضاً ! يعني لا استطيع انا ايضاً ان اتنزه ؟ كيف انصرف ؟ ولماذا انصرف ؟

– لانك تجاسرت على ازعاج سيدة – قال اينساروف ، وشحب لونه فجأة – لانك سكران .

– كيف ؟ انـــا سكـران ؟ سامعـــون ؟ ,Hören Sie das ** Herr Provisor? انا ضابط ، وهو يجسر . . . الآن اطالب ***Satisfaction! Einen Kuss will ich!

قال اينساروف :

– لو خطوت خطوة اخرى . . .

– طيب ؟ ماذا سيكون ؟

– ساقذفك في الماء .

– في الماء ؟ **** Herr Je!! وفقط ؟ طيب ، لنر ، هذا طريف جداً ، كيف هذا في الماء . . .

ورفع السيد الضابط ذراعيه ، وتقدم الى الامام . ولكن شيئاً

---

* آه ، الملعون (بالالمانية في الاصل) .

** هل تسمع هذا ، ايها السيد الصيدلي ؟ (بالالمانية في الاصل) .

*** تعويضا ! اريد قبلة (بالالمانية في الاصل) .

**** ايها السيد المسيح (بالالمانية في الاصل) .

غير اعتيادي حصل فجأة . تآوه ، وترنح جسده الضخم كله ، وارتفع عن الارض ، ورفست رجلاه في الهواء ، وقبل ان تلحق السيدات على الصياح ، وقبل ان يعي احد كيف حصل ذلك انقذف السيد الضابط في البركة بكل جرمه مثيراً رشاشاً ثقيلاً ، واختفى في الحال ، تحت الماء الجياش .

زعقت السيدات في صوت واحد :

— آي !

وتردد من الجانب الآخر :

— Mein Gott! *

وانقضت دقيقة . . . وظهر من تحت الماء رأس مدوّر وشعره المبلل ملتصق به ، والفقاعات خارجة منه . وتخبطت ذراعان بارتعاص قرب الشفتين تماماً . . .

صاحت آنا فاسيليفنا باينساروف :

— انه يغرق ، انقذه ، انقذه !

وكان اينساروف يقف على الشاطئ منفرج الساقين ، ثقيل الانفاس . فقال بلامبالاة قاسية ومزدرية :

— سيخرج سباحة — ثم اضاف ، وهو يمسك بيد آنا فاسيليفنا — لنذهب ، لنذهب ، يا اوفار ايفانوفيتش ، يلينا نيقولايفنا .

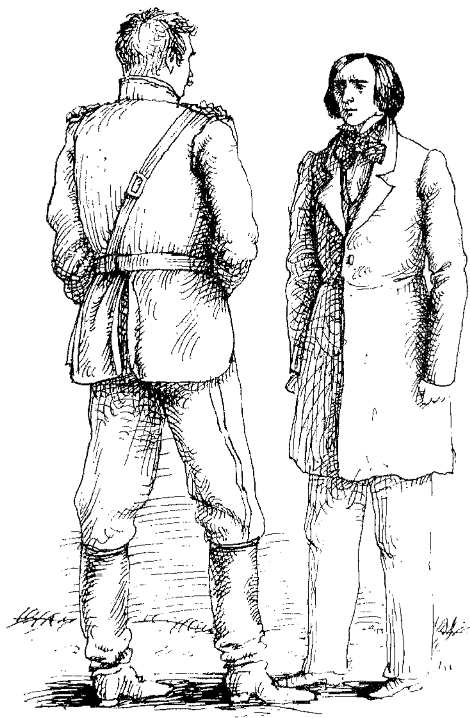
وفي تلك اللحظة صدرت صيحة :

— أ . . آ . . . أو . . أو . . .

رددها ذلك الالماني التعيس ، وقد استطاع ان يتشبث بقصب قرب الشاطئ .

وسار الجميع في اثر اينساروف ، وكان على الجميع ان يمروا بـ«الجماعة» ذاتها ، وقد خسرت رئيسها ، فهدأت ولم تنبس بكلمة ، سوى ان احد افرادها ، وهو اكثر جرأة ، تمتم ، وهو يهز رأسه : «أوه ، هذا . . على اية حال . . . الله يعلم ماذا . . . بعد هذا» . بل ان آخر رفع قبعته . لقد بدا اينساروف لهم رهيباً جداً ، وعن صدق فقد ارتسم على وجهه شيء منذر ، شيء خطير . هرع الالمان ليخرجوا رفيقهم ، وما كاد هذا يقف على ارض صلبة حتى أخذ يشتم

* يا الهي (بالالمانية في الاصل) .



بعَبْرة ، ويصرخ في اثر هؤلاء «المحتالين الروس» بأنه سيرفع شكوى ، وسيذهب الى سيادة الكونت فون-كيزيرتس نفسه . . .

الا ان «المحتالين الروس» لم يعيروا لصياحاته التفاتاً ، وساروا نحو القلعة باسرع ما يستطيعون . التزم الجميع الصمت ، حين كانوا يسيرون في الحديقة ، الا ان آنا فاسيليفنا كانت تتأوه بخفوت . ولكنهم ما كادوا يقتربون من العربتين ، وتوقفوا ، حتى ارتفع منهم ضحك متواصل لا يكبح ، مثل ضحك الآلهة لدى هوميروس (٢١) . في البداية انفجر شوبين في ضحك موصوص ، كالمجنونْ ، وتبعه بيرسينيف ، في ضحك مكركر ، ثم لحقته زويا في ضحك ناعم ، وانفجرت آنا فاسيليفنا هي الاخرى فجأة ، وحتى يلينا لم تستطع ان تكبح بسمتها وتلاشت مقاومة اينساروف اخيراً ، فضحك . ولكن اوفار ايفانوفيتش كان اعلاهم ضحكاً وأطولهم فيه ، واكثرهم حماساً . ضحك حتى وخزته خاصرته ، وسعَل ، واختنقت انفاسه . وكان يهدأ قليلاً ، ليقول والدموع في عينيه : «فكرت . . . ما هذا . . . يلبط ؟ . . فهذا . . . هو . . . مبطوح . . .» وكانت الكلمة الاخيرة المرعوصة تكتمها نوبةُ ضحك اخرى تهز كيانه كله . وكانت زويا تحضه اكثر قائلة : «رأيته . . . رجلاه في الهواء . . .» فيقول اوفار ايفانوفيتش : «نعم ، نعم ، رجلان ، رجلان . . . وبمب ! فهذا هو . . . مبطوح ! . .» — فتسأل زويا : «وكيف تحايل عليه . . والالماني اكبر منه بثلاث مرات ؟» فيقول اوفار ايفانوفيتش ، وهو يمسح الدموع من عينيه : «ساقول لك . رأيت بعيني . طوّقه بيد ، ووضع قدماً امامــــه فتشقلب ! سمعت الصوت . ما هذا ؟ . . فاذا هو مبطوح . . .»

ولم يهدأ اوفار ايفانوفيتش حتى بعد ان تحركت العربتان ، واختفت قلعة تساريتسينو عن الانظار . وكان شوبين يجلس معه في طريق العودة ايضاً ، فأخذ يعيب عليه ليسكت .

وكان اينساروف يشعر بالخجل . كان يجلس في المركبة قبالة يلينا لائذاً بالصمت (كان بيرسينيف يجلس الى جانب الحوذي) وكانت يلينا صامتة ايضاً . كان اينساروف يفكر في أنها تدينه ، ولم تكن هي تدينه . كانت قد فزعت فزعاً شديداً في الوهلة الاولى ، ثم اذهلها التعبير الذي كان مرتسماً على وجهه ، وبعد ذلك ظلت تفكر . ولم يكن واضحاً لها تماماً ما كانت تفكر فيه . لقد اختفي

الشعور الذي كانت تحس به خلال النهار ، وكانت تعي ذلك ، الا ان شعوراً آخر لم تكن تفهمه بعد قد حل محله . لقد استمرت partie de plaisir وقتاً اطول من اللازم ، وتحول المساء الى ليل دون ان يلحظ . وكانت المركبة تنطلق مسرعة خلال حقول محاصيل ناضجة ، حيث الهواء كثيف وأَرِج ، وفواح برائحة الخبز ، ثم خلال مروج واسعة تمر نداوتها المفاجئة على الوجوه مثل مُويجة خفيفة . وكانت السماء تبدو داخنة في حوافيها . واخيراً انساب القمر احمر شاحباً . كانت آنا فاسيليفنا تهوم ناعسة ، وزويا تطل برأسها من النافذة ، تتطلع الى الطريق . خطر في بال يلينا اخيراً انها لم تتحدث مع اينساروف منذ اكثر من ساعة . فتوجهت اليه بسؤال بسيط ، فاجابها على الفور بفرح . وسرت في الهواء اصوات مبهمة ، حتى لكأن آلاف الاصوات تتكلم في مكان بعيد : صارت موسكو تقترب مندفعة نحوهم . وتوامضت اضواء الى الامام ، ظلت تكثر وتكثر ، واخيراً صارت احجار الطرق المرصوفة ترن تحت العجلات . استيقظت آنا فاسيليفنا ، وأخذ جميع مَنْ في المركبة يتكلمون ، رغم ان اي واحد منهم لم يستطع ان يلتقط كلمات الحديث ، بسبب القرقعة الشديدة التي كانت ترسلها العربتان واثنان وثلاثون حافراً على الطريق المبلط . وبدا الطريق من موسكو الى كونتسوفو طويلاً ومضجراً . نام الجميع او لاذوا بالصمت ، متكئين برؤوسهم الى زوايا مختلفة .. ويلينا وحدها لم تغمض عينيها . فقد كانت تصوبهما الى شبح اينساروف المعتم . وجثمت الكآبة على شوبين . كانت الريح تهب في عينيه ، وتضايقه ، لفّ رأسه في ياقة معطفه ، وكاد ان ينفجر باكياً . وكان اوفار ايفانوفيتش يشخر في هناءة مترنحاً يميناً وشمالاً . واخيراً توقفت العربتان . اخرج خادمان آنا فاسيليفنا من المركبة . فقد خارت قواها كلياً ، واعلنت ، وهي تودّع المسافرين معها ، انها تكاد تموت اعياء ، صاروا يشكرونها ، بينما ظلت هي تردد «أكاد اموت» . صافحت يلينا (للمرة الاولى) يد اينساروف ، وبقيت جالسة الى النافذة وقتاً طويلاً دون ان تخلع ملابسها . وسنحت لشوبين الفرصة ليهمس لبيرسينيف اثناء خروجه :

– بطل ، بالطبع . يقذف الالمان السكارى في الماء .

– اما انت فلم تقدم حتى على هذا .

ردّ بيرسينيف عليه ، واتجه الى البيت بصحبة اينساروف .

وعندما عاد الصديقان الى بيتهما كان الفجر يتراءى في السماء . والشمس لم تنهض بعد ، وفي الجو شيء من برودة الليل ، والندى الفضي يغطـــي العشب ، والقبّرات الاول تصدح عالياً في الغور الهوائي الغاسق ، حيث نجمة الليل الكبيرة الاخيرة تطل من هناك مثل عين وحيدة .

١٦

كانت يلينا ، بعد وقت قصير ، من تعرفها على اينساروف قد شرعت تكتب يوميات (للمرة الخامسة او السادسة) . وهذه مقتطفات من هذه اليوميات :

. . . **حزيران** . يجلب اندريه بيتروفيتش لي كتباً ، ولكنني لا استطيع قراءتها . وانا اخجل من الاعتراف له بذلك ، ولا ارغب في رد الكتب اليه قائلة اليه كاذبة : لقد قرأتها .. اظن ذلـــك سيكدره . انه يلحظ كل شيء يخصني . يبدو انه متعلق بي جداً . اندريه بيتروفيتش رجل لطيف جداً .

. . . ماذا اريد ؟ ولماذا قلبي مثقل ومنقبض بهذا الشكل ؟ ولماذا انظر الى الطيور العابرة بحسد ؟ يبدو انني اتمنى ان اطير معها ، اطير ، ولا ادري الى اين ، فقط ان اطير بعيداً ، بعيداً ، عن هنا . أوليست هذه رغبة آثمة ؟ ان لي ، هنا ، اماً واباً وعائلة . أولست احبهم ؟ لا ، لست احبهم الحب الذي اهوى . ويرعبني ان اقول ذلك . ولكنه حق . فلعلي آثمة كبيرة ، ولربما لهذا السبب احس بهذه الكآبة ، وافتقر الى سكينة النفس . ان يداً تهبط عليّ ، وتسحقني . وكأنني في سجن ، وجدرانه ستنهار عليّ بين لحظة واخرى . لماذا لا يشعر الآخرون شعوري هذا ؟ ومَنْ سأحب ، اذا كنت باردة الاحساس مع اهلي ؟ يبدو ان ابي على حق ، حين يؤنبني بانني لا احب غير الكلاب والقطط . يجب ان افكر في ذلك . انا قليلة الصلاة ، يجب ان اصلي . . . يبدو انني قادرة على ان احب ، على اية حال !

. . . انا ما ازال اتهيب من السيد اينساروف ، ولا اعرف السبب . لا اظنني صغيرة جداً . انه رجل بسيط وطيب . ووجهه ،

في بعض الاحيان ، رزين جداً . ولعل في ذهنه ما يشغله عنا . وانا اشعر بذلك ، واخجل ، على ما يبدو ، من ان انتزع منه وقته . واندريه بيتروفيتش شيء مختلف . وانا مستعدة لأن اثرثر معه النهار بطوله ، اذا اردت . ولكنه هو الآخر يحدثني دائماً عن اينساروف . وباية تفاصيل مرعبة ! الليلة حلمت به ، والخنجر في يده ، وهو يقول لي : «ساقتلك ، واقتل نفسي» . اية سخافات !

. . . . آه ، لو ان احداً قال لي : هذا ما ينبغي ان تفعليه ! قليل أنْ يكون الانسان خيِّراً . المهم ان يفعل الخير . اجل ، ذلك هو الاساسي في الحياة . ولكن كيف يفعل الخير ؟ آه ، لو كنت استطيع ان امسك بزمام نفسي ! انا لا ادري لماذا افكر في السيد اينساروف ، وبهذه الكثرة . حين يأتي الينا ، ويجلس ، ويصغي بانتباه ، دون ان يبدو عليه تكلف او اجهاد ، احدق فيه ، واحس بارتياح ، ولكن لا شيء آخر . غير انه حين ينصرف اظل اتذكر كل كلماته ، واضيق من نفسي ، بل وانفعل . . . ولا اعرف لماذا . (انه يتكلم الفرنسية بطريقة سيئة ، ولكنه لا يخجل من ذلك ، وهذا ما يعجبني منه .) وعلى العموم انا دائمـــاً افكر كثيراً في الوجوه الجديدة . عندما كنت اتحدث معه تذكرت فجأة ساقينا فاسيلي الذي اخرج عجوزاً مبتور القدمين من كوخ يحترق ، وكاد يُودْي بحياته . وقد نعته ابي بالشاطر ، واعطته امي خمسة روبلات ، بينما اردت انا ان انحني امامه . ان له ايضاً وجهاً بسيطاً ، بل وبليداً ، ثم صار ، بعد ذلك ، سكيراً .

. . . اليوم اعطيت قرشاً لشحاذة . ولكنها قالت لي : لماذا انت حزينة بهذا الشكل ؟ انا لا احدس ان لي مظهراً حزيناً . اظن ان ذلك راجع الى انني وحيدة ، طوال الوقت وحيدة ، مع كل طيبتي ، ومع كل شري . لا احد امد له يدي . لا اريد مَنْ يتقرب اليَّ . . . بل اريد مَنْ يتخاطاني .

. . . لا ادري ماذا بي اليوم . رأسي غائم . انا مستعدة الى ان اركع على ركبتي ، واطلب واستجدي الرأفة . يخيل اليَّ انني أُقتل ، لا اعرف كيف ، ولا مَنْ يقتلني ، واصرخ في سري واختنق . ابكي ، ولا استطيع ان اصمت . . . ياالهي ! ياالهي ! إكبح فيَّ هذه السورات ! فانت وحدك قادر على ذلك . ولا شيء غيرك . لا شيء يستطيع ان يسعفني ، لا حسناتي الصغيرة ، ولا اشغالي ،

لا شيء . ليتني اخرج لاخدم في احد البيوت ، حقاً ، فان ذلك سيخفف مما اقاسي .

ما جدوى الشباب ، ما جدوى ان اعيش ، ولِمَ لي روح ، لِمَ كل هذا ؟

. . . اينساروف ، السيد اينساروف – لا اعرف كيف اسميه – ماضٍ في الاستحواذ على انتباهي . اود لو اعرف ماذا يجري في قلبه . وهو يبدو لي صريحاً جداً ، وميسراً على الفهم ، ومع ذلك لا انفذ الى شيء . احياناً ينظر اليَّ بعينين سابرتين . . . ام ذلك ما اتصوره لا غير ؟ بول لا يزال يناكدني وانا غاضبة عليه . ماذا يريد ؟ انه يعشقني ، ولكنني لست بحاجة الى هذا العشق . وهو يعشق زويا ايضا . انا لست منصفة معه . قال لي يوم امس انني لا استطيع ان اكون غير منصفة الى النصف . . . هذا صحيح . هذا سيئ جداً .

آه ، انا احس بأن الانسان يحتاج الى بلية او شقاء او الى مرض . والا فانه يشمخ .

. . . لماذا حدثني اندريه بيتروفيتش اليوم عن هذين البلغاريين ! يبدو انه تقصَّد ذلك . وما شأني بالسيد اينساروف ؟ انا غاضبة على اندريه بيتروفيتش .

. . . امسك الريشة ، ولا اعرف كيف ابدأ . يالها من مفاجأة حديثه اليوم معي في الحديقة ! كم كان ودوداً وواثقاً ! وكيف حصل هذا بهذه السرعة ! وكأننا صديقان قديمان ، قديمان ، والآن فقط عرف احدهما الآخر . كيف لم استطع ان افهمه حتى الآن ! وما اقربه اليَّ الآن . والشيء المذهل انني الآن صرت اهدأ بكثير . يضحكني انني غضبت يوم امس على اندريه بيتروفيتش ، وعليه ، بل ناديته **السيد اينساروف** . اما اليوم . . . عثرت اخيراً على انسان صادق يمكن الاعتماد عليه . انه لا يكذب ، انه اول انسان التقيه ، لا يكذب . الآخرون جميعاً يكذبون ، كل شيء كذب . يا عزيزي ، اندريه بيتروفيتش ، الطيب لماذا تراني اجور عليك ؟ لا ! ربما اندريه بيتروفيتش اكثر منه علماً ، بل وربما اكثر ذكاء . . . ولكن يبدو امامه صغيراً جداً ، ولست ادري لماذا . وحين يتكلم **ذاك** عن وطنه ينمو وينمو ويكتسي وجهه رونقاً ، وصوته كالفولاذ ، فيبدو لي ، آنذاك ، ان ما من انسان في العالم يمكن ان ينكس بصره امامه . وهو لا يتكلم فقط ، بل هو يعمل وسيعمل . سأكثر من

سؤاله . . . واذا به يستدير اليّ ، ويبتسم لي ! . . الاخوة فقط يبتسمون بهذا الشكل . آه ، كم انا راضية ! عندما جاءنا في المرة الاولى لم اكن اتصور قط ان احدنا سيقترب من الآخر بمثل هذه السرعة . بل يعجبني الآن انني بقيت في المرة الاولى غير مبالية . . . غير مبالية ! وهل معقول انني مبالية الآن ؟

. . . منذ زمان لم اشعر بمثل هذه السكينة . هادئة نفسي ، هادئة جداً . وليس لي ما ادوّنه . غالباً ما اراه ، وهذا كل ما في الامر . فماذا ادوّن اكثر ؟

. . . صار بول يعتكف مع نفسه ، وقلّت زيارات اندريه بيتروفيتش . . . مسكين ! يبدو لي أنه . . . على العموم هذا غير ممكن . انا احب التحدث الى اندريه بيتروفيتش . لم يتحدث بكلمة عن نفسه قط ، دائماً عن شيء جدي ونافع . وليس مثل شوبين المتأنق كالفراشة ، ويعجب بقيافته . وهو شيء لا تفعله الفراشات . وشوبين واندريه بيتروفيتش كلاهما ، على اية حال . . . انا اعرف ماذا اريد ان اقول .

. . . **انه** يرتاح لزيارتنا ، ويمكنني ان ارى ذلك . ولكن لماذا ؟ وما وجد فيّ ؟ حقاً ان ذوقينا متشابهان ، وكلانا ، — هو وانا — لا يحب الشعر ، فكلانا ليس عليماً في الفن . ولكنه افضل مني بكثير ! انه هادئ ، وانا في اضطراب دائم . ان له طريقاً ، هدفاً ، وانا الى اين اذهب ؟ اين عشي ؟ انه هادئ ، ولكن كل افكاره تحلق في البعيد . سيأتي وقت ، وسيتركنا الى الابد ، يرحل الى وطنه ، وراء البحر ، هناك . وما في ذلك ؟ مع عون الله ! على اية حال سأكون مسرورة لانني عرفته ، حين كان هنا .

ولماذا هو غير روسي ؟ لا ، ما كان من الممكن ان يكون روسياً .

امي تحبه ، وتقول انه رجل متواضع . امي طيبة ! انها لا تفهمه . وبول صامت ، حدس ان تلميحاته لا تعجبني . ولكنه يغار منه . صبي خبيث ! وهل له حق في ذلك ؟ هل كنت يوماً ما . . .

كل هذه توافه ! ولِمَ يدور كل هذا في ذهني ؟

. . . ولكن من الغريب ، على اية حال ، انني حتى الآن ، وانا في العشرين من العمر لم احب احداً ! يبدو لي ان صفاء قلب

د (ساسميه د ، فان اسمه «دميتري» يعجبني) ان صفاء قلبه بهذا الشكل عائد الى انه وهب نفسه كلها لقضيته ، لامنيته . وما الداعي الى ان يقلق ؟ ان كل مَنْ وهب نفسه كلها . . . كلها . . . كلها لا يضطرب ، ولا يأبه لشيء . لست **انا** التي تريد بل **ذلك** يريد . بالمناسبة ، انا وهو نحب نفس الزهور . اليوم اقتطفت وردة . سقط تويج فرفعه . . . قدمت له وردتي .

حلمت منذ بعض الوقت احلاماً غريبة . فما معنى هذا ؟

. . . د يتردد علينا كثيراً . يوم امس قضى المساء كله عندنا . انه يريد ان يُعلمني اللغة البلغارية ، وانا احس بارتياح معه ، وكأنما بين اهلي ، بل احسن .

. . . الايام تمر سراعاً . . . وانا احس بارتياح ، وخوف لسبب ما ، واريد ان احمد الله ، والعبرات توشك ان تطفر من عيني . آيه ، ايتها الايام الدافئة الوضيئة !

. . . ما زلت احس بانشراح ، كالسابق ، ولكن شيئاً من الحزن ينتابني من حين لآخر . انا سعيدة . هل انا سعيدة ؟

. . . سأظل طويلاً اتذكر رحلة يوم امس . أية انطباعات غريبة ، جديدة ، مخيفة ! عندما رفع ذلك العملاق فجأة ، والقاه في الماء ، كما تلقى كرة ، لم ارتعب . . . ولكن هو الذي ارعبني . رأيت وجهه بعد ذلك منذراً بالشؤم ، يكاد ان يكون فظاً ! كيف عبّر عند ذاك : سيخرج سباحة ! أثّر فيّ هذا جداً . يعني انا لم افهمه . وفيما بعد ، اخذ الجميع يضحكون ، وضحكت انا ايضا ، تألمت له ! شعر بالخجل . هذا ما احسسته . خجل مني . وقد قال لي ذلك ، فيما بعد ، حينما كنا في المركبة ، في الظلام ، حين كنت اتفرس فيه ، واخشاه . اجل ، لا مجال للمزاح معه ، وهو يجيد الدفاع . ولكن لِمَ هذا الغيظ ، هاتان الشفتان المرتعشتان ، هذا السم في العينين ؟ ام لعل هذا لا بد منه ؟ ولا يجوز ان تكون رجلاً ، مناضلاً ، وتظل وديعاً ناعماً في الوقت ذاته ؟ قبل حين قال لي الحياة فظة . وقد كررت هذه الكلمة على اندريه بيتروفيتش ، فلم يتفق مع د . فأيهما على حق ؟ ثم ما أروع ما ابتدأنا به النهار ! وما اهنأني وانا اسير الى جانبه ، ولو نصمت . . . ولكنني مسرورة بما حدث . الظاهر ان هذا ما كان ينبغي .

. . . القلق مرة اخرى . . . لست في حالة صحية جيدة .

. . . خلال هذه الايام كلها لم اكتب شيئاً في هذا الدفتر ، لانني لم اجد في نفسي الرغبة في الكتابة . شعرت بأنني مهما كتبت لن اعبر عما في قلبي . . . ولكن ماذا في قلبي ؟ جرى بينه وبيني حديث طويل كشف لي الكثير . حدثني عن مشاريعه (بالمناسبة انا اعرف الآن سبب الجرح على رقبته . . . يا ربي ! حين رحت افكر بانه قد حكم بالاعدام ، وما كاد ينجو ، وانه قد جرح . . .) . وهو يستشعر بوقوع الحرب ، ويفرح بها ، ومع كل هذا لم أره قط حزيناً بهذا الشكل . . . ما الذي يمكن ان يحزنه هو ؟ عاد بابا من المدينة ، ووجدنا جالسين سوية ، فنظر الينا نظرة غريبة . زارنا اندريه بيتروفيتش ، فلاحظت انه قد نحف كثيراً وشحب لونه . وعاتبني زاعماً انني اعامل شوبين ببرود شديد وباهمال . ولكنني نسيت بول هذا تماماً . اذا رأيته سأحاول ان اصلح ذات البين . لي ما يشغلني عنه الآن ، وعن اي شخص آخر في الدنيا . كان اندريه بيتروفيتش يتكلم معي بشيء من الاسف . فما يعني كل هذا ؟ لِمَ اشعر بالظلام حولي ، وفي داخل نفسي ؟ يبدو لي ان ما يحدث حولي وفي داخلي مُلغز ، وانا احتاج الى العثور على الكلمة المعبرة عنه . . .

. . . لم انم الليل . رأسي يؤلمني . ولِمَ اكتب ؟ اليوم انصرف بسرعة ، وكنت في شوق الى ان اتحدث اليه . . . يبدو وكأنه يتحاشاني . نعم ، انه يتحاشاني .

. . . وجدت الكلمة . غمرني ضوء ! ياالهي ، ارحمني . . . انا عاشقة !

١٧

في نفس اليوم الذي كانت يلينا فيه تسجل تلك الكلمة الفَصْل في يومياتها ، كان اينساروف جالساً في حجرة بيرسينيف ،وكان بيرسينيف يقف امامه والحيرة مرتسمة على وجهه . وكان اينساروف قد ابلغه لتوه عن نيته في الانتقال في اليوم التالي الى موسكو . هتف بيرسينيف :

– رحماك ! الآن سيبدأ اجمل وقت هنا . فما الذي تفعله في موسكو ؟ اي قرار فجائي هذا ! ام لعلك تلقيت خبراً معيناً ؟

قال اينساروف :

– لم اتلق اي خبر . ولكن لا يجوز ان ابقى هنا ، حسب ما ارى .

– ولكن كيف يمكن هذا . . .

قال اينساروف :

– اندريه بيتروفيتش ، اعمل معروفاً ، ولا تلح . ارجوك . انا نفسي يعز عليّ ان افارقك . ولكن لا بد مما ليس منه بد .

تفرس بيرسينيف فيه . ثم قال اخيراً :

– انا اعرف انه لا يمكن اقناعك . يعني قرارك نهائي ؟

– نهائي تماماً .

ردّ اينساروف ، ونهض وانصرف .

ذرع بيرسينيف حجرته ذهاباً ومجيئة ، ثم تناول قبعتـــــه ، وذهب الى آل ستاخوف .

قالت له يلينا حين بقيا وحيدين :

– لديك ما تخبرني به .

– نعم ، وكيف حدست ؟

– هذا لا يهم . قل لي ماذا وراءك ؟

واخبرها بيرسينيف بعزم اينساروف .

شَحُبت يلينا . ونطقت بعسر :

– ماذا يعني هذا ؟

قال بيرسينيف :

– انت تعرفين ان دميتري نيكانوروفيتش لا يحب الكشف عما وراء تصرفاته . ولكنني اعتقد . . . لنجلس ، يلينا نيقولايفنا ، يبدو عليك التوعك . . اظن انني استطيع ان احدس السبب الحقيقي لسفره المفاجئ .

– ما هو السبب الحقيقي ؟

كررت يلينا ، وهي تعصر بقوة يد بيرسينيف في يدها الباردة ، دون ان تلحظ ذلك .

شرع بيرسينيف يقول بابتسامة حزينة :

– وكيف اشرح لك ذلك ؟ يتعيّن عليّ ان اعود الى الربيع

الماضي ، الى الوقت الذي تعرفت باينساروف عن كثب . التقيته ، آنذاك ، في بيت احد اقاربي . وكانت لقريبي هذا ابنة ، مليحة جداً ، وكان يخيّل اليّ ان اينساروف شغوف بها ، وقلت له ذلك . ضحك واجاب بانني مخطئ ، وان قلبه سليم ، وان ذلك لو حصل له فسيرحل على الفور ، لانه لا يرغب في ان يخون قضيته وواجبه من اجل اشباع عاطفة شخصية . وكانت هذه كلماته بالذات وقال : «انا بلغاري ، ولا حاجة بي الى حب روسي . . .»

— طيب . . . وماذا . . . الآن انت . . .

همست يلينا مشيحة رأسها لاارادياً ، كمن يتوقع صفعة ، ولكنها بقيت تمسك بيد بيرسينيف .

قال بيرسينيف :

— اظن — ثم خفض صوته وكرر — اظن ان ما كنت اخمنه من قبل بدون موجب ، قد تحقق الآن .

ندت من يلينا فجأة :

— يعني . . . انت تظن . . . لا تعذبني . . .

اسرع بيرسينيف ليقول :

— اظن ان اينساروف الآن قد احب فتاة روسية ، فعزم على الفرار ، وفاء بعهده .

زادت يلينا من ضغطها على يد بيرسينيف ، وطأطأت رأسها اكثر ، وكأنها تريد ان تخفي عن بصر الغريب حمرة الخجل التي ضرّجت فجأة وجهها وعنقها . قالت :

— انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، طاهر كملاك . ولكن الا يأتي ليودعنا ؟

— نعم ، هذا ما اظن . سيأتي بالتأكيد ، لأنه غير راغب في الرحيل . . .

— قل له ، قل . . .

ولكن هذه الفتاة المسكينة لم تسيطر على مشاعرها في هذه اللحظة ، فقد ترقرقت الدموع في عينيها ، فركضت خارجة من الحجرة .

صار بيرسينيف يفكر ، وهو يعود الى بيته بطيء الخطى : «اذن ، فهي تحبه بهذه الصورة . لم اكن اتوقع ذلك ، لم اكن اتوقع ان ذلك قوي الى هذه الدرجة —ومضى في افكاره — تقول

انني طاهر النفس . فمن يدري اية مشاعر وبواعث دفعتني الى ان اخبر يلينا بكل ذلك ؟ كل شيء الا طهارة النفس ، الا طهارة النفس . بل مجرد الرغبة اللعينة في ان اقتنع بان النصل قد نفذ الى الجرح بالفعل ؟ يجب ان اكون راضياً . احدهما يحب الآخر ، وقد ساعدتهما على ذلك . شوبين يدعوني بـ«الوسيط المقبل بين العلم والجمهور الروسي» . والظاهر ان القدر كتب عليّ منذ الولادة ان اكون وسيطاً . ولكن ماذا لو كنت على خطأ ؟ لا ، لست على خطأ . . .»

وكان اندريه بيتروفيتش يحس بالمرارة . ولم يفكر في قراءة «راومر» .

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي وصل اينساروف الى بيت آل ستاخوف . ومن نكد الطالع ان آنا فاسيليفنا كانت تستضيف في حجرة الجلوس ، في ذلك الوقت ، جارة ، زوجة قس ، وهي امرأة طيبة ومحترمة ، ولكن مشكلة صغيرة كانت قد حصلت لها مع الشرطة ، حين خطر في ذهنها ان تسبح في اوج الحر ، في بركة قرب طريق كان كثيراً ما تسلكه عائلة جنرال ذي شأن . في بادئ الامر كانت يلينا مرتاحة بوجود الضيفة الغريبة ، وقد غاض الدم من وجهها حالما سمعت وقع اقدام اينساروف ، ولكن قلبها تقلّص ، حين فكرت في انه قد ينصرف مودعاً ، دون ان يتكلم معها على انفراد . اما اينساروف فقد بدا مرتبكاً ، وقد تحاشى نظراتها . كانت يلينا تفكر : «معقول انه سيودع الآن ؟» وبالفعل توجه اينساروف نحو آنا فاسيليفنا . اسرعت يلينا بالنهوض ، وانتحت به جانباً ، قرب النافذة . دُهشت زوجة القس ، وحاولت ان تلتفت ، ولكنها كانت مضغوطة جداً ، حتى ان مِشد الوسط كان يصر عند كل حركة . فبقيت جامدة في موضعها . اسرعت يلينا تقول :

– اسمع . انا اعرف لماذا جئت . فقد ابلغني اندريه بيتروفيتش بنيتك ، ولكنني ارجوك ، اتوسل اليك ان لا تودعنا اليوم ، بل تعال غداً في وقت مبكر ، في نحو الحادية عشرة . فانا اريد ان اقول لك كلمتين .

احنى اينساروف رأسه صامتاً .

– لن اؤخرك . . . فهل تعدني ؟

انحنى اينساروف ثانية ، ولكنه لم يقل شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا :

— ليبوتشكا ، تعالي هنا . انظري اية محفظة يدوية رائعة هذه .

قالت زوجة القس :

— طرزتها بيدي .

ابتعدت يلينا عن النافذة .

قضى اينساروف لدى آل ستاخوف ما لا يزيد عن ربع ساعة . كانت يلينا تراقبه خلسة . كان يراوح في مكانه ، ولا يعرف ، على عهده السابق ، الى اين يصوب بصره ، وانصرف على نحو غريب وخطفاً ، وكأنه تلاشى .

انقضى ذلك اليوم ببطء ، بالنسبة ليلينا ، والليل الطويل تراخى اكثر بطئاً . كانت احياناً تجلس على السرير محتضنة ركبتيها بيديها ، واضعة رأسها عليهما ، واحياناً تقترب من النافذة ، ملقية جبينها الحار على زجاجها البارد ، وتظل تفكر وتفكر بنفس الافكار الى حد الاعياء . وكان قلبها يصير كالحجارة تارة او يختفي من صدرها ، فلا تحس به ، ولكن العروق في رأسها كانت تدق متوترة ، وشعرها يلسعها ، وشفتاها تتيبسان . كانت تقول لنفسها : «سيأتي . . . اذ لم يودع أمي . . . وهو لن يخدع . . . هل معقول ان اندريه بيتروفيتش كان صادقاً في قوله ؟ غير ممكن . . . لم يعد بلسانه انه سيأتي . معقول انني فارقته الى الابد ؟» ولم تغب هذه الافكار عن ذهنها ، لم تغب بالضبط ، لم تأت ولم تعد — ظلت تطوف فيها كالضباب دون انقطاع . وفجأة توهج «انه يحبني !» في كيانها كله فحدّقت متفرّسة في الظلمة ، وافترت شفتاها عن ابتسامة سرية لا يراها احد . . . ولكنها هزّت رأسها على الفور ، ورفعت الى علبائها اصابع يديها المعقودة ، ومن جديد طافت الافكار السابقة في رأسها كالضباب . . وقبيل الصباح خلعت ملابسها ، واستلقت على الفراش ، ولكنها لم تستطع ان تغفو . وقعت شعاعات الشمس النارية الاولى في حجرتها ، فهتفت فجأة : «آه ، لو كان يحبني» ، وبسطت ذراعيها دون ان تخجل من الضوء الذي اضاءها . . .

نهضت ، وارتدت ملابسها ، ونزلت الى الاسفل . لم يكن احد في البيت قد استيقظ بعد ، فخرجت الى الحديقة ، ولكنها احست بالرهبة مما حولها من سكون وخضرة ونداوة ، ومن الطيور تصدح

بثقة ، ومن الزهور تتفتح ببهجة . وفكرت : «آه ! لو كان ذلك صحيحاً ، لكنت اسعد من كل عشب ، ولكن هل هذا صحيح ؟» وعادت الى حجرتها ، وأخذت تغيّر ثوبها تزجية للوقت . ولكن كل شيء كان يفلت وينزلق من بين يديها ، وكانت ما تزال جالسة امام مرآة الزينة دون ان تكمل ملابسها ، حين نادوها لتنزل وتشرب الشاي . نزلت . فلاحظت أمها شحوبها ، ولكنها لم تقل سوى : «انت اليوم جذابة جداً» ، والقت نظرة اليها من رأسها حتى اخمص قدميها ، واضافت : «هذا الثوب لائق لك كثيراً فالبسيه دائماً ، كلما اردت ان تثيري اعجاب احد» . لم ترد يلينا بشيء ، وجلست في ركن . وخلال ذلك دقت الساعة معلنة التاسعة ، ما تزال هناك ساعتان حتى تحل الحادية عشرة . اخذت يلينا كتاباً ، ثم انتقلت الى الخياطة ، وبعد ذلك عادت الى الكتاب ، ثم آلت على نفسها بأن تقطع درباً معرشاً واحداً مائة مرة ، وقطعته ، ثم راقبت لوقت طويل كيف تفرش آنا فاسيليفنا الورق في لعبة الصبر * . . . ثم نظرت في الساعة . لم تصل الى العاشرة بعد . . . دخل شوبين الى حجرة الجلوس . حاولت ان تتحدث معه ، واعتذرت له عن شيء هي نفسها لا تعرف ما هو . . . وكانت كل كلمة تنطقها لا تكلفها جهداً ، بل تثير في نفسها حيرة . مال شوبين نحوها ، فتوقعت سخرية . رفعت بصرها فرأت امامها وجهاً حزيناً ودوداً . . . ابتسمت لهذا الوجه . ابتسم شوبين لها ايضاً في صمت ، وخرج بهدوء . ارادت ان توقفه ، ولكنها تريثت ولم تتذكر على الفور لتناديه . واخيراً دقت الحادية عشرة . راحت تنتظر ، وتنتظر ، وتنتظر ، وترهف سمعها . وتعذّر عليها ان تفعل اي شيء ، بل وكفت عن التفكير . وسرت الحيوية في قلبها فصار يدق اقوى فأقوى . والغريب ان الوقت بدا وكأنه يمر اسرع من ذي قبل . مر ربع ساعة ، مر نصف ساعة ، مرت بضع دقائق أخر ، حسب تصورها ، وفجأة ارتعدت يلينا . دقت الساعة لا الثانية عشرة ، بل الواحدة : «لن يأتي ، سيرحل دون ان يودّع . . .» واندفعت هذه الفكرة مع الدم الى رأسها . واحست بان انفاسها تنقطع ، وانها على وشك ان تبكي . . . ركضت الى حجرتها ، وارتمت على الفراش ، ووجهها على ذراعيها المطويتين .

* نوع من لعب الورق . **الناشر** .

استلقت نصف ساعة بلا حراك ، وقد انهمرت الدموع من خلال اصابعها على المخدة . وفجأة ، رفعت جسمها ، وجلست ، فان شيئاً غريباً قد حدث في داخلها . تغير وجهها ، وجفت عيناها الدامعتان تلقائياً ، فاخذتا تلمعان ، وانعقد حاجباها ، وانطبقت شفتاها . مر نصف ساعة آخر . وارهفت يلينا سمعها للمرة الاخيرة ، لعلها تلتقط صوته الأليف .ثم نهضت ، ولبست قبعتها وقفازيها ، والقت العباءة على كتفيها ، وانسلت من البيت دون ان تلحظ ، وسارت بخطى سريعة في الطريق المؤدي الى مسكن بيرسيينيف .

١٨

سارت يلينا مطرقة الرأس ، مصوبة بصرها الى الامام . لم تكن تخاف شيئاً ، ولم تكن تعي شيئاً ، كانت تريد ان ترى اينساروف مرة اخرى . سارت دون ان تفطن الى ان الشمس قد غابت منذ وقت طويل محجوبة بسحب سوداء ثقيلة ، وان عصفات الريح تهدر في الاشجار ، وتنفخ ثوبها ، وان الغبار قد ارتفع فجأة وتطاير اعمدة في الطريق . . . أخذ المطر ينزل بقطرات كبيرة ، وحتى هذا لم تلحظه . ولكن المطر ظل يهطل متزايداً قوياً ، وومض البرق ، وهدر الرعد . توقفت يلينا تنظر فيما حولها . . . ومن حسن حظها انها رأت ، صومعة متداعية مهجورة فوق خرائب بئر غير بعيد عن المكان الذي داهمها الرعد فيه . ركضت اليها ، ودخلت في كنفها الواطئ . انهمر المطر جداول ، وتلبّدت السماء كلها . نظرت يلينا بقنوط اخرس الى الشبكة الكثيفة التي تصنعها قطرات المطر المنهمرة بسرعة . واختفى آخر أمل في الالتقاء باينساروف . دخلت الصومعة عجوز ، ونفضت قطرات المطر عن ثيابها ، وقالت بانحناءة : «احتمي من المطر ، يا عزيزتي» وجلست على نتوء قرب البئر ، وهي تتأوه وتتوجع . دست يلينا يدها في جيبها ، ولحظت العجوز هذه الحركة ، وسرت الحياة في وجهها المتغضن الاصفر الذي كان جميلاً في يوم ما . وقالت : «شكراً لك ايتها المحسنة العزيزة» . لم تجد يلينا محفظة النقود في جيبها ، بينما كانت العجوز قد مدّت يدها . قالت يلينا :

– ليس عندي نقود ، يا جدة . خذي هذا لعله ينفعك في شيء .
واعطتها منديلها . فقالت المتسوّلة :

– اوي ، يا حسنائي . وما نفع منديلك لي ؟ الا اذا اهديته لحفيدتي عندما تتزوج . جازاك الله على طيبتك !

انفجر هزيم رعد . وتمتمت المتسولة :

– ايها السيد ، عيسى المسيح – ورسمت علامة الصليب ثلاثاً . واضافت بعد هُنيهة – يبدو لي انني رأيتك . ربما اعطيتني صدقة ذات مرة ؟

تمعنت يلينا في العجوز ، وعرفتها . اجابت :

– نعم ، يا جدة . قد سألتني : لماذا انا حزينة بهذا الشكل ؟

– نعم ، يا عزيزتي ، نعم . ولذلك عرفتك في الحال . الآن ايضاً يبدو عليك الغم . والمنديل مبلل ، يعني من الدموع . آه ، يا بنات ، كلكن في هم وغم مقيم !

– اي هم ، يا جدة ؟

– اي هم ؟ أوه ، يا ابنتي الطيبة ، لا تتحايلي عليّ ، انا العجوز . انا اعرف لماذا تغتمين . ليس غمك غم اليتيم . عندما كنت شابة ، يا عزيزتي ، ذقت هذه العذابات ايضاً . اجل . وسأقول لك جزاء على احسانك : اذا صادفك رجل طيب ، لا يعبث ، فتمسكي به وتشبثي تشبث الموت . فان حصل هذا حصل ، وان لم يحصل ، فتلك مشيئة الله . اجل . ولكن لماذا تنظرين اليّ مندهشة ؟ انا قارئة فأل . هل تريدين ان آخذ مع منديلك كل بلواك ؟ آخذها ، وينتهي الأمر . ها انت ترين ان المطر قد خفّ . انتظري قليلاً هنا ، اما انا فذاهبة . تعودت على بلل المطر . تذكري ، يا عزيزتي : كان حزن ، وولّى ، وانقضى الآن . يا الهي ، رحمتك !

ورفعت المتسولة جسمها من النتوء ، وخرجت من الصومعة ، وسارت مجرجرة قدميها . نظرت يلينا في اثرها مذهولة ، ووجدت نفسها تهمس لاارادياً : «ما يعني هذا ؟»

صار المطر اخف فأخف ، ولاحت الشمس للحظة . وتهيأت يلينا لتخرج من ملجئها . . . وفجأة رأت اينساروف ، على بعد عشر خطوات من الصومعة . كان يسير ملفعاً بمعطفه في نفس الطريق الذي كانت يلينا تسلكه . كان يبدو في عجالة للوصول الى بيته ،

اسندت يدها على الدرابزين المتداعي عند مدخل الصومعة ، وارادت ان تناديه ، ولكن صوتها خانها . . . مرّ اينساروف بها ، دون ان يرفع بصره . . . .

واخيراً نطقت :

— دميتري نيكانوروفيتش !

توقف اينساروف فجأة ، والتفت . . . في الوهلة الاولى لم يتعرف على يلينا ، الا انه تقدم منها على الفور . وهتف :

— انت ! انت هنا !

تراجعت الى الصومعة صامتة . وتبعها اينساروف . وعاد يقول :

— انت هنا ؟

مضت في صمتها ، سوى انها حدقت فيه تحديقة طويلة ناعمة . غضّ اينساروف بصره . سألته :

— هل انت قادم من بيتنا ؟

— لا ، ليس من بيتكم .

— لا ؟ — كررت يلينا وحاولت ان تبتسم — بهذا الشكل تفي بوعودك ؟ انتظرتك منذ الصباح .

— تذكري ، يلينا نيقولايفنا ، انا لم اعد بشيء يوم امس .

ابتسمت يلينا مرة اخرى ابتسامة باهتة ، ومررت يدها على وجهها . وكان الوجه واليد بنفس الشحوب .

— اذن ، كنت تريد ان ترحل ، دون ان تودعنا ؟

قال اينساروف بصوت صارم فاقد الرنين :

— نعم .

— وكيف ؟ بعد تعارفنا ، بعد تلك الاحاديث ، بعد كل شيء . . . يعني . . . لو لم التق بك هنا مصادفة (اكتسى صوت يلينا رنة ، فتوقفت لحظة) . . . لرحلت ، ولم تصافحني مودعاً آخر وداع وما كنت ستأسف ؟

اشاح اينساروف بوجهه .

— ارجوك ، يلينا نيقولايفنا ، لا تتحدثي بهذا الشكل . فانا مغموم حتى بدون ذلك . وتأكدي ان قراري كلفني جهوداً كثيرة . لو كنت تعرفين . . .

قاطعته يلينا بذعر :

— لا اريد ان اعرف السبب في رحيلك . . . الظاهر انه

ضروري . الظاهر ان علينا ان نفترق . وانت ما كنت لتريد ان تكدر اصدقاءك بلا موجب . ولكن أهكذا يفتـــرق الاصدقـــاء ؟ ونحن صديقان . أليس كذلك ؟

قال اينساروف :

– كلا .

– كيف ؟

وضرّجت حمرة خفيفة وجنتي يلينا .

– لهذا السبب بالذات رحلت ، كوننا غير صديقين . ولا تجبريني على ان اقول ما لا اريد ان اقوله ، ولن اقوله .

قالت يلينا بعتاب خفيف :

– من قبل كنت صريحاً معي . هل تذكر ؟

– آنذاك كان في وسعي ان اكون صريحاً ، آنذاك لم يكن هناك ما اخفيه ، والآن . . .

فسألت يلينا :

– والآن ؟

– والآن . . . والآن يجب ان انصرف ، وداعاً .

ولو ان اينساروف ، في تلك اللحظة ، رفع بصره الى يلينا لرأى وجهها يتألق اكثر فاكثر كلما ازداد وجهه جهامة واسوداداً . ولكنه كان يثبت بصره في الارض باصرار . قالت يلينا :

– حسناً ، وداعاً ، يا دميتري نيكانوروفيتش . ولكن ما دمنا قد التقينا فعلى الأقل هات يدك لاصافحها .

هم اينساروف بان يمد يده .

– لا ، لا استطيع ذلك ايضاً .

قال واشاح وجهه ثانية .

– لا تستطيع ؟

– لا استطيع ، وداعاً .

واتجه نحو باب الصومعة . قالت يلينا :

– انتظر قليلاً . يبدو انك تخشاني . ولكنني اشجع منك – اضافت واعترتها رعشة مفاجئة سرت في كل جسدها – استطيع ان اقول لك . . . هل تريد ؟ لماذا وجدتني هنا ؟ أتدري الى اين كنتُ ذاهبة ؟

نظر اينساروف الى يلينا بذهول .

– كنت متجهة اليك .

– الي ؟

غطت يلينا وجهها .

– تريد ان تجبرني على ان اقول : انا احبك – همست يلينا بذلك – طيب . . . ها قد قلت .

هتف اينساروف :

– يلينا !

اسبلت يديها ، ونظرت اليه ، وارتمت على صدره .

عانقها بقوة ، ولم يقل شيئاً . لم يكن بحاجة الى ان يقول لها انه يحبها . فقد كان في وسع يلينا ان تفهم انه يبادلها حباً بحب ، من مجرد ندائه ، من ذلك التحول المفاجئ في كيانه كله ، من لهاث صدره الذي التصقت به مؤتمنة ، ومن لمسات اطراف اصابعه في شعرها . لم يقل شيئاً ، ولم تكن هي بحاجة الى كلمات . «انه الى جانبي ، انه يحبني . . . فماذا اريد اكثر ؟» وشملتها سكينة النعيم ، سكينة المرفأ الآمن ، والغاية المحققة ، تلك السكينة السماوية التي تعطي للموت نفسه معنى وجمالاً ، غمرتها بفيضها الإلهي . ولم تكن في نفسها اية رغبة ، لأنها امتلكت كل شيء . همست شفتاها : «يا اخي ، يا صديقي ، يا حبيبي ! . . » ولم تكن تعرف اي قلب كان يدق ويذوب في صدرها بعذوبة ، قلبه ام قلبها .

وقف بلا حراك ، كان يحيط بذراعيه القويين هذه الحياة الشابة التي اعطته قيادها ، وكان يحس على صدره هذا العبء الجديد العزيز الى ما لا حد له . وقد غشت صلابة روحه عاطفة حنان ، عاطفة امتنان تعز على التعبير ، وقد ترقرقت عيناه بدموع لم يكن له عهد بها من قبل .

اما هي فلم تبكِ ، بل كانت تكرر فقط : «يا صديقي ، يا اخي !»

وبعد ربع ساعة ، وهو ما يزال يطوقها ويسندها بذراعيه كان يقول :

– وكيف ستجوبين * معي كل مكان ؟

* في هذه الجملة تحول اينساروف الى مخاطبتها لاول مرة بضمير الفرد رفعاً للكلفة كما في طريقة المخاطبة الروسية . **المترجم** .

— اقصى الدنيا . سأكون حيث تكون انت .

— ربما تخادعين نفسك في ذلك ، فانت تعرفين ان والديك لن يوافقا على زواجنا ؟

— انا لا اخادع نفسي . انا اعرف ذلك .

— وهل تعرفين انني فقير ، مدقع تقريباً .

— اعرف .

— وانني لست روسياً ، ولا مقسوماً لي ان اعيش في روسيا ، وسيتعيّن عليك ان تقطعي علاقاتك مع وطنك ، ومع اقاربك ؟

— اعرف ، اعرف .

— وهل تعرفين ايضاً انني نذرت نفسي لقضية صعبة لا تَمن على احد ، وانني . . . اننا سنتعرض لا الى المخاطر فقط ، بل والى حرمانات ، ولربما الى اذلال ؟

— اعرف ، اعرف كل شيء . . . احبك .

— وان عليك ان تتخلي عن كل عاداتك ، وانك لربما ستضطرين هناك ، ان تعملي وحيدة ، وسط غرباء . . .

وضعت يدها على فمه .

— احبك ، حبيبي .

اخذ يقبل يدها الضيقة الوردية بحرارة . ولم تبعدها عن شفتيه ، وراحت تنظر اليه بفرح طفولي ، وبفضول ضاحك ، وهو يغطي بالقبلات يدها تارة ، واصابعها تارة اخرى . . .

واحمرت فجأة ، وخبأت وجهها في صدره .

رفع رأسها برقة ، وحدّق في عينيها ، وقال لها :

— اهلاً بك اذن ، زوجة لي امام الناس وامام الرب .

١٩

بعد ساعة كانت يلينا تدخل حجرة الجلوس في البيت الريفي بهدوء ، وقبعتها في يد ، وعباءتها في اليد الاخرى . وقد انحلّ شعرها قليلاً ، وعلت وجنتيها طرة صغيرة من التورد ، والبسمة على شفتيها لا تريم ، وعيناها المنطبقتان نصف انطباقة تبتسمان

ايضاً . كانت تجرجر قدميها تعباً ، وكانت تتلذذ بهذا التعب . كانت تتلذذ بكل شيء . كل شيء كان يبدو لها قريباً الى القلب ، وحنوناً . كان اوفار ايفانوفيتش جالساً عند النافذة ، دنت منه ، ووضعت يدها على كتفه ، وتمطت قليلاً ، وضحكت ضحكة بدت لاارادية .

سألها مندهشاً :

— مم ؟

لم تعرف ماذا تقول . احبت ان تقبل اوفار ايفانوفيتش .

وقالت اخيراً :

— مبطوح . . .

ولكن اوفار ايفانوفيتش لم يحرك ساكناً ، وظل ينظر الى يلينا باندهاش . فرمت عليه العباءة والقبعة ، وقالت :

— يا عزيزي اوفار ايفانوفيتش ، اريد ان انام ، انا متعبة .

وضحكت مرة أخرى ، وانهدت على كرسي وثير بالقرب منه .

— حم — تمتم اوفار ايفانوفيتش ، ولاعب اصابعه — هذا . . . يجب ، نعم . .

وتلفتت يلينا فيما حولها ، وكانت تفكر : «يجب ان افارق كل هذا عن قريب . . . والغريب انني لا اشعر بفزع ولا ريبة ، ولا اسف . . . ولكن لا ، اتأسف على أمي !» ثم تراءت لها الصومعة مرة اخرى ، وتردد صوته في اذنيها مرة اخرى . وكانت تحس بذراعيه تطوقانها . وتململ قلبها في صدرها بفرح وبوهن ايضاً ، كانت السعادة تسترخي عليه . وتذكرت المتسولـــة العجوز . وفكرت : «اخذت معها بلواي حقاً ، آه ، كم انا سعيدة سعادة لا استحقها ابداً ! وتهل بهذه السرعة !» وما كان سيكلفها غير شيء من الحرية لعاطفتها الحبيسة حتى تنهمر من عينيها دموع حلوة لا تجف . كانت تضغط عليها باسترسالها في الضحك الخفيف ، ولا شيء آخر . وكان اي وضع تتخذه يبدو لها افضل واروح من اي وضع آخر . وكأنما كانت تهدهد لتنام . صارت كل حركاتها بطيئـــة وناعمة ، فاين تخلى عنها استعجالها وتثاقلها ؟ دخلت زويا ، فتصورت يلينا بأنها لم تر محيّا افتن من محياها . ودخلت آنا فاسيليفنا ، فاحست بوخزة ، ولكنها عانقت أمها الطيبة برقة بالغة ، وقبلت جبينها عند منبت الشعر ، الشائب قليلاً ! ثم ذهبت الى حجرتها ،



فرأت كل شيء فيها يبتسم لها ! وجلست على سريرها بشعور عميق من الانتصار الخَجل والوداعة ، جلست على نفس السرير الذي كانت قبل ثلاث ساعات قد قضت فيه لحظات شديدة المرارة ! وفكرت : «حتى في تلك الساعة كنت اعرف أنه يحبني . . كنت اعرف من قبل ايضاً . . . آه ، لا ! لا ! هذه خطيئة» . وهمست وركعت على ركبتيها مغطية وجهها بيديها : «انت زوجتي . . .»

ومع حلول المساء صارت اكثر سهوماً واستغراقاً . غشيها الحزن حين اخذت تفكر في انها لن ترى اينساروف عن قريب . لم يكن في امكانه ان يبقى مقيماً مع بيرسينيف دون ان يثير الشكوك . ولهذا اتفق معها على أن يعود الى موسكو ، ويزور آل ستاخوف مرة او مرتين حتى فصل الخريف . ووعدته ، من جانبها ، بأن تراسله ، وأن تعين له موعداً للقاء بجوار كونتسوفو ، اذا سنحت الفرصة . نزلت الى حجرة الجلوس في الساعة المحددة لشرب الشاي ، فرأت جميع اهل البيت هناك ، وشوبين الذي صوّب عليها نظراً حاداً ، ما إن اطلت . فارادت ان تتحدث معه بود ، كما كانت في الماضي ، ولكنها خشيت حدة ذكائه ، خشيت نفسها . بدا لها مقصوداً تغاضيه عنها اكثر من اسبوعين . وبعد قليل وصل بيرسينيف ، ونقل تحيات اينساروف لآنا فاسيليفنا ، مع اعتذاره لعودته الى موسكو ، دون أن يزورها ويودعها . كان اسم اينساروف يذكر لأول مرة هذا اليوم في حضور يلينا ، فاحست بالحمرة تصعد الى وجهها ، كما ادركت في الوقت ذاته ان عليها ان تعرب عن الاسف لهذا الرحيل المفاجئ لرجل طيب من معارفها ، ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها على التصنع ، وبقيت جالسة في صمت وبلا حراك ، بينما راحت آنا فاسيليفنا تتحسر ، وتبدي حزنها . جاهدت يلينا ان تبقى قرب بيرسينيف ، فهي لم تكن تخشاه ، رغم انه كان يعرف جزءاً من سرها ، كانت تلوذ بحماه من شوبين الذي ما يزال يلاحقها بنظرات نفّاذة ، وان لم تكن ساخرة . كما ان الحيرة استولت على بيرسينيف ايضاً ، خلال الامسية ، فقد كان يتوقع ان يرى يلينا اكثر حزناً . ومن حسن حظها أن جدالاً نشأ بينه وبين شوبين عن الفن . تنحت جانباً ، وراحت تسمع صوتيهما ، وكأنها في حلم . وشيئاً فشيئاً صار الحلم يتخطاهما الى الحجرة كلها ، حيث بدت كل الاشياء وكأنها في حلم : السماور على المائدة ، وصدار اوفار ايفانوفيتش القصير ،

وساقا زويا الملساوان ، والصورة المرسومة بالزيت للامير الكبير قسطنطين بافلوفيتش والمعلقة على الحائط . تغوّر كل شيء ، وتغطى بغشاء دخاني ، ولم يعد له وجود . سوى أنها كانت تشفق عليهم جميعاً ، وتقول لنفسها : «من اجل اي شيء يعيشون ؟»

سألتها أمها :

— هل انت نَعْسى ، يا لينوتشكا ؟

ولم تسمع سؤال أمها .

— هل تقصد تلميحاً نصف عادل ؟ — نفذت هذه الكلمات التي نطقها شوبين بحدة الى وعي يلينا فجأة فانتبهت . ومضى شوبين يقول — في هذا بالذات تكمن النكهة . التلميح العادل يثير الجزع ، وهو مناف للروح المسيحية . والانسان لا يعبأ بالتلميح غير العادل . فهذه حماقة . ولكنه يشعر نحو التلميح نصف العادل بالانزعاج ونفاد الصبر . فمثلاً لو قلت : ان يلينا نيقولايفنا تعشق احدنا ، فاي نوع من التلميح سيكون هذا ؟ ها ؟

قالت يلينا :

— آه ، مسيو بول . وددت لو اظهر لك انزعاجي ، ولكنني متعبة جداً ، فلا اقدر حقاً .

— ولماذا لا ترقدين ؟ — قالت آنا فاسيليفنا التي كانت تنعس دائماً في المساء ، ولهذا تحب ان تبعث الآخرين الى مضاجعهم — قبليني قبلة المساء ، واذهبي والله معك . اندريه بيتروفيتش سيعذرك .

قبلت يلينا أمها ، وانحنت للجميع ، وانصرفت . صاحبها شوبين الى الباب . وهمس لها عند العتبة :

— يلينا نيقولايفنا ، انت تدوسين مسيو بول وتمشين عليه بلا شفقة . بينما مسيو بول يعبدك ، ويعبد قدميك والحذاء الذي تلبسين ، ونعل الحذاء .

هزت يلينا كتفيها ، ومدت له يدها على مضض — ليست تلك التي قبلها اينساروف — وعادت الى حجرتها فطفقت تخلع ثيابها على الفور ، واستلقت ، وغفت . نامت نوماً عميقاً هادئاً . . . لا ينامه حتى الاطفال ، لا ينامه غير الطفل الناقه ، حين تجلس امه عند مهده ، تنظر اليه ، وتنصت الى انفاسه .

قال شوبين لبيرسينيف حالما تو ادع الاخير مع آنا فاسيليفنا :

– تعال الى حجرتي لدقيقة . عندي ما اريد ان اريك اياه .

سار بيرسينيف معه الى ملحق البيت . بهره العديد الكبير من التخطيطات ، والتماثيل الصغيرة ، والنصفية التي كانت مغطاة بخرق مبللة ، وموضوعة في كل اركان الحجرة .

قال له بيرسينيف :

– ارى انك تعمل بهمة .

فأجاب هذا :

– يجب ان اعمل شيئاً . اذا فشل الانسان في شيء وجب ان يجرب حظه في شيء آخر . وعلى العموم انا كالكورسيكي ، اهتم بثأر الدم اكثر من الفن الخالص * Trema Bisanzia! (٢٢) .

قال بيرسينيف :

– أنا لا افهمك .

– طيب ، انتظر . تفضل انظر ، يا صديقي الكريم والفاضل . هذا ثأري رقم واحد .

وازاح شوبين الغطاء عن احد التماثيل فرأى بيرسينيف تمثالاً نصفياً لاينساروف ممتازاً ومشابهاً له بشكل رائع . وكان شوبين قد التقط ملامح وجهه بصدق ، وبأدق التفاصيل ، واعطى لها مسحة رائعة باستقامتها ونبلها وجرأتها .

وتهلل بيرسينيف بِشْراً ، وهتف :

– هذه هي الروعة بعينها ! تهانيّ . تستحق ان تعرض ! ولماذا تسمي هذه التحفة ثأراً ؟

– لانني ، يا صاحب السيادة ، انوي ان اقدم هذه التحفة ، كما سميتها ، الى يلينا نيقولايفنا في عيد ميلادها . هل تفهم هذه الرموز ؟ لسنا عمياناً ، ونحن نرى ما يجري حولنا ، ولكننا اصحاب شهامة ، يا حضرة المحترم ، ونثأر بشهامة .

ومضى شوبين يقول ، وهو يزيح الغطاء عن تمثال صغير آخر :

– اما هذا ، فما دام الفنان ، حسب احدث الجماليات ، يستخدم

---

* ارتجفي ، يا بيزنطية (بالايطالية في الاصل) .

حقه الذي يحسد عليه في ان يجسد في نفسه كل الحقارات (٢٣) مرتفعاً بها لتكون جوهرة من الابداع ، فاننا في تكويننـــا لهذه الجوهرة ، رقم اثنين ، كنا قد انتقمنا ليس كشهماء على الاطلاق ، بل en canaille * .

ورفع الغطاء بحذق ، ورأى بيرسينيف تمثالاً صغيراً لاينساروف ايضاً منحوتاً على طريقة دانتان تمثل فيه الضغن وحدة البديهة باكثر ما يمكن . فقد صوّر البلغاري الشاب خروفاً واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، مميلاً قرنيه للنطاح . وقد ارتسمت على وجه «زوج الشاء الناعمة الصوف» هذا العظمة البلهاء ، والتوفز ، والعناد ، والرعونة ، والضحالة ، كما كان الشبه مذهلاً لا ريب فيه ، حتى ان بيرسينيف ما كان في وسعه الا ان يضحك .

قال شوبين :

— ماذا ؟ مضحك ؟ عرفت البطل ؟ هل تنصحني بان اعرضه في المعرض ايضاً ؟ وهذا ، يا اخي ، سأهديه لنفسي ، في عيـــد ميلادي . . . فاسمح لي ، يا صاحب السيادة ، ان ارقص طرباً !

وقفز شوبين مرتين او ثلاثـــاً ، ضاربـــاً اياه بالنعـل .

رفع بيرسينيف قطعة الخيش من الارض ، وغطى بها التمثال .

قال شوبين :

— اوه ، ايها الشهم . فاتني منْ كان في التاريخ معروفاً بشهامته على نحو خاص ؟ طيب ، لا يهم ! اما الآن — تابع وكشف بحركـــة استعراضية حزينة عن القطعة الثالثـــة ، وهي كبيرة جداً مـــن الصلصال — امامك شيء يثبت لك تواضع صديقك الحكيم وحدة ذهنه . وستقتنع بأنه ، كفنان اصيل على أية حال ، يشعر بحاجة وفائدة اذلال النفس . انظر !

وارتفعت الستارة ، وابصر بيرسينيف رأسين متقاربين وكأنهما خارجان من رقبة واحدة . . . ولم يدرك حقيقة الأمر رأساً ، ولكنه ، حين امعن النظر ، عرف في احد الرأسين رأس آنوشكا ، وفي الآخر رأس شوبين نفسه . وعلى العموم كان ذلك رسماً كاريكاتورياً اكثر منه صورة شخصية . صوّرت آنوشكا بهيئة فتاة جميلة ممتلئة

---

* كسافل (بالفرنسية في الاصل) .

ذات جبين ضيق ، وعينين منتفختين ، وانف مرفوع بتحد . وكانت شفتاها الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة ساخرة وقحة . وكان وجهها كله يعبر عن الحساسية وخلو البال والاندفاع ، ولا يخلو من طيبة . وصوّر شوبين نفسه متهتكاً منحولاً منهوكاً ، غائر الوجنتين ، خصلات شعره الخفيف متدلية باسترخاء وأنفه مدبب كأنف الميت ، وعيناه المنطفئتان تنطقان بالبلاهة .

اشاح بيرسينيف وجهه باشمئزاز . فقال شوبين :

— ما رأيك في هذا الزوج ، يا اخ ؟ الا تتكرم بوضع تسمية معتبرة لهما ؟ للموضوعين الأولين اهتديت الى تسمية . سأضع تحت التمثال النصفي عبارة : «البطل الناوي انقاذ وطنه» وتحت التمثال الصغير : «احترسوا ، يا صانعي النقانق !» اريد ان اكتب تحت هذه القطعة «مستقبل الفنان بافل ياكوفليف شوبين . . .» ما رأيك ؟ أليس لطيفاً ؟

فرد بيرسينيف قائلاً :

— كفّ عن هذا . أيعقل أنك ضيّعت وقتك على هذه . . .

ولم يعثر فوراً على الكلمة المناسبة .

— القذارة ؟ تريد ان تقول . لا ، يا اخ ، وارجو المعذرة ، اذا كان هناك شيء يستحق ان يعرض فهي هذه المجموعة .

كرر بيرسينيف :

— قذارة بالضبط . ثم ما هذه السخافة ؟ انت لا تملك اطلاقاً ما يمتلكه فنانونا حتى يومنا هذا ، وبوفرة ، لسوء الحظ ، من مقومات لمثل هذا النوع من التطور . مجرد أنك كنت تفتري على نفسك .

قال شوبين بعبوس :

— هذا ما تراه ، اذن ؟ اذا كنت لا امتلكها ، واذا التقحت بها ، فالذنب في ذلك سيعود الى انسانة ما . هل تدري — وقطّب حاجبيه بشكل مأساوي — أنني جربت ان أشرب ؟

— الا تكذب ؟ !

— جربت ، وحق الرب — قال وافترّ عن تكشيرة فجاة ، وتنوّر وجهه — ولكنه غير لذيذ ، يا اخ ، ولا يدخل الى البلعوم ، والرأس بعده يصير كالطبل . ولوتشيخين العظيـــــم نفسه ، خارلامبي لوتشيخين ، الشرّيب الاول في موسكو ، وفي كل روسيا حسب آراء

أخرى ، قال لي : لن تبرز في هذا الميدان . فالزجاجة ، حسب قوله لا توحي اليّ بشيء .

رفع بيرسينيف ذراعه على قطعة ذات الرأسين ، الا ان شوبين اوقفه :

– كفى ، يا اخ ، لا تكسرها ، فستنفع كدرس ، كفزاعة .

ضحك بيرسينيف . وقال :

– في هذه الحال سأشفق على فزاعتك ، على ما اظن . وليعش الفن الخالد الصافي .

فثنى شوبين :

– ليعش ! الشيء الحَسِن معه احسن ، والسيئ لا يضر .

وتصافح الصديقان بقوة ، وافترقا .

٢١

كان الفزع الفرح أول احساس شعرت به يلينـــا ، حين استيقظت . سألت نفسها : «معقول ؟» وجمد قلبها من السعادة . وتدفقت الذكريات عليها . . . فغرقت فيها . ثم اهلَّت عليها ثانية تلك السكينة الهانئة المستبشرة . ولكن القلق اخذ ينتابها شيئاً فشيئاً خلال الصباح ، وفي الايام التالية بدا عليها الفتور والضجر . لقد كانت تعرف الآن ، في الحقيقة ، ما كانت تريد ، ولكن ذلك لم يخفف عنها . فان ذلك اللقاء الذي لا ينسى قد اخرجها الى الأبد عن منوالها القديم ، ولم تعد فيه ، بل كانت بعيدة عنه ، بينمـا كان كل شيء حولها يسير سيره المألوف ، كل شيء على منواله ، وكأن شيئاً لم يتغير . فالحياة السابقة تجري كالسابق ، وتعوّل ، كالسابق ، على مشاركة يلينا ومساهمتها . حاولت ان تبدأ رسالة الى اينساروف ، ولكنها لم توفق حتى في هذا ، فكانت الكلمات تخرج على الورقة اما ميتة ، واما كاذبة . وقد فرغت من يومياتها ، وخطت بعد السطر الاخير فيها خطاً كبيراً . كان ذلك في الماضي ، وقد تحولت الآن الى المستقبل بكل افكارها ، بكل كيانها . وكانت تشعر بضيق . فقد بدا لها جرماً أن تجالس امها التي لا ترتاب في شيء ، وتستمع اليها وتجيبها ، وتتحدث معها . كانت تحس بالكذب يخالط

نفسها . فكانت تحنق ، رغم أنها لم تفعل شيئاً تخجل منه . وانبعثت في نفسها ، اكثر من مرة ، رغبة قاهرة او تكاد في ان تبوح كل شيء دون ان تخفي خافية ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وكانت تفكر : «لماذا لم يأخذني دميتري حينذاك ، من تلك الصومعة ، الى حيث يريد رأساً ؟ ألم يقل لي انني زوجته امام الله . فلماذا انا هنا ؟» وفجأة صارت تتحاشى الجميع ، حتى اوفار ايفانوفيتش . الذي كان اكثر حيرة واكثر لعباً باصابعه من اي وقت مضى . وبدا كل ما يحيط بها فاقداً رقته وعذوبته ، وحتى مشابهته للحلم . فكان كالكابوس يهبط على صدرها كثقل ميت لا يتزحزح ، فكأنما كان يقرعها ، ويسخط عليها ، ولا يريد ان يعرف من أمرها شيئاً . . . كأنه كان يقول انت من بيئتنا ، على اية حال . وحتى صغارها المساكين ، طيورها وحيواناتها المشرّدة كانت تنظر اليها – او هكذا مـــا تصورته ، على اقل تقدير بشيء من الريبة والعداء . وصارت تخجل من مشاعرها . كانت تقول لنفسها : «هذا بيتي ، على اية حال ، عائلتي ، ووطني . . .» فيرد عليها صوت آخر مؤكداً : «لا ، لم يعد وطنك ، ولم تعد عائلتك» . وكان الرعب يستولي عليها ، فكانت تضيق بكل خورها . فقدت صبرها ما ان اصابها العسر . . . أهذا ما وعدت به ؟

ولم تتمالك يلينا نفسها بسرعة . ولكن اسبوعاً مضى وتبعه آخر . . . وهدأت يلينا بعض الشيء ، وتعودت وضعها الجديد . كتبت رسالتين صغيرتين لاينساروف ، اخذتهما بنفسها الى البريد . لم ترد على الاطلاق ان تأتمن الخادمة خجلاً وكبرياء . واخذت تنتظر مجيئه هو . . . ولكن عوضاً عنه جاء نيقولاي ارتيميفيتش ذات صباح .

٢٢

كان ضابط الحرس المتقاعد ستاخوف ملولاً ، وفي الوقت ذاته ، واثقاً بنفسه ومتعاظماً على نحو لم يره احد من أهل بيته على مثله قبل هذا اليوم . دخل الى حجرة الجلوس في معطفه وقبعته . دخل ببطء ، وبخطوات عريضة ، ضارباً الارض بكعبيه ، واقترب

من المرآة ، ونظر الى نفسه فيها وقتاً طويلاً ، هازاً رأسه ، عاضاً على شفتيه بصرامة هادئة . استقبلته آنا فاسيليفنا بمظهر قلق ، وفرح خفي (لم تستقبله قط بغير ذلك) وقدم يده في قفازها الشمعوا في صمت الى يلينا لتقبلها ، حتى دون أن يخلع قبعته ، ودون أن يقرأ زوجته التحية . اخذت آنا فاسيليفنا تسأله عن دورة العلاج . فلم يجبها بشيء . جاء اوفار ايفانوفيتش ، ونظر اليــــه . وقال «ها !» . وكان ستاخوف ، بشكل عام ، يعامل اوفار ايفانوفيتش ببرود وباستعلاء ، رغم انه كان يعترف فيه بـ«علائم الدم الستاخوفي الاصيل» . والمعروف ان العوائل النبيلة الروسية جميعها تقريباً تعتقد بأن لها ميزات استثنائية من ناحية النسب ، مختصة بها وحدها . فكم سمعنا احاديث «بين الاهل» عن الانوف «البودسالاسكية» والقفا «البيربريفية» * . دخلت زويا ، وانحنت لنيقولاي ارتيميفيتش احتراماً . تنحنح ، وانهد على كرسي وثير ، وطلب قهوة ، وعند ذاك فقط خلع قبعته . قدمت له القهوة ، فاحتسى الفنجان ، ونظر الى الجميع بالتوالي ، وقال من خلال اسنانه : «Sortez, s'il vous plait» ** واضاف مخاطباً زوجته : « Et vous, madame, restez, je vous prie»***

خرج الجميع ما عدا آنا فاسيليفنا . كان رأسها يرتعش من الانفعال . ادهشتها نبرة الظفر في سلوكه . فكانت تتوقع شيئاً غير اعتيادي .

ما ان غُلِق الباب حتى هتفت :

— ما هذا !

القى نيقولاي ارتيميفيتش عليها نظرة غير مكترثة .

— لا شيء على وجه الخصوص . اية طريقة لك في ان تظهري نفسك حالاً بمظهر الضحية ؟ — شرع يقول مرخياً طرفي شفتيه لدى كل كلمة دون اية حاجة — مجرد انني اردت ان اعلمك ان ضيفاً جديداً سيتناول الغداء عندنا اليوم .

— مَنْ هو ؟

---

* اسماء عوائل . — **المترجم** .

** اخرجوا ، ارجوكم (بالفرنسية في الاصل) .

*** اما انت ، يا مدام ، فابقي ، ارجوك (بالفرنسية في الاصل) .

— يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي . انت لا تعرفينه ، يشغل منصب السكرتير الاول في مجلس الشيوخ .

— وسيتناول الغداء عندنا اليوم ؟

— نعم .

— ولاجل ان تقول لي ذلك أمرت الجميع بان يخرجوا ؟

ومرة أخرى القى نيقولاي ارتيميفيتش على آنا فاسيليفنا نظرة ، كانت تهكمية هذه المرة .

— أيدهشك هذا ؟ انتظري وستندهشين اكثر .

وصمت ، وصمتت آنا فاسيليفنا قليلاً ، ثم قالت :

— حبذا . . .

وفجأة قال نيقولاي ارتيميفيتش :

— انا اعرف انك دائماً كنت تعتبرينني انساناً . . «بلا اخلاق» .

تمتمت آنا فاسيليفنا بذهول :

— انا ؟ !

— وقد تكونين على حق . ولا اريد ان أنكر انني بالفعل كنت اعطيك احياناً حجة عادلة لعدم الرضى (وطاف في ذهن آنا فاسيليفنا «انها الخيول الرمادية») رغم انك لا بد أن تقري بأن عضويتك في حالتها المعروفة لك . . .

— ولكنني لا اتهمك ابداً ، يا نيقولاي ارتيميفيتش .

— C'est possible * . وفي كل الاحوال لا انوي تبرير نفسي . الزمن سيبررني . ولكنني أرى من واجبي ان اؤكد لك انني اعرف التزاماتي ، واستطيع ان اهتم ، . . . مصالح . . . العائلة المؤكل بها .

فكرت آنا فاسيليفنا مع نفسها : «ماذا يعني كل هذا ؟» (ما كان في امكانها ان تعرف ان جدالاً نشأ في عشية اليوم ، في ركن من حجرة الارائك في النادي الانجليزي ، عن عدم قدرة الروس على تدبيج الحديث . وهتف احد المتجادلين : «مَنْ يجيد الحديث عندنا ؟ هل تسمون لي احداً ؟» ، فرد آخر : «لنأخذ ستاخوف مثلاً» واشار الى نيقولاي ارتيميفيتش الذي كان بين المتحدثين . وكادت تند منه صيحة فرح) .

---

* هذا محتمل (بالفرنسية في الاصل) .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– لنأخذ ابنتي يلينا . ألا تجدين أن الوقت قد حان اخيراً لان تقوم بخطوة ثابتة في طريق الحياة . . . اريد أن اقول ان تتزوج . لا ضير في كل تلك التفلسفات واعمال البر والاحسان ، ولكن بقدر معين ، والى عمر معين . وقد آن لها ان تترك ضبابياتها وأن تخرج من مجتمع اوزاع الفنانين والطلبـــــة والجبليين السود * وتصير كالآخرين .

سألت آنا فاسيليفنا :

– كيف عليّ ان افهم كلامك ؟

رد نيقولاي ارتيميفيتش بنفس تهدل الشفتين :

– دعيني اكمل . ساقول لك بصراحة ودون لف ودوران . لقد تعرفت وتصاحبت مع هذا الشاب ، السيد كورناتوفسكي ، على أمل ان يكون صهري . واجرؤ على الظن بأنك ، حين ترينه ، لن تتهميني بالمحاباة أو بالتسرع في الرأي . (كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم ، ويعجب بذلاقة لسانه .) تعليمه ممتاز ، فهو قانوني ، وتربيته جيدة ، وهو في الثالثة والثلاثين ، وسكرتير أول ، ومستشار متخرج ، وحامل وسام ستانسلاف . وآمل في انك ستنصفينني ، ولا تضعينني في عداد اولئك ** péres de comédie الذين تسحرهم المناصب وحدها . وانت نفسك كنت تقولين لي أن يلينا نيقولايفنا يعجبها الاكفاء الايجابيون . ويغور اندرييفيتش الاول في حقله من حيث الكفاءة . وابنتي ، من الناحية الأخرى ، ميالة الى افعال الشهامة ، فاعلمي ، اذن ، ان يغور اندرييفيتش ، حالما اتيحت له امكانية ، وارجو ان تفهميني ، امكانية العيش على راتبه دون عوز ، تخلى على الفور لاخوانه عن المبلغ السنوي الذي عينه له ابوه .

فسألت آنا فاسيليفنا :

– ومَنْ ابوه ؟

– ابوه ؟ ابوه ايضاً انسان مشهور في مضماره ، ذو اخلاقيات

---

* الجبل الاسود («مونتنه نيغرو») – مقاطعة في البلقان هي الآن داخلة في حدود يوغوسلافيا .

** الاباء في التمثيليات الفكاهية (بالفرنسية في الاصل) .

عالية جداً * un vrai stoïcien ، رائد متقاعد ، على ما اظن ، يدير كل ضياع الكونتات من آل ب . . .

قالت آنا فاسيليفنا :

— أها !

فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

— أها ! ماذا أها ؟ هل معقول انك ايضاً مصابة بداء التحاملات ؟

فشرعت آنا فاسيليفنا تقول :

— ولكنني لم اقل شيئاً . . .

— لا ، قلت أها ! . . ومهما يكن من شيء رأيت من اللازم ان انبهك الى ما يدور في ذهني ، واجرؤ على الاعتقاد . . . اجرؤ على ان آمل في أن السيد كورناتوفسكي سيستقبل ** à bras ouverts انه ليس من الجبليين السود او ما شاكل .

— بالطبع . ولكن يجب ان نبلغ الطباخ فانكا ليضيف اصنافاً جديدة .

— انت تعرفين انني لا اتدخل في ذلك — قال نيقولاي ارتيميفيتش ونهض ، ولبس قبعته ، وذهب ليتنزه في الحديقة ، وهو يصفر (وكان قد سمع أن الصفير لا يجوز الا في بيت ريفي تقطنه او في حلبة الخيول) . نظر شوبين اليه من نافذة مسكنه الملحق ، واخرج له لسانه صامتاً .

في الساعة الرابعة الا عشر دقائق وصلت الى واجهة بيت ستاخوف الريفي عربة مستأجرة ، ونزل منها رجل لم يتخط بعد سن الشباب ، مهذب المظهر انيق اللباس ، بسيطه ، وامر بأن يُعلن عن وصوله . ذلك هو يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي .

وبالمناسبة ، هذا ما كتبته يلينا لاينساروف في اليوم التالي :

«هنئني ، يا عزيزي دميتري ، فقد صار لي خطيب . ويوم امس تناول طعام الغداء عندنا ، وكان ابي قد تعرف عليه في النادي الانجليزي ، على ما يبدو ، ودعاه لزيارتنا . وطبيعي انه لم يأت يوم امس كخطيب ، الا أن أمي الطيبة التي أبلغها أبي بأمنياته ، همست في أذني من هو ضيفنا . يدعى يغور اندرييفيتش

* زينتوني حقيقي (بالفرنسية في الاصل) .
** باذرع مفتوحة (بالفرنسية في الاصل) .

كورناتوفسكي ، ويعمل سكرتيراً اول في مجلس الشيوخ . ولأصف لك مظهره الخارجي اولاً . انه ربع القامة ، اقصر منك ، حسن البنيان ، متناسق القسمات ، قصير الشعر ، طويل القذال . عيناه صغيرتان (كعينيك) بنيّتان ، سريعتان ، وشفتاه مسطحتان ، عريضتان ، وفي عينيه وعلى شفتيه بسمة دائمة ، رسمية على نحو ما ، وكأنما لاداء الواجب . طريقة سلوكه بسيطة جداً ، وكلامه واضح ، وكل شيء لديه واضح ، فهو يسير ، ويضحك ، ويأكل وكأنه يؤدي عملاً . ولربما انت تفكر في هذه اللحظة «درسته بدقة !» اجل ، لكي اصفه لك . ثم كيف لا ادرس خطيبي ! ان فيه شيئاً حديدياً . . . وبليداً وفارغاً في الوقت ذاته ، ونزيهاً . يقال انه نزيه جداً ، حقاً . وانت ايضاً حديدي ، ولكن لست كمثله . جلس الى المائدة جنبي ، وجلس شوبين قبالتنا . في البداية دار الحديث عن مؤسسات تجارية يقال انه يفهم فيها ، وكاد يترك وظيفته ليشرف على معمل كبير . ولكنه فوّت عليه الفرصة ! ثم اخذ شوبين يتحدث عن المسرح ، وهنا ذكر السيد كورناتوفسكي ، وبدون اي تواضع كاذب – ويجب ان أقر بذلك – انه لا يفقه شيئاً في الفن . وقد ذكرني ذلك بك . . . ولكنني قلت لنفسي : لا ، انا ودميتري لا نفهم الفن بطريقة مغايرة ، على اية حال . بينما هذا كما لو انه كان يريد ان يقول : انا لا افهمه ، كما انه ليس ضرورياً ، ولكنه مسموح به في دولة حسنة التنظيم . ان هذا الرجل ، على العموم ، يستهين كثيرا ببطرسبورغ ، وبـ comme il faut بل وقد سمّى نفسه بروليتارياً مرة واحدة . ويقول : نحن عمال بسطاء ! وقد فكرت مع نفسي : لو ان دميتري قال ذلك لما اعجبني ذلك منه ، ولكن ليقل هذا عن نفسه ما يشاء ، وليتبجح ! كان جد مهذب معي ، ومع ذلك فقد كان يبدو لي دائماً ان المتحدث الي رئيس يتلطف مع محدثه كثيراً . وحين يريد ان يمتدح انساناً يقول انه **صاحب اصول** . وذلك تعبيره المفضل . فلا بد انه واثق بنفسه ، محب للعمل ، ومقتدر على التضحية (ها أنت ترى انني منصفة) اقصد التضحية بمنافعه ، ولكنه مستبد كثيراً . ومن المصيبة الوقوع في يده ! جرى الحديث على المائدة عن الرشاوى . . .
قال :

– أنا ادرك ان الذي يأخذ الرشوة غير مذنب في كثير من

الاحوال ، فهو لا يستطيع ان يفعل خلاف ذلك . ومع هذا يجب سحقه ، اذا أكتشف امره .

هتفت :

– سحق بريئاً !

– نعم ، في سبيل المبدأ .

فسأل شوبين :

– اي مبدأ ؟

فبدا على كورناتوفسكي الارتباك او الدهشة وقال :

– لا يحتاج ذلك الى شرح .

فتدخل أبي الذي كان يبجّله ، كما يبدو ، وقال : لا يحتاج ، بالطبع ، وانتهـى هذا الحديث ، مع الاسف . وفي المساء جاء بيرسينيف ، ودخل معه في جدال مريع . حتى ذلك الحين لم أر قط صديقنا اندريه بيتروفيتش الطيب على مثل تلك الدرجة مـن الانفعال . لم ينكر السيد كورناتوفسكي ، على الاطلاق ، فائدة العلم والجامعات وغيرها . . . ومع ذلك فقد كنت أتفهم استياء اندريه بيتروفيتش . كان الآخر ينظر الى كل ذلك وكأنه نوع من التمارين الرياضية . جاءني شوبين ، بعد الفراغ من المائدة ، وقال : «ان هذا وشخصاً آخر (انه لا يستطيع ان يلفظ اسمـك) عمليان كلاهما ، ولكن انظري اي فارق بينهما . الآخر مثال حقيقي حي طرحته الحياة نفسها ، اما هذا فحتى الشعور بالواجب غير متوفر فيه ، بل مجرد نزاهة وظيفية ، وكفاءة فارغة من اي محتوى» . ان شوبين ذكي ، وانا اتذكر ما قاله خصيصاً لك . ولكن اي جامع يمكن ان يكون بينكما برأيي ؟ انت **تؤمن** ، وهو لا ، اذ **لا يجوز الايمان** بالنفس فقط .

غادر السيد كورناتوفسكي في ساعة متأخرة ، ولكن ماما لحقت ان تخبرني بأنني رقت له ، وان أبي في غاية الغبطة . . . لعل السيد كورناتوفسكي قال ايضاً عني انني صاحبة اصول ؟ وكدت ارد على أمي بأنني آسفة جداً ، ولكن لي زوجاً بالفعل . لماذا لا يحبك أبي الى هذه الدرجة ؟ مع امي يمكن ان ندبر الامر بطريقة او بأخرى . . .

آه ، يا عزيزي . لقد اسهبت لك في وصف هذا السيد لاتغلب على وحشتي . لا حياة لي بدونـك . وانا ، على الدوام ، اراك

واسمعك . . . انا انتظرك ، ولكن ليس في بيتنا ، كما كنت تريد — تصوّر ما سنحسه من ضيق وحراجة — بل في المكان الذي كتبت لك عنه في ذلك الحرش . . . آه ، يا عزيزي ، كم أحبك !»

٢٣

بعد ثلاثة اسابيع من زيارة كورناتوفسكي الاولى انتقلت آنا فاسيليفنا الى موسكو ، مثيرة بذلك فرحاً عظيماً في نفس يلينا ، ونزلت في بيتها الخشبي الكبير قرب شارع بريتشستينكا ، وهو بيت ذو اعمدة تكلل كل نافذة من نوافذه قيثارات واكاليل بيض ، وللبيت طابق علوي ، ومرافق للخدمات ، وحديقة خضروات ، وفناء أخضر واسع ، فيه بئر يجاورها وجار للكلاب . من قبل لم تكن آنا فاسيليفنا تغادر البيت الريفي الى المدينة في مثل هذا الوقت المبكر من الخريف . ولكن موجات البرد الخريفية الاولى في هذا العام أثارت خراجات اللثة عندها . كما أن نيقولاي ارتيميفيتش ، من ناحيته ، قد انهى دورة علاجه . واشتاق الى زوجته ، لاسيما وان افغوستينا خريستيانوفنا قد سافرت لزيارة ابنة عمها في ريفيل . ووصلت الى موسكو اسرة اجنبية كانت تعرض **اوضاعاً بلاستيكية** des poses plastiques أثار وصفها في صحيفة «موسكوفسكيه فيدوموستي» فضول آنا فاسيليفنا الشديد . وباختصار كان استمرار الأقامة في البيت الريفي غير ملائم ، بل ولا يتفق ، كما قال نيقولاي ارتيميفيتش ، مع تنفيذ «مخططاته» . وبدا الاسبوعان الاخيران طويلين جدا ليلينا . وكان كورناتوفسكي يزورهم مرتين يوم الاحد ، وكان في بقية الايام مشغولاً . وكان يأتي خصيصاً ليلينا ، ولكنه كان يتحدث اكثر مع زويا التي أُعجبت به كثيراً . وكانت تقول لنفسها ، وهي تنظر الى وجهه الاسمر الرجولي وتسمع كلامه الواثق المتسامح : «Das ist ein Mann!» * . فان احداً ، حسب رأيها ، لم يمتلك صوتاً مدهشاً مثل صوته ، ولا احد يضارعه في نطقه بشكل رائع : «لي الشرف» او «انا مرتاح جداً» . ولم يزر

* هذا رجل حقيقي (بالالمانية في الاصل) .

اينساروف آل ستاخوف ، ولكن يلينا التقته ذات مرة خلسة في حرش صغير على نهر موسكو ، كانت قد حددت له موعداً فيه . وما كاد الوقت يتسنى لهمـا ليتبادلا بعض الكلمـات . وعاد شوبين الى موسكو مـع آنا فاسيليفنا ، وبعد بضعة ايام تبعـه بيرسينيف .

كان اينساروف جالساً في حجرته يقرأ للمرة الثالثة رسائل وصلته من بلغاريا مع رسول سانح ، فقـد كانوا يخافون ان يرسلوها في البريد . وقد اقلقته الرسائل كثيراً . الاحداث تتطور بسرعة في الشرق . وكان احتلال القوات الروسية للامارتين (٢٤) يشغل بال الجميع . واشتدت العاصفة ، وفاحت رائحة حرب قريبة لا مردّ لها . وبدأ الحريق ، ولم يكن في مستطاع احد ان يتنبأ الى اين يتجه ، واين يتوقف . تحركت المظالم القديمة والأماني التي طال امدها . وكان قلب اينساروف يخفق بشدة ، فأخذت آماله تتحقق . وكان يفكر عاصراً يديه : «ولكن أليس ذلك مبكراً ؟ بدون جدوى ؟ فنحن غير مستعدين الآن . ولكن ما العمل ! يجـب ان اسافر» .

حدثت حركة خفيفة وراء الباب ، وانفتح بسرعة ، ودخلت يلينا الحجرة .

ارتعش كيان اينساروف كله ، واندفع نحوها ، وركع أمامها ، وطوّق قامتها ، وضغط رأسه عليها بقوة .

— لم تكن تتوقعني ؟ — قالت ، وهي لا تكاد تلتقط انفاسها (وكانت قد ارتقت السلم بسرعة) — عزيزي ! عزيزي ! — ووضعت كلتا يديها على رأسه ، وتلفتت — هنا تعيش ، اذن ؟ عثرت عليك بسرعة . دلتني ابنة صاحب البيت . انتقلنا الى موسكو يوم امس الاول . واردت ان اكتب لك ، ولكنني فكرت في ان مجيئ اليك افضل . سأظل معك ربع ساعة . انهض ، واغلق الباب .

نهض ، وخفّ لغلق الباب ، وعاد اليها ، واخذ يديها . لم يستطع ان يتكلم ، فقد عقدت الفرحة لسانه . وكانت تحدق في عينيه مبتسمة . . . كان في عينيه الكثير من السعادة . . . وخجلت يلينا .

— على مهلك — قالت له ، واسترجعت يديها منه بلطف — دعني اخلع القبعة .

وفكت شريطي القبعة ، ورمتها والقت العباءة عن كتفيها ، وعدّلت شعرها . وجلست على اريكة صغيرة قديمة . جمد اينساروف يحدق فيها كالمسحور .

— اجلس .

قالت دون ان ترفع اليه عينيها ، مشيرة له الى مكان جنبها . جلس اينساروف ، ولكن على الارض ، عند قدميها ، لا على الاريكة .

قالت بصوت مضطرب ، اذ شعرت برهبة :

— خذ ، اخلع القفازين من يديّ .

اخذ يفك الازرار في البداية ، ثم يسحب احد القفازين ، وسحبه الى النصف ، ولثم في نهم الكف الناعمة الرقيقة التي لاحت بيضاء من تحت القفاز .

ارتعشت يلينا ، وارادت ان تدفعه بيدها الاخرى ، ولكنه راح يقبل هذه اليد ايضاً . سحبتها يلينا نحوها ، فدفع رأسه الى الوراء ، فنظرت في وجهه ، وانحنت ، والتقت الشفاه . . .

مرت لحظة . . . انتزعت يلينا نفسها ، ونهضت ، وهمست «لا ، لا» واقتربت بسرعة من منضدة الكتابة .

— انا ربة بيت هنا ، ولا يجوز ان تخفي عني خافية — قالت محاولة ان تبدو خلية البال ، مديرة له ظهرها — ما اكثر الاوراق : ما هذه الرسائل ؟

قطّب اينساروف حاجبيه . وقال ، وهو ينهض من الارض :

— هذه الرسائل ؟ تستطيعين ان تقرئيها .

قلّبتها يلينا في يدها .

— انها كثيرة جداً ، ومكتوبة بخط دقيق ، بينما يجب ان انصرف الآن . . . سأتركها ! أليست من غريمة لي ؟ ولكنها ليست بالروسية .

اضافت ذلك ، وهي تتصفح الاوراق الخفيفة .

دنا اينساروف منها ، ومسّ قدّها . فاستدارت نحوه فجأة ، وابتسمت له ابتسامة مشرقة ، واستندت على كتفه .

— ان هذه الرسائل من بلغاريا ، يا يلينا . اصدقائي يكتبون لي ، ويدعونني الى السفر .

— الآن ؟ الى هناك ؟

– نعم . . . الآن ، ما دام الوقت لم يفت ، وما دام السفر ممكناً .

وفجأة طوقت رقبته بكلتا يديها .

– ولكن ستاخذني معك ؟

ضمها الى صدره .

– آه ، يا فتاتي العزيزة ، يا بطلتي ، ما الطف نطقك لهذه الكلمات ! ولكن أليس خطيئة ، أليس جنوناً مني ان اجرك معي – انا الذي لا بيت له ولا أهل . . . والى أين !

وضعت يدها لتسد فمه قائلة :

– هسس . . . والا فسأزعل ، ولن اعود لزيارتك ابداً . ولكن ألم يحسم كل شيء بيننا ، ويبت ؟ أولست زوجتك ؟ وهل الزوجة تفارق زوجها ؟

قال بابتسامة شبه حزينة :

– الزوجات لا يخرجن للحرب .

– اجل ، اذا يقدرن على البقاء . وهل في امكاني ان ابقى هنا ؟

– يلينا ، انت ملاك ! . . ولكن فكري ، ربما اضطر الى ترك موسكو . . . بعـــد اسبوعين . ولا مجال لان افكر في محاضرات الجامعة ، ولا في اكمال اعمالي .

قاطعته يلينا :

– ما هذا الذي تقوله ؟ هل يجب ان تسافر قريباً؟ اذا اردت ، فسابقى معك الآن ، هذه اللحظة ، واظل معك الى الابد ، ولن اعود الى البيت ، هل تريد ؟ لنسافر الآن ، هل تريد ؟

ضمها اينساروف بين ذراعيه بقوة مضاعفة ، وهتف :

– ليعاقبني الرب ، ان قمت بعمل سوء ! منذ اليوم نحن مرتبطان الى الابد !

فسألت :

– يعني ، سأبقى ؟

– لا ، يا فتاتي الطاهرة ، لا ، يا كنزي . ستعودين اليوم الى البيت ، ولكن كوني على أهبة . فان هذا الامر لا يجوز ان يؤتى دفعة واحدة . يجب التروي في كل شيء . ونحن نحتاج الى نقود ، وجواز سفر . . .

قاطعته يلينا :

— عندي نقود . ثمانون روبلاً .
فقال اينساروف :
— هذا ليس مبلغاً كبيراً ، ولكنه ينفع على اية حال .
— واستطيع ان احصل على اكثر ، استدين ، اطلب من امي . . . لا ، لا اريد ان اطلب منها . . . ولكن يمكن ان ابيع ساعتي . . . وعندي اقراط ، وسواران . . . مخرمات .
— ليست المسألة مسألة فلوس ، يا يلينا . جواز السفر ، جواز سفرك ، كيف ندبره ؟
— نعم ، كيف ندبره ؟ لا بد من جواز سفر ؟
— لا بد .
وضحكت ضحكة مقتضبة ساخرة .
— هذا ما خطر في بالي ! اتذكر ، وانا صغيرة . . . هربت منا خادمة ، فامسكوا بها ، وصفحوا عنها ، وظلت تعيش معنا زمناً طويلاً . . . ومع ذلك كان الجميع يلقبونها بتاتيانا الهاربة . لم اكن اتصور في حينها ، انني ربما سأكون ايضاً هاربة ، مثلها .
— عيب عليك ، يا يلينا !
— وماذا في الامر ؟ الافضل ، بالطبع ، ان اسافر بجواز سفر . ولكن اذا تعذر ذلك . . .
قال اينساروف :
— سنسوي كل ذلك ، فيما بعد ، فيما بعد ، انتظري . اعطيني فرصة لأن اتفحص اموري ، اتركيني افكر . سنتباحث في كل شيء سوية ، وكما ينبغي . اما النقود فعندي منها ايضاً .
ازاحت يلينا بيدها الشعر الذي تساقط على جبينه .
— آه ، دميتري ! ما امتع ان نسافر سوية !
قال اينساروف :
— نعم ، وهناك الى اين نذهب . . .
قاطعته يلينا :
— وماذا في ذاك ؟ أليس الموت سوية ممتعاً ايضاً ؟ ولكن لا ، لماذا نموت ؟ سنعيش ، فنحن شابان . كم عمرك ؟ ستة وعشرون ؟
— ستة وعشرون .
— وانا في العشرين . امامنا العمر بطوله . ها ! وكنت تريد ان تهرب مني ؟ لم تكن بحاجة الى حب روسي ، ايها البلغاري ! فلنر

الآن كيف ستتخلص مني ! ولكن ماذا كان سيحصل لنا ، لو لم اتجه اليك آنذاك !

– انت تعرفين ، يا يلينا ، ما الذي كان يحملني على الابتعاد عنك .

– اعرف . احببت ، وارتعبت . ولكن هل من المعقول انك لم تحدس انني كنت ابادلك الحب ؟

– لا ، يلينا قسما بالشرف .

قبلته بغتة وبسرعة .

– ولهذا بالذات احبك . والآن ، وداعاً .

فسأل اينساروف :

– الا تستطيعين ان تبقي اكثر ؟

– لا ، يا عزيزي . هل تتصور انه كان سهلاً عليّ ان انسل واخرج وحيدة ؟ ربع الساعة انقضى منذ زمان – ولبست عباءتها وقبعتها – تعال عندنا غداً في المساء ، لا ، بعد غد . سيكون الجو مصطنعاً مضجراً ، ولكن لا حيلة لنا عليه . سيرى احدنا الآخر على اقل تقدير . وداعاً . دعني اذهب – وعانقها للمرة الاخيرة – آه ! انظر ، قطعت سلسلتي . آه ، يا فتاي الاخرق ! طيب ، لا يهم . هذا احسن . سأذهب الى شارع «كوزنتسكي موست» ، واعطيها للتصليح . فاذا سألوني اقول كنت في كوزنتسكي موست – وامسكت مقبض الباب – بالمناسبة ، نسيت ان اقول لك : من المحتمل ان مسيو كورناتوفسكي سيطلب يدي خلال ايام . ولكنني سأصنع له . . . هذا – ووضعت ابهام يدها اليسرى على ارنبة انفها ، وحركت اصابعها الأخَر في الهواء – وداعاً ، والى اللقاء . اعرف الطريق الآن . اما انت فلا تضيّع الوقت . . .

فتحت يلينا الباب قليلاً ، وتسمّعت ، واستدارت نحو اينساروف ، واومأت برأسها ، وانسلت من الحجرة .

وقف اينساروف امام الباب دقيقة ، وتسمع ايضاً . انصفق الباب المؤدي الى الفناء في الاسفل . اقترب اينساروف من الاريكة ، وجلس ، وغطى عينيه بيده . ان مثل هذا الشيء لم يحدث له من قبل . وفكر : «لاي شيء اجازى بهذا الحب ؟ ألعله حلم ؟»

الا أن رائحة البَليحاء الخفيفة التي ابقتها في حجرته البائسة

المظلمة كانت تذكر بزيارتها . كما بقيت عالقة في الهواء ، على ما يبدو ، رنات صوتها الفتي ، وحفيف خطواتها الفتية الخفيفة ، ودفء وغضارة جسدها العذري الفتي .

٢٤

قرر اينساروف ان ينتظر اخباراً اكثر ايجابية ، وبدأ يتهيأ للسفر . وكان الامر صعباً جداً . وفي الحق لم تكن هناك اية عقبات امامه ، اذ لم يكن عليه الا ان يطالب بجواز سفر . ولكن كيف سيكون الامر مع يلينا ؟ كان من المستحيل الحصول لها على جواز سفر بطريق مشروع . ام يعقدان قرانهما خلسة ، ثم يتوجهان الى والديها . . . وكان يفكر : «عندئذ سيسمحان لنا بالسفر . وان لم يسمحا ؟ سنسافر ، في كل الاحوال . وان اشتكيا علينا . . . ان . . . لا ، من الافضل السعي للحصول على جواز سفر بطريقة ما» .

وعزم على التشاور (دون ان يسمي اسماً ، بالطبع) مع مدع عام يعرفه ، متقاعد او مقالٍ ، وعجوز ضليع محنك في شتى القضايا السرية . وكان هذا الرجل المحترم يعيش بعيداً من مسكنه . وقضى اينساروف ساعة كاملة للوصول الى بيته في عربة مستأجرة بائسة ، والانكى من ذلك انه لم يجده في بيته ، وفي طريق العودة بلله حتى العظام وابل هطل على حين غرة . وفي الصباح التالي ذهب اينساروف للمرة الثانية الى بيت المدعي العام المتقاعد ، رغم الصداع الشديد . اصغى اليه المدعي العام المتقاعد بانتباه ، وهو يستنشق التبغ من علبة تبغ مزينة بصورة حورية مكتنزة النهدين ، وينظر الى ضيفه بحول من عينين صغيرتين ماكرتين بلون التبغ ايضاً . كان يصغي ويطالب «دقة اكثر في طرح المعطيات الفعلية» ، ولما رأى كراهية اينساروف للدخول في التفاصيل (وكان قد جاء اليه على مضض) اكتفى بتوجيه النصح له بأن يتزود بـ«القروش» قبل كل شيء ، وطلب اليه ان يزوره للمرة الثانية . واضاف ، وهو يستنشق التبغ منكباً على علبته المفتوحة «عندما تزداد لديك الثقة ، وتقلل عدم الثقة» . ومضى يقول كمن يخاطب نفسه : «اما جواز السفر فتحت

متناول يد الانسان . فانت لو سافرت مثلاً ، فمن سيعرف من انت : ماريا بريديخينا ، ام كارولينا فوغيلمبير ؟» واحس اينساروف بشعور القرف يتململ في نفسه ، الا أنه شكر المدعي العام ، ووعد بالعودة اليه خلال ايام .

في ذلك المساء ذهب لزيارة آل ستاخوف . استقبلته آنا فاسيليفنا برقة ، وعاتبته على نسيانه لهم كلياً ، ولما رأته شاحب الوجه استفسرت عن صحته . ولم يقل نيقولاي ارتيميفيتش له اية كلمة ، ولكنه نظر اليه بفضول ساهم ذاهل ، ولا شيء آخر . وعامله شوبين ببرود ، ولكن يلينا ادهشته . فقد كانت تنتظره ، ومن أجله لبست نفس الثوب الذي كانت ترتديه يوم لقائهما الاول في الصومعة ، ولكنها رحبت به بهدوء شديد ، وكانت لطيفة جداً ، ومرحة في خلو بال ، فما كان في وسع احد ينظر اليها في تلك الساعة ان يظن أن مصير هذه الفتاة قد حُسم ، وان الاحساس الخفي بالحب السعيد وحده كان يضفي الحيوية على ملامحها ، والخفة والفتنة على كل حركاتها . كانت تصب الشاي ، بدلاً من زويا ، وتمزح ، وتكثر من الكلام . فقد كانت تعرف ان شوبين سيراقبها وان اينساروف لا يحسن التمويه ، ولا يجيد التظاهر بعدم الاكتراث ، فسلّحت نفسها مسبقاً . ولم تخطىء في ذلك . فقد كان شوبين لا يصرف عينيه عنها . وكان اينساروف صموتاً جداً وعبوساً خلال الامسية كلها . وكانت يلينا تشعر بالسعادة تغمر نفسها ، حتى انها رغبت في مناكدته .

سألته فجأة :

— ماذا ، اذن ؟ هل مشروعك في تقدم ؟

ارتبك اينساروف ، وقال :

— اي مشروع ؟

— هل نسيت ؟ — ردت عليه ضاحكة في وجهه . وكان وحده يستطيع ان يدرك مغزى هذا الضحك السعيد — كتاب المطالعة البلغاري للروس الذي كنت تنوي تأليفه ؟

تمتم نيقولاي ارتيميفيتش من خلال اسنانه :

— Quelle bourde! *

---

* يا للسخافة ! (بالفرنسية في الاصل) .

جلست زويا الى البيانو . هزت يلينا كتفيها بشكل لا يكاد يُلحظ ، واشارت لاينساروف بعينيها الى الباب ، وكأنما تأذن لـه بالانصراف . ثـم مسَّت المائدة باصبعهـا مستين ، ونظـرت اليه . ففهم انها قد حددت له موعداً بعد يومين ، وابتسمت ابتسامة سريعة حين رأت انه قد فهم اشارتها . نهض اينساروف ، واخذ يستأذن بالانصراف ، لانه يشعر بتوعك . جاء كورناتوفسكي . فهبّ نيقولاي ارتيميفيتش واقفاً ، ورفع يده اليمنى الى اعلى من رأسه ، وانزلها بنعومة على كف السكرتير الأول هذا . بقي اينساروف بضع دقائق أُخر ، ليتفحص غريمه . هزّت يلينا رأسها خلسة وبمكر ، فان رب البيت لم ير من الضروري ان يعرف احدهما بالآخر ، وخرج اينساروف متبادلاً النظرات مع يلينا للمرة الاخيرة . فكر شوبين وفكر ، ثم دخل في نقاش ضار مع كورناتوفسكي عن مسألة قانونية لم يكن يفقه فيها شيئاً .

أرق اينساروف الليلة بطولها ، وفي الصباح كان يشعر بسوء في صحته . ومع ذلك اخذ يرتب اوراقه ، ويكتب الرسائل ، الا ان رأسه كان ثقيلاً ، ومضطرباً . وعند الغداء ارتفعت حرارته ، فلم يستطع ان يأكل شيئاً . واشتدت الحرارة بسرعة عند المساء . واصابه انحلال في كل اعضائه ، وصداع مؤلم في رأسه . استلقى اينساروف على نفس الاريكة الصغيرة التي كانت يلينا تجلس عليها قبل وقت قصير . وفكر مع نفسه : «هذا عقاب عادل على ذهابي الى ذلك المحتال العجوز» وحاول ان يغفو . . . ولكن المرض كان قـد تمكّن منه آنذاك . وراحت عروقه تنبض بقوة رهيبة ، والدم يغلي بحرارة في داخلـه ، والافكار تدور في ذهنه كالطيـور . وغرق في غيبوبة . انطرح على ظهره كالمسحوق ، وفجأة تراءى لـه شخص يضحك فوقه بخفوت ويهمس . فتح عينيه بجهد . فنفذ اليهما ضوء الشمعة المحترقة كالسكين . ما هذا ؟ كان المدعي العام العجوز امامه في روب بيتي حريري محزم بنطاق من الحرير الخفيف ، كما رآه قبل يوم . وتمتم الفم الادرد «كارولينا فوغيلميير» . ويحدق اينساروف ، والعجوز يكبر ، وينتفخ ، وينمو ، حتى لم يعد رجلاً ، بل شجرة . . . وكان على اينساروف ان يتسلق اغصانهـا العاليـة . فيتشربك ، ويسقط بصدره على صخرة حادة ، وكارولينا فوغيلميير تجلس القرفصاء ، في زي بائعة ، وتغمغم : «فطائر ، فطائر ، فطائر» . ثم

يتدفق دم ، والسيوف تلمع لمعاناً لا يطاق . . . يليبنا ! . . واختفى كل شيء في هيولى حمراء . . .

٢٥

– جاءك شخص ، والله يعلم مَنْ هو . . . ربما هو سمكري . ويريد ان يراك .

قال ذاك لبيرسينيف في المساء التالي ، خادمه الذي كان يتميز بالصرامة في التعامل مع سيده ، وبنزعة التشكك في تفكيره .

قال بيرسينيف :

– دعه يدخل .

ودخل «السمكري» ، فعرف بيرسينيف فيه الخياط صاحب المسكن الذي يقيم فيه اينساروف .

سأله :

– ماذا تريد ؟

– اريد ان اكلم حضرتك – قال الخياط منقلاً قدميه ببطء ، ورافعاً من حين لآخر يده اليمنى ، وقد امسك بأصابعه الثلاث الاخيرة طرف كمه – نزيلنا مريض جداً والله يعلم .

– اينساروف ؟

– بالضبط ، نزيلنا . والله يعلم . حتى صباح امس كان ما يزال على قدميه ، وفي المساء لم يطلب غير شيء يشربه ، فجلبت له ام بيتنا ماء ، وفي الليل راح يهذر ، وكنا نسمعه من خلال الحاجز . واليوم صباحاً فقد لسانه ، وهو مطروح كالخشبة ، متوهج بحُمى ، نعوذ بالله منها ! وفكرت : الله يعلم ، قد يموت بين لحظة واخرى ، ويجب اخبار الشرطة . لأنه وحيد ، ولكن ام البيت قالت لي : «اذهب الى الساكن الذي كان نزيلنا يستأجر حجرة في بيته الريفي . فلعله يشير لك بشيء ، أو يأتي بنفسه» . ولهذا جئت الى حضرتك ، لانه لا يجوز لنا ، اقصد . . .

اختطف بيرسينيف قبعته ، ودس في يد الخياط قطعة معدنية من فئة الروبل ، واسرع معه في عربة مستأجرة الى مسكن اينساروف على الفور .

وجده راقداً على الاريكة فاقد الوعي ، في ثيابه الكاملة . وقد

تغيّر وجهه تغيراً رهيباً . اسرع بيرسينيف فأمر صاحب البيت وربته بأن يخلعا عنه ثيابه ، وينقلاه الى السرير ، وانطلق هو الى الطبيب ، وجاء به . وصف له الطبيب دفعة واحدة علقاً ولصقات وملح الزئبق كما امر بفصد الدم .

سأله بيرسينيف :

– هل هو في حالة خطرة ؟

اجاب الطبيب :

– نعم ، جداً . التهاب شديد للغاية في الرئتين ، والتهاب الغشاء البلوري في اوجه . ولربما الدماغ مصاب ايضاً ، بينما الشخص ما يزال شاباً . قواه الآن انقلبت ضده . تأخرت في استدعائي ولكننا ، على العموم ، سنقوم بكل ما يتطلبه العلم .

كان الطبيب نفسه ما يزال شاباً ، ويصدق بالعلم .

وبقي بيرسينيف لقضاء الليلة . وكان رب البيت وربته طيبين بل ومقتدرين ، حالما توفر الشخص الذي اخذ يقول لهما ماذا يجب ان يفعلا . وجاء المطبب وبدأت التعذيبات الطبية .

وعند مطلع الصباح افاق اينساروف على نفسه بضع دقائق ، وعرف بيرسينيف ، وسأله : «يبدو أني معتل الصحة ؟» ، ونظر فيما حوله بالحيرة المتبلدة الفاترة التي يتسم بها المريض الدنف ، ثم غاب عن الوعي ثانية . ذهب بيرسينيف الى بيته ليستبدل ملابسه ، واخذ معه بعض الكتب ، وعاد الى مسكن اينساروف . وقد عزم ان يسكن معه في فترة المرض الاولى على الاقل . سد سريره ببرافان ، وهيأ لنفسه موضعاً قرب الاريكة . ومر اليوم حزيناً متباطئاً ، ولم يغب بيرسينيف الا ليتناول لقمة . وحلّ المساء ، واشعل بيرسينيف شمعة ذات ظليلة ، واخذ يقرأ . كان الصمت يشمل كل شيء . ومن خلف الحاجز كان يُسمع لاهل البيت همس مكبوت تارة ، وتثاؤب تارة اخرى ، وزفرة تارة ثالثة . . . وعطس احدهم ، فقُرع همساً ، وكانت تصدر من وراء البرافان انفاس ثقيلة متقطعة يتخللها ، احياناً ، انين قصير ، وتقلب رأس ملول على الوسادة . . . وتواردت افكار غريبة على ذهن بيرسينيف . كان في حجرة رجل كانت حياته معلقة بخيط رفيع ، رجل – وهو يعرف ذلك – كانت يلينا تحبه . . . وتذكر تلك الليلة التي لحقه فيها شوبين ، وابلغه انها تحبه هو ، بيرسينيف ! والآن . . .

سأل نفسه : «ماذا عليّ ان افعل الآن ؟ اخبر يلينا بمرضه ؟ ام انتظر قليلاً ؟ هذا الخبر اشد حزناً من ذلك الذي نقلته لها يومها . غريب ان القدر يضعني دائماً شخصاً ثالثاً بينهما !» . وقرر ان ينتظر قليلاً ، فذلك افضل . وقع بصره على المنضدة المغطاة بتلال من الاوراق . . . فكر بيرسينيف : «ترى ، هل سيحقق مخططاته ؟ معقول ان يختفي كل شيء ؟» واشفق على الحياة الفتية المحتضرة ، وقطع على نفسه عهداً بأن ينقذها . . .

كانـــت الليلة سيئـــة . ظل المريض يهذي كثيراً . نهض بيرسينيف غير مرة من مرقده على الاريكة ، ودنا من السرير علـى اطراف اصابعه ، واصغى في حزن الى هذيانه غير المترابط . مرة واحدة فقط نطق اينساروف بوضوح مباغت : «لا اريد ، لا اريد ، ينبغي ان لا تفعلي . . .» جفل بيرسينيف ، ونظر الى اينساروف . . كان وجهه المعذب ، والميت في نفس الوقـت ، جامـداً ، ويداه ترتخيان بلا حول . . . وكرر المريض بصوت لا يكاد يسمع : «لا اريد» .

جاء الطبيب في الصباح ، وهزّ رأسه ، ووصف ادوية جديدة . وقال وهو يلبس قبعته :

— ما زال هناك شوط بعيد الى أن تحل الازمة .

فسأله بيرسينيف :

— وبعد الازمة ؟

— بعد الازمة ؟ امام امرين (٢٥) * aut Caesar, aut nihil.

غادر الطبيب . سار بيرسينيف في الشارع عدة مرات رواحاً ومجيئاً . كان يحتاج الى هواء طليق . وعاد ، وتناول كتاباً . وكان قد فرغ من راومر منذ زمان ، وهو الآن يدرس غروت (٢٦) .

وفجأة صر الباب بخفوت ، واطل رأس ابنة صاحب البيت على الحجرة بحذر ، معصوباً بمنديل سميك ، كالعادة . وقالت صاحبته بصوت خافت :

— جاءت آنسة الاكابر التي نفحتني يومها بعشرة كوبيكات . . .

واختفى رأس ابنة صاحب البيت فجأة ، وظهرت يلينا مكانه . قفز بيرسينيف كالملدوغ . ولكن يلينا لم تبد حركة ولا ندت

---

* إما القيصر ، واما لا شيء (باللاتينية في الاصل) .

منها صيحة . . . بدا وكأنها فهمت كل شيء في لحظة واحدة . غطى وجهها شحوب رهيب ، وتقدمت من البرافان ، ونظرت الى ورائه ، ورفعت ذراعيها ، وجمدت . وكانت سترتمي على اينساروف بعد لحظة أخرى ، لو لم يوقفها بيرسينيف . قال لها بهمس مرتعش :

— ما هذا الذي تفعلينه ؟ يمكنك ان تسببي موته !

وترنحت . قادها الى الاريكة ، واجلسها .

نظرت في وجهه ، ثم طوفت عليه ببصرها ، وبعدها ثبتت عينيها في الارض .

— انه يحتضر ؟

سألت ببرود شديد وهدوء أرعبا بيرسينيف . قال :

— يلينا نيقولايفنا ، ما هذا منك ، بحق الرب ؟ انه مريض حقاً ، وبخطر شديد . ولكننا سننقذه ، اتعهد لك بذلك .

سألت بنفس لهجتها السابقة :

— فاقد الوعي ؟

— نعم ، انه الآن في غيبوبة . . . هذا ما يحصل دائماً في بداية هذه الامراض ، ولكن هذا لا يعني شيئاً ، لا شيء صدقيني . اشربي قليلاً من الماء .

رفعت بصرها اليه وادرك بيرسينيف انها لم تسمع رده .

— إنْ يَمُتْ — قالت بنفس الصوت لم تغيّره — امت أنا ايضاً .

في تلك اللحظة صدرت من اينساروف أنّة خفيفة . فأخذت يلينا ترتجف ، امسكت رأسها ، ثم اخذت تفك شريطي قبعتها . سأل بيرسينيف :

— ما هذا الذي تفعلينه ؟

لم تجب ، فكرر بيرسينيف :

— ماذا تفعلين ؟

— سأبقى هنا . . .

— كيف . . . لمدة طويلة ؟

— لا اعرف ، ربما النهار كله ، والليل ، او الى الابد . . . لا اعرف .

— بحق الرب افيقي على نفسك ، يا يلينا نيقولايفنا . بالطبع ، لم اكن اتوقع قط ان اراك هنا . ولكنني اعتقد ، على اية حال ، انك

جئت الى هنا لوقت قصير . تذكري ان اهلك يمكن ان يفتقدوك .
— وماذا في ذاك ؟
— وسيبحثون عنك . . . ويجدونك . . .
— وماذا في ذاك ؟
— يلينا نيقولايفنا ! ها انت ترين . . . انه الآن عاجز عن ان يحميك .

اطرقت برأسها ، وكأنها تفكر ، ورفعت المنديل الى شفتيها . وانفجرت من صدرها فجأة ، وبقوة مروعة ، نوبات متشنجة من النحيب . . . انكبت على الاريكة ووجهها الى الاسفل ، وحاولت ان تخنقها ، ولكن جسدها كله ظل يخفق ويرتعد كطائر اصطيد لتوه .

كرر بيرسينيف مطلاً عليها :
— يلينا نيقولايفنا . . . بحق الرب . . .
وفجأة تردد صوت اينساروف :
— ها ؟ ما هذا ؟

رفعت يلينا جسدها ، بينما جمد بيرسينيف في مكانه . . . وبعد وقت قصير دنا من السرير . . . كان رأس اينساروف ، مرتخياً على الوسادة بعجز ، كالسابق . وكانت عيناه مغمضتين .

همست يلينا :
— يهذي ؟
اجاب بيرسينيف :
— يبدو . ولكن هذا لا شيء . وهو ايضاً يحدث دائماً ، لاسيما اذا . . .
قاطعته يلينا :
— متى مرض ؟
— منذ امس الأول . وأنا هنا منذ امس . اعتمدي عليّ ، يلينا نيقولايفنا . لن ابتعد عنه ، وسنستخدم كل الوسائل . واذا اقتضى الامر استدعينا بعض الاطباء للتشاور .
صاحت وهي تلوي يديها :
— سيموت في غيابي .
— اعطيك عهداً بأن ابلغك كل يوم عن سير مرضه ، واذا نشأ خطر فعلي . . .
— احلف لي بانك سترسل عليّ في الحال ، في اي وقت كان ،

نهاراً او ليلاً ، اكتب مذكرة لي رأساً . . . كل شيء سواء لديّ الآن . هل تسمعني ؟ هل تَعِد بأن تفعل ذلك ؟

– اعدك ، امام الله .

– احلفْ .

– أحلفُ .

وفجأة امسكت يده ، وقبل ان يلحق ليسحبها ، وقعت عليها بشفتيها .

تمتم :

– يلينا نيقولايفنا . . . ما هذا منك .

نطق اينساروف بصوت غير واضح :

– لا . . . لا . . . لا حاجة . . .

وزفر زفرة ثقيلة .

اقتربت يلينا من البرافان ، وعضت المنديل باسنانها ، وحدقت في المريض فترة طويلة . وسالت دموع صامتة على خديها .

قال لها بيرسينيف :

– يلينا نيقولايفنا ، قد يعود الى وعيه ، ويعرفك ، والله يعلم ماذا سيسفر عن ذلك . وبالاضافة أنا اتوقع مجيء الطبيب من ساعة الى أخرى .

تناولت يلينا القبعة من الاريكة ، ولبستها ، وتوقفت . وطوفت عيناها في ارجاء الحجرة بأسى . والظاهر انها تذكرت شيئاً . . .

واخيراً همست :

– لا استطيع ان اخرج .

ضغط بيرسينيف على يدها ، وقال :

– استجمعي قواك ، واهدئي . انت تتركينه في رعايتي . واليوم مساء سأجيئ اليك .

نظرت يلينا اليه وقالت : «اوه ، يا صديقي الطيب !» واجهشت باكية ، وانصرفت مسرعة .

اتكأ بيرسينيف على الباب . وعصر قلبه شعور كئيب ومرير لا يخلو من فرحة غريبة . وفكر : «صديقي الطيب» ، وهز كتفيه .

تردد صوت اينساروف :

– مَنْ هنا ؟

اقترب بيرسينيف منه :

— أنا هنا ، يا دميتري نيكانوروفيتش . ماذا تحتاج ؟ كيف حالك ؟

سأل المريض :

— لوحدك ؟

— لوحدي .

— وهي ؟

قال بيرسينيف كالمذعور :

— مَنْ هي ؟

صمت اينساروف .

— البليحاء العطرية .

همس ، وانغلقت عيناه من جديد .

٢٦

كان اينساروف ثمانية ايام بلياليها بين الموت والحياة . وكان الطبيب يتردد دائماً مهتماً كشاب بحالة متعسرة . وسمع شوبين عن حالة اينساروف الخطرة .. وزاره ، كما زاره ابناء وطنه ، البلغار ، وعرف بيرسينيف من بينهم الشخصين الغريبين اللذين اثارا استغرابه بزيارتهما المفاجئة لاينساروف في البيت الريفي ، وكان الجميع يظهرون عطفهم الصادق ، واقترح بعضهم على بيرسينيف ان يحل محله في ملازمة سرير المريض ، ولكنه لم يوافق متذكراً وعده ليلينا . وكان يراها كل يوم ، وينقل لها خلسة — شفاهاً احياناً ، وفي مذكرة صغيرة احياناً اخرى — كل دقائق سير المرض . كانت تنتظره واجمة القلب ، وتصغي اليه ، وتمطره بالاسئلة بلهفة ! وكانت طوال الوقت تريد ان تزور اينساروف ، ولكن بيرسينيف يتوسل اليها ان لا تفعل ذلك لأن اينساروف نادراً ما يكون وحده . وفي اليوم الأول ، الذي عرفت فيه بمرضه ، كادت هي الاخرى ان تقع عليلة . حالما عادت اغلقت عليها باب حجرتها . ولكنها دعيت لتناول الغداء ، فجاءت الى غرفة الطعام بوجه ارعب آنا فاسيليفنا ، فأرادت هذه ان تجبرها على ملازمة السرير . الا ان يلينا استطاعت ان تغلب نفسها . وكانت تقول لنفسها : «ان يمت

فسأمت انا ايضاً» . وهدأتها هذه الفكرة ، ومدّتها بالقوة لان تبدو غير مكترثة . وعلى العموم لم يزعجها احد كثيراً . كانت آنا فاسيليفنا مشغولة بخراجاتها . وكان شوبين منكباً على عمله بحماس ، وابدت زويا سوداوية ، وتهيأت لتقرأ «آلام فرتر» (٢٧) . وكان نيقولاي ارتيميفيتش منزعجاً جداً من زيارات «الطالب» المتكررة ، لاسيما وان «مخططاته» بشأن كورناتوفسكي لم تتقدم كثيراً . فقد كان السكرتير الاول العملي هذا في حيرة من امره ، يترقب . ولم تشكر يلينا بيرسينيف ، فان هناك خدمات يخجل المرء ويرتعب من شكر صاحبها . وفي زيارة بيرسينيف الرابعة فقط (وكان اينساروف قد قضى ليلة سيئة جداً ، ولمّح الطبيب الى وجوب استدعاء بعض الاطباء للتشاور) ذكرته بالقسم الذي اقسمه . عندئذ قال لها «حسناً ، لنذهب ، في هذه الحال» ونهضت ، وذهبت لترتدي ملابس الخروج ، الا انه قال : «لا ، لننتظر حتى الغد» . وفي المساء حفت وطأة المرض على اينساروف .

استمر هذا التعذيب ثمانية ايام . وبدت يلينا هادئة ، ولكنها لم تستطع ان تأكل شيئاً ، ولم تنم في الليالي ، طغى على اطرافها كلها ألم ممض ، وبدا وكأن دخاناً ساخناً يملأ رأسها . وكانت خادمتها تقول عنها : «سيدتنا الشابة تذوب كالشمعة» .

واخيراً حدث التحول في اليوم التاسع . كانت يلينا تجلس في حجرة الجلوس قرب آنا فاسيليفنا ، تطالع جريدة «موسكوفسكيه فيدوموستي» دون ان تعي شيئاً . ودخل بيرسينيف . ونظرت يلينا اليه (وكم كانت سريعة ومتخوفة ونافذة وقلقة تلك النظرة الاولى التي تحدجه بها في كل مرة !) ولكنها حدست في الحال انه جاء بخبر سار . كان يبتسم ، ويهز رأسه لها قليلاً . فنهضت للقياه . همس لها :

— افاق على نفسه . وزال الخطر عنه . وبعد اسبوع سيكون متعافياً تماماً .

مدّت يلينا ذراعيها ، وكأنها تصد ضربة ، ولم تقل شيئاً . سوى أن شفتيها ارتعشتا ، وشاعت الحمرة في كل وجهها . اخذ بيرسينيف يتحدث الى آنا فاسيليفنا ، بينما ذهبت يلينا الى حجرتها ، وركعت ، وراحت تصلي ، تحمد الله على عقباه . . . وسالت من عينيها دموع خفيفة وضاءة . وفجأة احست بوصب تام ، فأرخت

رأسها على الوسادة ، وهمست «يا اندريه بيتروفيتش المسكين !» وغفت على الفور ، مبللة رموشها وخديها . ولم تكن قد نامت ولم تبك منذ زمن طويل .

٢٧

لم تتحقق كلمات بيرسينيف الا جزئياً . زال الخطر ، ولكن اينساروف كان يستعيد قواه ببطء ، وكان الطبيب يتحدث عن الهزة العميقة الشاملة التي اصابت كيانه كله . ومع كل هذا فقد غادر المريض فراشه ، وصار يسير في الحجرة . وكان بيرسينيف قد انتقل الى مسكنه ، ولكنه كان يزور كل يوم صديقه الذي ما يزال واهناً ، ويبلغ يلينا عن حالته الصحية كل يوم ، كما كان يفعل في السابق . وكان اينساروف لا يجسر على الكتابة اليها ، سوى انه كان يلمح اليها بشكل عابر في احاديثه مع بيرسينيف ، وكان هذا يحدثه ، بلامبالاة مصطنعة ، عن زياراته لآل ستاخوف ، محاولاً في الوقت ذاته ، ان يدعه يعلم بأن يلينا كانت في غم شديد ، وانها الآن قد اطمأنت . كما ان يلينا لم تكتب لاينساروف ، فقد كان يشغل ذهنها شيء آخر .

ذات مرة وكان بيرسينيف قد ابلغها لتوه والمرح باد على وجهه بان الطبيب سمح لاينساروف بأن يأكل كفتة ، ومن المحتمل أنه سيخرج عما قريب ، استغرقت يلينـــا في التفكير ، واطرقت برأسها . . . وقالت :

— احدس ماذا اريد ان اقول لك .

ارتبك بيرسينيف . لقد فهمها . نظر في ناحية واجاب :

— لعلك تريدين ان تقولي لي انك ترغبين في رؤيته .

احمرّت يلينا ، وقالت بصوت لا يكاد يُسمع :

— نعم .

— وليكن . اعتقد ان ذلك سهل عليك جداً .

وقال في سره : «اوف ! اي شعور مقزز يجثم على قلبي !»

قالت يلينا :

— تريد ان تقول انني من قبل ايضاً . . . ولكنني اخاف . فانت تقول انه الآن نادراً ما يكون لوحده .

قال بيرسينيف ، وهو ما يزال يتحاشى النظر اليها :
— ليس من الصعب مساعدتك في ذلك . بالطبع ، لا استطيع ان اعلمه مسبقاً ، ولكن اعطيني مذكرة . فمن يستطيع ان يمنعك من الكتابة اليه ، كواحد من معارفك القريبين ، تهتمين بمصيره ؟ لا شيء يلام عليه في هذه الكتابة . حددي له . . . اقصد اكتبي له متى ستزورينه . . .
همست يلينا :
— انا خجلة .
— اعطيني المذكرة ، وسأحملها اليه .
— لا حاجة الى ذلك . ولكن اردت ان اطلب اليك . . . لا تغضب عليّ ، اندريه بيتروفيتش . . . لا تذهب اليه غداً .
عض بيرسينيف على شفته .
— أها ! نعم ، فهمت ، حسن جداً ، حسن جداً .
وبعد ان اضاف كلمتين او ثلاثاً ، خرج بسرعة .
وراح يفكر ، وهو يسرع الى بيته : «هذا افضل ، افضل . لم اعرف شيئاً جديداً ، ومع ذلك افضل . فما حاجتي الى ان اتشبث بطرف عش لا يخصني ؟ لقد فعلت ما أملاه ضميري ، دون ان اندم على شيء . والآن كفى . هما وشأنهما ! كان ابي على حق ، حين كان يقول لي : «انا وانت ، يا اخ ، لسنا مترفين ولا ارستقراطيين ، ولا ممَنْ حباهم القدر والطبيعة ، ولا حتى شهيدين ، بل نحن كادحان ، ولا اكثر من كادحين . فالبس مئزرك الجلدي ، ايها الكادح ، والزم مكانك وراء الدكة ، في مشغلك المظلم ! واترك الشمس تضيئ للآخرين ! فان لحياتنا الكالحة فخرها ايضاً ، وسعادتها !»
في صباح اليوم التالي تلقى اينساروف عن طريق بريد المدينة مذكرة قصيرة كتبت يلينا فيها له : «انتظرني ، واطلب ان لا يَدخَل عليك أحد . اما أ . ب . فلن يأتي» .

٢٨

قرأ اينساروف مذكرة يلينا ، واخذ على الفور يرتب حجرته ، وطلب من ربة البيت أن تخرج قارورات الدواء ، وخلع روبــه

البيتي ، ولبس سترته . كان رأسه يدور وقلبه يخفق ضعفاً وفرحاً . وتراخت رجلاه ، فجلس على الاريكة ، واخذ ينظر في الساعة . قال لنفسه : «الساعة الآن الثانية عشرة الا ربعاً . ولا يمكنها ابداً ان تأتي قبل الثانية عشرة ، فلأفكر في شيء آخر خلال ربع الساعة هذا . والا فلن اتحمل . لا يمكنها ابداً ان تأتي قبل الثانية عشرة . . .»

وانفتح الباب ، ودخلت يلينا مع الحفيف الخفيف من ثوبها الحريري ، شاحبة تماماً ، نضرة كلياً ، فتية ، سعيدة ، وارتمت على صدره بصيحة فرح ضعيفة . وقالت ، وهي تعانقه ، وتداعب رأسه :

– انت حي ، انت لي .

وجمد كلية ، واحتبست انفاسه من قربها منه ، ومن ملامساتها له ، ومن هذه السعادة .

جلست بالقرب منه ، وانكمشت عليه ، وراحت تحدق فيه بتلك النظرة الضاحكة الناعمة الحنون ، التي لا تتألق الا في عيون العاشقات .

وعلا وجهها حزن مفاجئ ، وقالت وهي تمرر يدها على خده :

– كم نحلت ، يا مسكيني دميتري ! واية لحية لك !

اجابها وهو يمس اصابعها بشفتيه :

– وانت ايضاً ، نحفت ، يا مسكينتي يلينا .

هزت خصلاتها بمرح .

– لا بأس . سترى كيف سنمتلئ صحة ! هبت عاصفة ، كما في ذلك اليوم الذي التقينا فيه في الصومعة . هبت وانقشعت . والآن سنعيش !

لم يجبها الا بابتسامة .

– آه ، يا دميتري ، أية أيام ، أية أيام قاسية ! كيف يستطيع الناس أن يعيشوا اطول من الذين يحبونهم ؟ والحق انني كنت أعرف مسبقاً ما سيقوله اندريه بيتروفيتش كل مرة . فقد كانت حياتي تهبط وترتفع مع حياتك . حُيِّيت ، يا عزيزي دميتري !

ولم يعرف ماذا يقول لها . كان يود لو يركع على قدميها . استطردت ، وهي تدفع شعره الى الوراء :

– ولاحظت ايضاً (خرجت بالكثير من الملاحظات ، طوال هذه المدة ، اثناء فراغي) عندما يكون الانسان تعيساً جداً ، جداً ، ينتبه بعمق الى كل ما يجري حوله ! احياناً ، اذا اردت الحقيقة ، كنت اتمعن في ذبابة ، بينما تسري في روحي برودة ورعب ! ولكن كل ذلك ولى وانقضى . اليس كذلك ؟ وكل شيء نير مستقبلاً . أليس كذلك ؟

اجاب اينساروف :

– انت لي مستقبلاً ، فكل شيء نيّر في وجهي .

– وانت لى ايضاً ! أتذكر عندما كنت عندك ، ليس في المرة الاخيرة ، لا ، ليس في المرة الاخيرة – كررت في ارتعاشة لاارادية – عندما كنا نتحدث سوية ، لا ادري لماذا خطر الموت على بالي ، ولم اكن اتوجس بانه كان يترصد خطانا . ولكنك الآن معافى ، أليس كذلك ؟

– احس بتحسن شديد ، معافى تقريباً .

– انت معافى ، ولم تمت . آه ، ما اسعدني !

وساد صمت قصير . ناداها اينساروف متسائلاً :

– يلينا ؟

– ماذا ، يا عزيزي ؟

– قولي لي ، ألم يخطر في ذهنك ان هذا المرض جاء عقاباً لنا ؟

نظرت يلينا اليه نظرة جادة :

– خطرت لي هذه الفكرة ، يا دميتري . غير انني فكرت على اي شيء أعاقب ؟ وبأي واجب فرّطت ، وبحق اي شيء اجرمت ؟ ربما لم يكن ضميري كضمائر الآخرين ، ولكنه لم يحاسبني ، او ربما كنت مذنبة ازاءك ؟ فأنا ساعيقك ، اوقفك . . .

– انت لن توقفيني ، يلينا ، سنسير سوية .

– نعم ، دميتري ، سنسير سوية ، سأسير وراءك . . . ذلك واجبي . أنا احبك ، ولا اعرف واجباً آخر .

قال اينساروف :

– آه ، يلينا ! بأية سلاسل لا تقهر تطوقني كل كلمة تقولينها !

فانبرت تقول :

9*

– ولِمَ تقول سلاسل ؟ نحن أحرار ، انت وانا . اجل – مضت تقول ، ناظرة ، في سهوم الى الارض ، وهي تسوي شعره بيد واحدة ، كالسابق – ذقت في المدة الاخيرة ، الكثير مما لم تكن لي اية فكرة عنه من قبل . لو ان احداً تكهن لي في الماضي بانني ، أنا المهذبة الحسنة التربية من عائلة الاسياد سأخرج لوحدي من البيت بذرائع مختلفة مختلقة ، والى أين ؟ الى شاب في مسكنه ، لاحسست بحنق شديد ! وكل هذا قد تحقق ، ولم اشعر باي حنق ، وحق الرب !

قالت هذا والتفتت الى اينساروف .

كان ينظر اليها بهناءة عظيمة ، حتى انها ارخت يدها بهدوء وانزلتها من شعره الى عينيه . وانشأت تقول :

– دميتري ، انت لا تعرف انني رأيتك مطروحاً على ذلك السرير المريع ، – رأيتك بين براثن الموت ، فاقد الوعي . . .

– رأيتني ؟

– نعم .

صمت لحظة .

– وبيرسينيف كان هنا ؟

هزّت رأسها . انحنى اينساروف نحوها ، وهمس :

– آه ، يلينا ! انا لا اجسر على النظر اليك .

– ولماذا ؟ اندريه بيتروفيتش طيب جداً ، ولم اخجل منه . ولماذا اخجل ؟ انا مستعدة لأن اعلن للدنيا كلها بأنني لك . . . وانا أثق باندريه بيتروفيتش ، كأخ .

هتف اينساروف :

– هو الذي انقذني . انه انبل الناس خلقاً ، واكثرهم طيبة !

– نعم . . . وهل تعرف انني مدينة اليه بكل شيء ؟ هل تعرف انه هو اول من قال لي بأنك تحبني ؟ ليتني استطيع ان اكشف كل شيء . . . نعم ، انه انبل الناس خلقاً .

حدق اينساروف في يلينا بتفرس .

– انه مغرم بك ، أليس كذلك ؟

قالت منكسة الرأس ، خافتة الصوت :

– نعم ، كان يحبني .

ضغط اينساروف على يدها بقوة وقال :

— اوه ، ايها الروس ، ان لكم قلوباً من ذهب ! وكان يرعاني ، ولم ينم الليالي . . . وانت ، وانت ، يا ملاكي . . . لا تأنيب ، ولا تردد ، وكل ذلك لي ، لي . . .

— نعم ، نعم ، كل شيء لك ، لانني احبك . آه ، دميتري ! ما اغرب ذلك ! يبدو لي انني حدثتك بذلك من قبل ، ومع هذا يطيب لي ان اكرره ، وسيطيب لك ايضاً سماعه . عندما رأيتك لاول مرة . . .

قاطعها اينساروف قائلاً :

— ولماذا الدموع في عينيك ؟

— الدموع ؟ في عيني ؟ — ومسحت عينيها بالمنديل — اوه ، ما احمقك ! انت لا تعرف حتى الآن ان الناس تبكي من فرط السعادة . كنت اريد ان اقول لك : عندما رأيتك لأول مرة ، لم اجد فيك شيئاً يلفت النظر ، حقاً . اتذكر ان شوبين ، في البداية ، كان يروق لي اكثر منك بكثير ، ولكنني لم احببه قط ، اما اندريه بيتروفيتش ، اوه ! مرّت برهة فكرت فيها : ربما هو سيكون من نصيبي ؟ اما عنك فلم افكر في شيء . ولكن ، فيما بعد ، فيما بعد . . . اخذتَ قلبي بكلتا يديك .

قال اينساروف :

— اشفقي عليّ . . .

واراد ان ينهض ، ولكنه انهدّ على الاريكة في اللحظة التالية .

سألته مهتمة :

— ماذا بك ؟

— لا شيء . . . ما زلت ضعيفاً . . . وهذه السعادة ليست في حدود طاقتي الآن .

— اذن ، اجلس بهدوء . لا تتحرك ، ولا تنفعل — اضافت متوعدة اياه باصبعها : — ولماذا خلعت روبك البيتي ؟ ما زال الوقت مبكراً لتتغندر ! اجلس ، وسأروي لك الحكايات . فاسمع ، ولا تقل شيئاً . الكلام الكثير مضر لك بعد المرض . . .

واخذت تحدثه عن شوبين ، وعن كورناتافسكي ، وعما فعلته في الاسبوعين الاخيرين ، وعن حتمية الحرب ، حسب اقوال الصحف ، وبالتالي سيتعين ، حالما يسترد صحته تماماً ، ايجاد السبل

للسفر ، دون تضييع الوقت . . . وكانت تقول كل ذلك ، وهي جالسة الى جانبه ، مستندة الى كتفه .

كان يسمعها ووجهه يشحب تارة ويحمر اخرى . . . وحاول ان يوقفها اكثر من مرة ، ثم رفع جذعه فجأة . قال لها بصوت غريب حاد :

— اتركيني ، يلينا ، واذهبي .

فردت باندهاش :

— كيف ؟ — ثم اضافت بسرعة — هل تحس بتوعك ؟

— لا . . . انا في حالة جيدة . . . ولكن اتركيني ، ارجوك .

— انا لا افهمك . . . هل تطردني ؟ . . ما هذا الذي تفعله ؟ — قالت فجأة ، وقد رأته ينزلق من الاريكة الى الأرض تقريباً ، ويمس قدميها بشفتيه : — لا تفعل ذلك ، دميتري . . . دميتري . . .

رفع جسمه عن الارض .

— اتركيني ، اذن ! عندما وقعت مريضاً ، لم افقد الوعي رأساً ، وكنت احس بانني على شفا الموت ، حتى وأنا في وهج الحمى ، في حالة الهذيان ، كنت ادرك ، اشعر بشكل مبهم بأن الموت مقبل عليّ ، فاخذت اودع الحياة ، اودعك ، اودع كل شيء ، وتخليت عن الامل . . . وفجأة يأتيني هذا البعث ، هذا النور بعد الظلمة ، انت . . . انت بالقرب مني في حجرتي . . . صوتك ، انفاسك . . . هذا اكثر مما تتحمله قواي ! اشعر بانني احبك بدنف ، واسمعك تقولين انك لي ، انا لا اتحمل هذا . . . اخرجي !

— دميتري . . .

همست يلينا ، وخبأت رأسها في كتفه . الآن فقط فهمته .

ومضى اينساروف يقول :

— يلينا ، احبك ، وانت تعرفين ذلك ، وانا مستعد الى التخلي عن حياتي فداء لك . . . لِمَ جئت اليّ اليوم ، وانا واهن القوى ، ولا استطيع السيطرة على نفسي ، ودمي كله يحترق . . . تقولين انت لي . . . انت تحبينني . . .

— دميتري .

عادت تناديه ، واحمرت كلية ، وانكمشت عليه اكثر .

— يجب ان تشفقي عليّ ، وتخرجي ، يلينا .. انا اشعر ، بأن من الممكن ان اموت . . . لا اتحمل هذه السورات . . . روحي

كلها تصبو اليك . . . فكري في ان الموت كاد يفرق بيننا . . .
والآن ، انت هنا ، في احضاني . . . يلينا .. . .
واخذت تهتز بكل جسدها . وهمست بصوت لا تكاد يسمع :
– خذني ، اذن . . .

٣٩

كان نيقولاي ارتيميفيتش مقطب الحاجبين يتمشى في مكتبه جيئة وذهوباً . وكان شوبين يجلس عند النافذة ، ويدخن سيغاراً بهدوء ، واضعاً رجلاً على رجل . وقال وهو ينفض رماد السيغار :

– ارجوك ، كفّ عن الرواح والمجيء . طول الوقت اتوقع ان تتكلم ، واراقب حركاتك ، حتى ان رقبتي اخذت تؤلمني ، فضلاً عن ان في مشيتك شيئاً متوتراً ميلودرامياً .

اجابه نيقولاي ارتيميفيتش :

– لا شيء لك غير المزاح . انت لا تريد ان تفهم وضعي ، لا تريد ان تفهم انني تعودت على تلك المرأة ، وارتبطت بها وان غيابها اخيراً يعذبني لا محالة . ها هو تشرين الاول والشتاء على الابواب . . . فماذا يمكن ان تفعل في بقائها هذه المدة في ريفيل ؟

– ربما تحوك جورباً لها ، لنفسها ، لا لك .

– اهزل ، اهزل ، ولكنني اقول لك انني لا اعرف امرأة مثلها قط في النقاء والنزاهة . . .

فسأله شوبين :

– هل اعطت سنداً يكفل دفع ما يترتب على ذلك ؟

كرر نيقولاي ارتيميفيتش رافعاً صوته :

– هذه النزاهة شيء مذهل . يقولون لي ان في العالم مليون امرأة اخرى ، فاقول لهم : دلوني اين هذا المليون ، ودلوني اين هذا المليون ، ودلوني اين هذا المليون اقول – ces femmes * qu'on me les montre ! والذي يقتل أنها لا تكتب !

قال شوبين :

---

* دعهم يدلونني على هؤلاء النساء ! (بالفرنسية في الاصل) .

— انت بليغ اللسان ، مثل فيثاغورس (٢٨) . ولكن هل تدري بماذا انصحك ؟

— بماذا ؟

— حين تعود افغوستينا خريستيانوفنا . . . اتفهمني ؟

— اي نعم ، وبعد ؟

— حين تراها . . . هل تلاحظ تطور افكاري ؟

— اي ، نعم ، نعم .

— حاول أن تضربها ، لتعرف ماذا يحصل من ذلك ؟

استدار نيقولاي ارتيميفيتش بسخط .

— ظننت ان سيقدم لي ، بالفعل ، نصيحة مجدية . ولكن ماذا تتوقع منه ! فنان ، انسان بلا اصول . . .

— بلا اصول ! ويقال ان محبوبك السيد كورناتوفسكي انسان صاحب اصول ، ربح منك يوم امس مائة روبل فضي . وهذا عمل غير لائق ، ارجو ان توافقني على ذلك .

— وماذا في ذلك ؟ كنا نلعب للربح . بالطبع ، كان من الممكن ان اتوقع . . . ولكنه لا يُقدَّر في هذا البيت كثيراً . . .

سارع شوبين ليقول :

— حيث راح يفكر : «مَنْ يدري ! هل سيكون نسيبي ام لا ، فذلك رهن بالاقدار ، ولكن المائة روبل تنفع لرجل لا يأخذ رشوة» .

— نسيب ! اي نسيب انا ؟ * Vous rêvez, mon cher بالطبع ، مثل هذا الخطيب كان من الممكن ان يكون مسرة لكل فتاة اخرى . حكّمْ نفسك : انه انسان نشيط ، ذكي ، عصامي ارتقى بنفسه ، كان يعمل في وظيفة في ولايتين . . .

قال شوبين :

— في ولاية . . . كان يضلل الحاكم .

— من المحتمل جداً . وهذا ، في الظاهر ، ما كان ينبغي ان يفعل . انه واقعي ، رجل عمل . . .

فعاد شوبين يقول :

— ويجيد لعب الورق .

— اي نعم ، ويجيد لعب الورق . ولكن يلينا نيقولايفنا . . . هل ممكن فهمها حقاً ؟ اود ان اعرف اين ذلك الرجل الذي يستطيع

* انت تهذي ، يا عزيزي (بالفرنسية في الاصل) .

ان يفهم ما تريد ؟ مرحة تارة ، وضجرة اخرى ، تنحف فجأة بحيث لا تقوى على النظر اليها ، ثم واذا بها تصح ، وكل ذلك بدون اي سبب ظاهر . . .

دخل خادم دميم يحمل على صينية فنجان قهوة وطاسة من الحليب وبقسماطاً .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول ملوحاً ببقسماطة :

— الاب معجب بالخطيب ، والابنة لا تعير التفاتاً لذلك ! كان الأمر مضبوطاً في الازمنة البطريقية السالفة ، اما الآن فقد غيرنا كل شيء * Nous avons changé tout ça . الآنسة الآن تتحدث الى كل مَنْ يطيب لها ، وتقرأ كل ما يطيب لها ، تطوف وحدها في موسكو ، بدون خادم ، ولا وصيفة ، كما في باريس . وكل ذلك مقبول . قبل ايام سألت : اين يلينا نيقولايفنا ؟ فقيل لي : انها خرجت . الى اين ؟ لا احد يعرف . هل هذا هو النظام ؟

قال شوبين :

— خذ الفنجان ، واتـــرك الخادم يذهب — ثم اضاف بصوت خافض — انت نفسك تقول لا يجوز * * devant les domestiques .

نظر الخادم الى شوبين من طرف عينـــــه ، وتناول نيقولاي ارتيميفيتش الفنجان ، واضاف شيئاً من الحليب ، وغرف زهاء عشر بقسماطات . وحالما خرج الخادم اخذ يقول :

— اردت ان اقول ان لا اهمية لي في هذا البيت . وهذا كل ما في الامر . لان الناس في عهدنا لا يحكمون الا بالمظاهر . فاذا رأوا شخصاً يشمخ بنفسه احترموه ، وان كان فارغاً احمق . اما صاحب المواهب ، الذي ربما يجلب النفع العميم ، فانهم لتواضعه . . .

سأله شوبين بصوت نحيل :

— هل انت رجل دولة ، يا صغيري نيقولاي ؟

هتف نيقولاي ارتيميفيتش مهتاجاً :

— كفاك مسخرة ! انت تتجاوز حدك ! هذا شاهد آخر على انني لا اعني شيئاً في هذا البيت ، لا شيء على الاطلاق !

قال شوبين متمطياً جذعه :

— آنا فاسيليفنا تضيق عليك ! . . يا للمسكين ! آه ، يا

---

* فقد غيرنا كل شيء . (بالفرنسية في الاصل) .

* * امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

نيقولاي ارتيميفيتش ، عيب علينا انا وانت ! كان من الافضل ان تهيئ هدية ما لآنا فاسيليفنا . فسيحل عيد ميلادها بعد ايام ، وانت تعرف انها تعتز باي اهتمام صغير يبدى من جانبك .

اسرع نيقولاي ارتيميفيتش ليقول :

– نعم . نعم . شكراً جزيلاً على تذكيرك لي . بالطبع ، بالطبع ، من كل بد . عندي شيء لا بأس به ، قلادة اشتريتها من محل روزينشتراوخ قبل ايام ، ولكن لست ادري ، هل ستناسبها ؟

– لكنك اشتريتها لتلك التي تعيش في ريفيل ؟

– اقصد . . انا . . . نعم . . . كنت اتصور . . .

– في هذه الحال ستصلح بالتأكيد .

نهض شوبين من مقعده ، فسأله نيقولاي ارتيميفيتش محدقاً في عينيه بلطف :

– اين ستقضي المساء ، يا بافل ياكوفليفيتش ؟ ها ؟

– ولكنك ستذهب الى النادي .

– بعد النادي . . . بعد النادي .

تمطى شوبين مرة اخرى .

– لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، عليّ ان اعمل في الغد . في مرة اخرى . وخرج .

تعبّس نيقولاي ارتيميفيتش ، وذرع الحجرة مرة او مرتين ، واخرج من مكتبه علبة مخملية فيها «القلادة» ، وتمعّن فيها طويلاً ، ومسحها بمنديل حريري . ثم جلس الى المرآة ، وراح يمشط شعره الاسود الكثيف بعناية ، مميلا رأسه بعظمة تارة الى اليمين ، وتارة الى الشمال ، ممطياً خده بطرف لسانه ، دون ان يصرف بصره عن مفرق الشعر . سعل احد وراء ظهره . التفت فرأى الخادم الذي جاءه بالقهوة . سأله :

– لِمَ انت هنا ؟

قال الخادم بنبرة فيها شيء من المهابة :

– نيقولاي ارتيميفيتش ! انت سيدنا !

– اعرف ، وماذا بعد ؟

– نيقولاي ارتيميفيتش ، ارجو الا تغضب عليّ . انا الذي اخدم سيادتك ، منذ الصغر ، اقصد من واجبي كعبد لك ان اخبر سيادتك . . .

— ولكن ماذا في الأمر ؟
راوح الخادم في مكانه ، وقال :
— سمعت سيادتك تقول انك لا تعرف الى اين تذهب يلينا نيقولايفنا . ولكنني صرت اعرف الى اين .
— ألعلك تكذب ، ايها الاحمق ؟ !
— انا رهن ارادتك ، ولكنني منذ اربعة ايام وانا أراها تدخل في بيت غريب .
— اين ؟ كيف ؟ في اي بيت ؟
— في زقاق . . . قرب شارع بوفارسكيا . غير بعيد عن هنا . وقد سألت البواب عن الذين يسكنون البيت .
ضرب نيقولاي ارتيميفيتش الارض بقدميه :
— اسكت ، ايها الارعن ! كيف تجسر على ذلك ؟ يلينا نيقولايفنا تزور المساكين لأن قلبها طيب . وها انت . . . اخرج ، ايهـا الاحمق !
اندفع الخادم نحو الباب مرعوباً . وهتف نيقولاي ارتيميفيتش :
— توقف ! ماذا قال لك البواب ؟
— لا . . . لم يقـل شيئاً . . . يقول انه . . . طا . . . لب . . .
— اسكت ، ايها الارعن ! اسمع ، يا وغد ، حذار ان تقول شيئاً عن ذلك ، حتى في منامك . . .
— ارجو المعذرة . . .
— اسكت ! حتى لو انك المحت . . . لو أن احداً . . . لو أعرف . . . لن تختفي عني ولو تحت الارض ! هل انت سامع ؟ اغرب عن وجهي !
واختفى الخادم .
وفكر نيقولاي ارتيميفيتش حين بقي وحيداً :
«يارب ، يا إلهي ! ما يعني هذا ؟ ماذا قال لي هذا الاحمق ؟ ها ؟ على كل حال ، يجب ان اعرف اين هذا البيت ، ومن يعيش فيه . اذهب بنفسي . الى هذه الحال وصل الأمر ، اخيراً . . « Un laquais ! Quelle humiliation. . . ! »*

* خادم ! اي احتقار ! (بالفرنسية في الاصل) .



وكرر «Un laquais!» بصوت عال ، واغلق المكتب على القلادة ، وذهب الى آنا فاسيليفنا . فوجدها في السرير ، معصوبة الخد . ولكن مظهرها المعذب لم يزده الا حنقاً ، وبعد وقت قصير جداً جعلها تبكي .

٣٠

وفي غضون ذلك انفجرت الزوبعة التي كانت تتجمع في الشرق ، واعلنت تركيا الحرب على روسيا . وانتهى الموعد الذي حدد للجلاء عن الامارتين ، ولم يكن يوم الهزيمة في سينوب (٢٩) بعيداً . وكانت الرسائل الاخيرة التي تسلمها اينساروف تدعوه الى المجيء الى الوطن بالحاح . وصحته ما تزال معتلة . كان يسعل ، ويشعر بوهن ، وبنوبات خفيفة من الحمى . ولكن لم يكن يستقر في بيته تقريباً . كانت نفسه تلتهب ، فلم يعد يفكر في المرض . وكان يتنقل في موسكو باستمرار ، ويجتمع خلسة باشخاص مختلفين ، ويكتب في ليال بطولها ، ويغيب نهارات كاملة ، وابلغ صاحب البيت بأنه سيترك البيت قريباً ، واهدى له مسبقاً اثاثه البسيط . كما كانت يلينا تتهيأ للسفر من جانبها . وفي احدى الامسيات الممطرة كانت جالسة في حجرتها ، تخيط الحواشي لمناديلها ، وتستمع الى عويل الريح بجزع لاارادي . دخلت خادمتها ، وابلغتها بأن اباها يدعوها الى مخدع امها . وهمست لها ، وهي تغادر حجرتها : «ماما تبكي ، وبابا حانق . . .»

هزت يلينا كتفيها هزا خفيفاً ، ودخلت الى مخدع آنا فاسيليفنا . كانت عقيلة نيقولاي ارتيميفيتش الطيبة هذه تستلقي نصف استلقاءة على مقعد مسرّح ، وتتشمم منديلاً فيه رائحة كولونيا ، بينما كان ابوها يقف عند موقد الحائط مزرراً سترته بكاملها في ياقة منشاة جيداً ، وبرباط صلب عالٍ ، في هيئة تذكر بعض الشيء بخطيب برلماني . اشار لابنته بحركة خطابية من يده الى مقعد ، وحينما نظرت ابنته اليه نظرة متسائلة ، وهي لم تفهم اشارته ، قال بمهابة ، ولكن دون ان يدير رأسه : «تفضلن ، اجلسن» (ونيقولاي ارتيميفيتش يخاطب زوجته دائما بضمير

الجماعة ، وابنته بهذا الضمير في الحالات الاستثنائية) .
جلست يلينا .
تمخطت آنا فاسيليفنا بعبرة في الصوت . ووضع نيقولاي ارتيميفيتش يده اليمنى وراء طية سترته الفراك . وبعد صمت مطوّل قال :
— استدعيتك * ، يلينا نيقولايفنا لكي استفسر منك ، او بالاحرى ، لكي اطالبك باستيضاح . انا غير راض عنك ، او ، لا ، هذا خفيف جداً ، ان سلوكك يغمني كثيراً ، يسيىء اليّ والى امك ايضاً . . . امك التي ترينها هنا .
واطلق نيقولاي ارتيميفيتش نبرات صوته الجهيرة وحدها . نظرت يلينا اليه صامتة ، ثم الى آنا فاسيليفنا ، وشحبت .
ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :
— كان هناك حين من الدهر لم تكن فيه البنات ينظرن الى والديهن باستعلاء ، وكانت سلطة الوالدين تجعل العاصيات يرتجفن . وقد ولى ذلك العهد ، مع الاسف ، او هذا ، على اقل تقدير ، ما يظنه الكثيرون ، ولكن ما تزال هناك قوانين ، وارجو ان تصدقيني ، لا تبيح . . . لا تبيح . . . باختصار ما تزال توجد قوانين . وارجو ان تنتبهي الى ذلك ، توجد قوانين .
قالت يلينا :
— ولكن ، يا بابا . . .
— ارجو الا تقاطعيني . لنعد باذهاننا الى الماضي . . . لقد قمنا ، أنا وآنا فاسيليفنا ، بواجبنا . لم نبخل ، أنا وآنا فاسيليفنا بشيء لتعليمك ، لا من ناحية المصروفات ولا من ناحية الاهتمام . مسألة اخرى ماذا حصلت من كل هذه المصروفات وهذه الاهتمامات . ولكن كان لي الحق ان اتصور . . . كان لي ولآنا فاسيليفنا الحق في ان نتصور انك ستحافظين بقدسية على تلك القواعد الاخلاقية que nous vous avons inculqués ** كأبنة وحيدة لنا . . . كان لنا الحق في التصوّر بأن ايـة «افكار» جديدة لن تمسّ هذا الحرم المقدّس . فماذا حصل ؟ لم اعد اتحدث عن الطيش المتميز بهـا

* الضمائر في النص للجماعة ، ولكنها حذفت لتخفيف النطق . **المترجم** .
** التي دخلناها في ذهنك (بالفرنسية في الاصل) .

جنسك ، وعمرك ... ولكن مَنْ كان يتوقع انك تفقدين صوابك الى هذا الحد ...

قالت يلينا :

— بابا ، انا اعرف ماذا تريد ان تقول ...

— كلا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول ! — هتف نيقولاي ارتيميفيتش بصوت رفيع ، وتحول فجأة عن عظمة القيافة البرلمانية ، ومهابة الكلام المسترسل ، والنبرات الجهيرة الرنين — انت لا تعرفين ، ايتها الفتاة الجسور !

غمغمت آنا فاسيليفنا :

— Nicolas بحق الرب ، * Vous me faites mourir.

— لا تقولي لي * * que je vous fais mourir آنا فاسيليفنا . انت لن تتصوري ماذا ستسمعين الآن . هيئي نفسك لان تسمعي اسوأ من ذلك ، دعيني احذرك !

فتهافتت آنا فاسيليفنا مسترخية . وخاطب نيقولاي ارتيميفيتش ابنته :

— لا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول .

قالت :

— انا مقصّرة ازاءكما ...

— اخيراً ، اذن !

مضت يلينا تقول :

— انا مقصّرة ازاءكما . لانني لم اعترف منذ زمان ...

قاطعها نيقولاي ارتيميفيتش :

— ولكن هل تعرفين انني استطيع ان اقضي عليك بكلمة واحدة ؟

رفعت يلينا بصرها اليه .

— نعم ، يا سيدتي ، بكلمة واحدة ! فلا توجهي اليّ هذه النظرة ! (وصالب يديه على صدره) اسمحي لي بأن اسألك هل تعرفين البيت في زقاق ... قرب شارع بوفارسكيا ؟ وهل كنت ترددين على هذا البيت ؟ (ضرب الارض بقدمه) اجيبي ، ايتها

* انت تقتلني (بالفرنسية في الاصل) .

* * انني اقتلك (بالفرنسية في الاصل) .

السائبـــة ، ولا تحاولي التملص ! الخدم ، الخدم يا سيدتـــي des vils laquais * رأوك تدخلين هناك الى صاحبك . . .

احمرّت يلينا ، والتمعت عيناها . قالت :

— لا شيء احاول التملص منه . نعم ، كنت اتردد على هذا البيت .

— رائع ، هل تسمعين يا آنا فاسيليفنا ؟ ومن المحتمل انك تعرفين من يسكن هذا البيت ؟

— نعم ، اعرف ، انه زوجي . . .

بحلق نيقولاي ارتيميفيتش عينيه .

— زوجك . . .

كررت يلينا :

— زوجي . لقد تزوجت دميتري نيكانوروفيتش اينساروف .

قالت آنا فاسيليفنا بجهد وبصوت لا يكاد يسمع :

— انت ؟ تزوجت ؟

— نعم ، ماما . . .اعذريني . . . تزوجنا قبل اسبوعين ، سراً .

استلقت آنا فاسيليفنا على ظهر الكرسي ، وتراجع نيقولاي ارتيميفيتش خطوتين .

— تزوجت ! تزوجت ذلك الجبلي الاسود الفقير ! ابنة النبيل العريق نيقولاي ستاخوف تزوجت صعلوكاً ، لا اصل له ولا فصل ! دون مباركة الابوين ! وتظنين انني ساتركك وحالك ؟ ولا ارفـع شكوى ؟ واسمح لك . . . وانك . . . ان . . . سادخلك الى الدير ، وارسله هو الى الاعمال الشاقة ، الى فرق السجناء ! آنا فاسيليفنا قولي لها الآن من فضلك انك ستحرمينها من الميراث .

قالت آنا فاسيليفنا والانين في نبرة صوتها :

— نيقولاي ارتيميفيتش ، بحق الرب .

— متى وباية صورة تمّ ذلك ؟ مَنْ عقد قرانـــك ؟ اين ؟ كيف ؟ يا الَهي ! ماذا سيقول الآن معارفي كلهم ، الدنيا كلها . وانت ، ايتها المتصنعة العديمة الحياء استطعت ان تعيشي في كنف والديك بعد هذه الفعلة ! ولم تخافي غضب السماء ؟

---

* الخدم الحقراء (بالفرنسية في الاصل) .

— بابا — قالت يلينا (وكانت ترتعش من رأسها الى قدميها ، ولكن صوتها كان متماسكاً) افعل بي ما تشاء ، ولكن لا مبرر لك في اتهامي بعدم الحياء والتصنع . لم ارد ان اكدركما قبل الاوان ، ولكنني كنت ساضطر الى ابلاغكما عن كل شيء خلال ايام ، لاننا عزمنا على الرحيل أنا وزوجي في الاسبوع القادم .

— ترحلون ؟ الى اين ؟

— الى وطنه ، الى بلغاريا .

— الى الاتراك !

هتفت آنا فاسيليفنا ، وفقدت الوعي .

اندفعت يلينا الى أمها .

— ابتعدي ! — صرخ نيقولاي ارتيميفيتش ، وامسك ابنته من يدها — ابتعدي ، ايتها العاقة !

ولكن باب المخدع فتح في تلك اللحظة ، واطل رأس شاحب الوجه ذو عينين لامعتين . كان ذلك رأس شوبين . صرخ باعلى صوته :

— نيقولاي ارتيميفيتش ! افغوستينا خريستيانوفنا وصلت وهي تدعوك اليها !

التفت نيقولاي ارتيميفيتش بجنون ، وتوعد شوبين بقبضته ، وتوقف لحظة ، وخرج من الحجرة بسرعة .

سقطت يلينا على قدمي امها ، وطوقت ركبتيها .

كان اوفار ايفانوفيتش مستلقياً في سريره وقد طوّق رقبته الممتلئة قميص بلا ياقة له زر علوي كبير ، واسترخى على صدره الشبيه بصدور النسوة بطيات عريضة سارحة ، كاشفاً عن صليب كبير من خشب السرو ، وحجاب . وكان لحاف خفيف يغطي اطرافه الرحبة . والشمعة تشتعل باهتة على المنضدة الليلية الصغيرة ، قرب قدح كبير من الكفاس . وكان شوبين يجلس على السرير عند قدمي اوفار ايفانوفيتش مكسور الخاطر . كان يقول في تفكير :

— اجل ، تزوجت ، وتنوي السفر . وابن اخيك هدر ، وملأ البيت كله بالصياح ، واغلق عليه مخدعه ، للسرّية ، ولكن صوته كان يصل لا الى الخدم والوصيفات فقط ، بل والى السواقين

جميعاً ! وهو حتى الآن يزأر ويصهل ، وكاد يتعارك معي . يهدر بلعنة الابوة كما يهدر دب بقطعة خشب . ولكن ليست لديه القوة . وآنا فاسيليفنا منهارة ، ولكن سفر ابنتها يفتك بها اكثر بكثير من الزواج .

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه . وقال :

— أم . . . هذا . . . معلوم .

قال شوبين :

— ابن اخيك يهدد برفع القضية الى المطران ، الى المحافظ ، والى الوزير ، ولكنها ستسافر على اية حال . لا احد يطاوعه قلبه ليقتل ابنته ! سيزعق ويصيح ، ثم يسبل ذيله .

— ليس لهم . . . الحق .

قال اوفار ايفانوفيتش ، وشرب شيئاً من القدح .

— نعم ، نعم . ثم أية موجة من الادانات والاقاويل والشائعات ستسري في موسكو كلها . انها لا تخشاها . . . انها ارفع منها ، على العموم . ستسافر ، ولكن الى اين ؟ حتى التفكير في ذلك يرعب القلب . اى بقعة نائية ، مغمورة ! وماذا ينتظرها هناك ؟ اراها بعينَيْ خيالي طالعة من خان ، في الليل ، والعاصفة الثلجية ، ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر . تفارق وطنها ، وعائلتها ، ولكنني افهمها . فمن ستترك هنا ؟ مَنْ كانت ترى من الناس ؟ كورناتوفسكي وامثاله ، وبيرسينيف وامثاله ، وانا وامثالي ايضاً وهؤلاء ، على اية حال ، خيرة الناس . فعلى اي شيء تأسف هنا ؟ شيء واحد سيئ . يقال ان زوجها — اوه ، اللعنة ، اللسان غير متعود على النطق بهذه الكلمة — يقال ان اينساروف يسعل ويبصق دماً . وهذا سيئ . رأيته قبل ايام ، وجهه يصلح لان يصاغ منه بروتوس (٣٠) في الحال . . . هل تعرف من هو بروتوس ، اوفار ايفانوفيتش ؟

— وماذا لا يُعرف هنا ؟ انسان .

— بالضبط «كان انساناً» (٣١) . اجل . الوجه رائع ، سوى أنه عليل ، وعليل جداً .

قال اوفار ايفانوفيتش :

— لا يهم . . . سيقاتل . . .

— بالضبط ، لا يهم ، سيقاتل . انت اليوم منصف تماماً .

ولكن سيهم اذا كان الامر متعلقا بحياته . بينما هي تريد ان تعيش معه .

ردّ اوفار ايفانوفيتش :

— انهما شابان .

— نعم . انهما شابان وقضيتهما رائعة جريئة . الموت ، الحياة ، النضال ، السقوط ، الانتصار ، الحب ، الحرية ، الوطن ، كل ذلك جيد ، جيد ، وليهب الله ذلك لكل واحد منا ! وليس مثل البروك في مستنقع الى الاذقان ، والتظاهر بان الأمر لا يهمك ، وهو في الواقع لا يهمك ، من حيث الجوهر . بينما هناك الاوتار مشدودة ، فاما ان ترن للعالم كله ، او تنقطع !

والقى شوبين رأسه على صدره . وبعد صمت طويل مضى يقول :

— اجل ، اينساروف يستحقها . ولكن اي سخف هذا ! لا احد يستحقها . اينساروف . . . لِمَ هذا الخنوع الكاذب ؟ طيب ، لنفرض انه شاطر ، يستطيع ان ينافح عن نفسه ، رغم انه حتى الآن فعل ما فعلناه نحن ، الآثمين ، ولكن المسألة هل نحن تفاهة ميئوس منها ؟ طيب ، هل انا تفاهة ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ هل الرب جردني من كل شيء ؟ لم يعطني اية قابليات ، اية مواهب ؟ ومن يدري ، ربما سيكون اسم بافل شوبين ، مع مرور الزمن ، علماً من الاعلام ؟ ومن يدري ، ربما تلك القطعة النحاسية الزهيدة الموضوعة على منضدتك الآن قد تُعطى ، في يوم ما ، بعد مائة عام لنصب تمثال لبافل شوبين يقيمه ابناء ذريته تكريماً له ؟

اتكأ اوفار ايفانوفيتش على كوعـــــه ، وتفرس في الفنان المتأجج . واخيراً قال وهو يلاعب اصابعه كعادته :

— ظنّ بعيد . كنا نحكي عن الآخرين . . . واذا بك تنتقل الى الحديث عن نفسك .

هتف شوبين :

— ايها الفيلسوف العظيم للارض الروسية . كل كلمة من كلماتك ابريز خالص . والتمثال لا يجدر ان يقام ، لي ، بل لك ، وانا اتعهد لك بذلك . ها انت مستلق في وضع لا احد يعرف باي شيء مشبع اكثر : بالكسل ، بالقوة ؟ سألتُ لك تمثالاً بهذا الوضع . كنت محقاً جداً في تقريعك لانانيتي وغروري ! نعم !

نعم ! لا يجوز ان اتحدث عن نفسي ، لا ينبغي ان اتباهى . ما زلنا نفتقر الى الرجال ، مهما اطلت النظر ودققت . الجميع اما تافهون ، من القوارض ، وهاملتون صغار ، ومتوحسون ، واما جهلة في الحضيض الاسفل ، واما نافخو ابواق ، مهتمون بالصغائر ، وعصوات طبول ! كما ان هناك اناساً درسوا انفسهم بدقة مخزية ، يسبرون نبض كل احساس لهم دون انقطاع ، ويعلنون لانفسهم : هذا ما احسه ، هذا ما افكر فيه . . . يا له من شغل نافع عملي ! لا ، لو كان بيننا اناس حقيقيون لما انصرفت عنا تلك الفتاة ، تلك النفس المرهفة ، ولما انزلقت كما تنزلق سمكة في الماء ! ماذا يعني هذا كله ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ متى سيأتي زماننا ؟ متى سيولد عندنا اناس حقيقيون ؟

اجاب اوفار ايفانوفيتش :

— تمهّل وسيكونون .

— سيكونون ؟ يا تربة ! يا قوة الارض السوداء ! قلت : سيكونون ؟ احذر ، فساسجل كلمتك هذه . ولكن لماذا تطفىء الشمعة ؟

— انا نعسان ، مع السلامة !

٣١

كان شوبين صادقاً في قوله . كاد نبأ زواج يلينا المفاجىء يودي بحياة آنا فاسيليفنا . صارت طريحة الفراش . طالبها نيقولاي ارتيمفيتش بأن لا تسمح لابنتها بان تراها . وكان يبدو كالمبتهج بسنوح الفرصة لان يظهر نفسه رباً لبيته بالمعنى الكامل ، رأس عائلة متمتعاً بكامل السلطة . كان يهدر ويصيح بالخدم دون انقطاع ، ويقول من حين لآخر : «سأريكم مَنْ انا . ساجعلكم تعرفون ، فانتظروا !» وطوال ما هو موجود في البيت لم تكن آنا فاسيليفنا ترى يلينا ، وتكتفي بوجود زويا التي كانت تخدمها بعناية شديدة ، بينما هي تقول لنفسها : «Diesen Insaroff vorziehen — und wem!»* ولكن حالما كان نيقولاي ارتيميفيتش

* تفضيل اينساروف هذا — وعلى مَنْ ! (بالالمانية في الاصل) .

يترك البيت (وكان هذا كثيراً ما يحدث فقد عادت افغوستينـــا خريستيانوفنا ، بالفعل) حتى تذهب يلينا الى امها ، فتظل هذه تحدق فيها طويلاً وبصمت ، وعيناها مغرورقتان بالدموع . وكان هذا التأنيب الصامت ينفذ الى قلب يلينا اعمق من غيره . عندئذ لـــم تكن يلينا تشعر بالندم ، بل بشفقة عميقة لا حدود لها شبيهة بالندم .

وكانت تقول مقبّلة يديها :

– يا عزيزتي ، يا ماما . ماذا كان عليّ ان افعل ؟ انا لست مذنبة ، لقد احببته ، وما كان في امكاني ان اتصرف بغير هذا الشكل . اتهمي القدر ، فهو الذي ساقني الى رجل لا يروق لبابا ، رجل سيأخذني منك .

فكانت آنا فاسيليفنا تقاطعها قائلة :

– آه ! لا تذكريني بذلك . ما ان اتذكر الى اين ستسافرين حتى يغوص قلبي في صدري!

فتجيب يلينا :

– يا عزيزتي ماما . لتلهمك السلوان هذه الحقيقة على الاقل ، وهي ربما كان من الممكن ان يكون الامر اسوأ ، كأنْ اموت . .

– ولكنني بهذا الشكل ايضاً لا آمل في ان اراك بعد الآن . لانـــك ستنهين حياتك هناك ، في خُص في مكان ما (كانت آنــا فاسيليفنا تتصور بلغاريا كالتوندرا السيبيرية) او سيقتلني فراقك . . .

– لا تقولي هذا ، يا امي الطيبة ، سنلتقي ، بمشيئة الله . ثم ان في بلغاريا مدنا مثلما عندنا هنا .

– اي مدن عندهم ! الحرب قائمة الآن هناك ، واتصور ان المدافع تطلق في كل مكان ، اينما ذهبت . . . هل تنوين السفر قريباً ؟

– قريباً . . . ولكن ابي . . . انه يريد ان يرفع شكوى ، ويهدد بطلاقنا .

رفعت آنا فاسيليفنا بصرها الى السماء .

– لا ، يا عزيزتي يلينا ، لن يرفع شكوى . وما كنت انا ساوافق على هذا الزواج ابداً ، وافضل الموت عليه ، ولكن لا مردّ لما حصل ، ولن اتركه يشين ابنتي .

وبهذا الشكـــل انقضت عدة ايام . وفي آخر الامر تشجعت واختلت بزوجها في احدى الاماسي في مخدعها . وكان كل شيء في البيت قد هدأ واستقر . في البداية لم يُسمع شيء من هناك . ثم اخذ صوت نيقولاي ارتيميفيتش يطن ، وبعد ذلك نشأ جدال ، وارتفعت صيحات ، بل وتوهمت تأوهات . . . وتهيأ شوبين مع الوصيفات وزويا ان يهب مرة اخرى للنجدة . ولكن الضجـــة في المخدع اخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، وتتحول الى كلام ، وسكتت . من حين لآخر فقط كانت تتردد نشجات واهنة ، وحتى هذه تلاشت . ورنت مفاتيح ، وصدر صريف مكتب يفتح . . . وانفتح الباب ، وظهر نيقولاي ارتيميفيتش . نظر بصرامة الى جميع الذين التقاهم ، وتوجه الى النادي . واستدعت آنا فاسيليفنا ابنتها اليها ، وعانقتها بقوة ، وقالت ذارفة دموعاً مرة :

— كل شيء سُوّي . ولن يثير ضجة . ولا شيء الآن يعيقك عن السفر . . . وتركنا .

وسألت يلينا حالما هدأت الام قليلاً :

—هل تسمحين بأن يأتي دميتري لتقديم الشكر لك ؟

— انتظري قليلاً ، يا روحي ، لا استطيع الآن ان ارى هذا المفرق بيننا . . . سيتسنى لنا الوقت قبل السفر .

كررت يلينا باكتئاب :

— قبل السفر .

وافق نيقولاي ارتيميفيتش على ان لا «يثير ضجة» ، ولكن آنا فاسيليفنا لم تقل لابنتها باي ثمن اعطى موافقته . لم تقل لها انها وعدته ان تدفع كل ديونه ، كما سلمته الف روبل فضي نقداً . وفوق ذلك ابلغ آنا فاسيليفنا بشكل حاسم انه لا يريد ان يقابل اينساروف الذي مضى في نعته بالجبلي الاسود . وحين وصل الى النادي ، صار ، بدون اية ضرورة ، يتحدث عن زواج ابنته ، مع ملاعبه ، وهو مهندس متقاعد برتبة جنرال . قال بلا مبالاة متكلفة : «هل سمعت بأن ابنتي قد تزوجت طالباً بسبب ولوعها الشديد بالعلم» . نظر الجنرال اليه من خلال نظارته ، وهمهم «حم !» وسأله اي لعبة يلعب ؟

كان يوم الرحيل يقترب . وتشرين الثاني في ايامه الاخيرة والمواعيـــد الاخيرة تمضي . وكان اينساروف قد فرغ مـــن استعداداته منذ زمان ، وهو يتحرق شوقاً الى مغادرة موسكو باسرع وقت . وكان الطبيب يستعجله ايضاً ، ويقول له : «انت بحاجة الى طقس دافئ ، لن تسترد صحتك هنا» . وكانت اللهفة الى السفر تضني يلينا ايضاً ، فقد كان يفزعها شحوب اينساروف ، ونحوله . كانت غالباً ما تنظر الى ملامح وجهه المتغير بفزع لاارادي . ان وضعها في بيت والديها صار لا يطاق . كانت امها تنوح عليها ، وكأنما تنوح على ميتة ، وابوها يعاملها ببرود وازدراء . فقد كان هو الآخر يتعذب سراً من دنو الفراق . ولكن كان يرى من واجبه ، واجب اب مهان ، ان يخفي مشاعره ، ضعفه . واخيراً رغبت آنا فاسيليفنا في ان ترى اينساروف . اتوا به اليها خلسة ، ومن باب خلفي . وعندما دخل عليها غرفتها ، استعصى عليها الكلام معه وقتاً طويلاً ، بل ولم تستطع حتى ان تستجمع قواها وتنظر اليه . جلس بالقرب من كرسيها ، وانتظر باحترام هادئ حين بدأت تتحدث معه . وكانت يلينا تجلس هناك واضعة يد امها في يدها . واخيراً ، رفعت آنا فاسيليفنا بصرها ، وقالت : «الله يحاكمـــك ، يا دميتري نيكانوروفيتش . . .» وتوقفت ، وجمدت كلمات التأنيب على شفتيها .

وهتفت :

— ولكنك مريض . يلينا ، صاحبك مريض !

اجاب اينساروف :

— كنت مريضاً ، يا آنا فاسيليفنا . ولم استرد كل صحتي بعد . ولكن آمل أن هواء وطني سيشفيني تماماً .

غمغمت آنا فاسيليفنا :

— نعم . . . بلغاريا !

وفكرت مع نفسها : «الهي ، انه بلغاري ، يحتضر ، وصوته فاقد الرنين ، وعيناه خاويتان ، وجسده هيكل عظمي ، وسترته مترهلة على كتفيه ، وكأنها ليست سترتـــه ، ولونه اصفر

كالكركم . . . بينما هي زوجته ، تحبه . . . هذا مجرد حلم . . . »
الا انها تداركت الامر حالاً ، وقالت :
— دميتري نيكانوروفيتش . . . هل حتم ، حتم عليك ان تسافر ؟
— حتم ، آنا فاسيليفنا .
نظرت آنا فاسيليفنا اليه .
— آه ، دميتري نيكانوروفيتش ، ارجو من الله الا يجعلك تعاني ما اعانيه الآن . . . ولكنك تعدني بأن تصونها ، تحبها . . . ولن تشكوا عوزاً ما دمت أنا في الحياة !
وخنقت العبرات صوتها ، وبسطت ذراعيها ، وارتمت يلينا واينساروف عليها .

واخيراً جاء اليوم المحتوم . وجرى الاتفاق على ان تودع يلينا والديها في البيت ، وتبدأ سفرها من مسكن اينساروف . وعينت الساعة الثانية عشرة موعداً للانطلاق . وجاء بيرسينيف قبل الموعد بربع ساعة . فقد كان يظن انه سيجد ابناء وطن اينساروف الذين يرغبون في توديعه ، ولكنهم انصرفوا جميعاً قبل الموعد ، وانصرف كذلك الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارئ (كانا شاهدي الزواج لاينساروف) . استقبل الخياط «السيد الطبيب» بانحناءة احترام ، وكان سكران كثيراً ربما حزناً ، او ربما فرحاً لحصوله على الاثاث ، الا ان زوجته سرعان ما ابعدته . كان كل شيء في الحجرة قد رتب . وعلى الارض حقيبة مربوطـــة بحبل . وغرق بيرسينيف في افكاره . فلقد مرت في خاطره ذكريات عديدة .
دقت الساعة الثانية عشرة منذ وقت طويل ، والحوذي جاء بزلاجة السفر ، و«العروسان» لم يأتيا بعد . واخيراً ترددت خطوات عجول على الدرج ، ودخلت يلينا بصحبـــة اينساروف وشوبين . كانت عينا يلينا حمراوين ، فقــد تركت امها فاقدة الوعي . فقد كان الوداع شاقاً جداً . ولم تكن يلينـــا قد رأت بيرسينيف اكثر من اسبوع ، فقد صارت زيارته الى بيت ستاخوف نادرة في المدة الاخيرة . ولم تكن تتوقع ان تجده فهتفت : «انت هنا ! شكراً !» وارتمت عليه . وعانقه اينساروف ايضاً . وهبط

صمت مرهق . فماذا كان من الممكن ان يقول هؤلاء الثلاثة ، ماذا كانت تشعر هذه القلوب الثلاثة ؟ وادرك شوبين ضرورة الصوت الحيّ ، الكلمة التي تقطع هذا الارهاق . وانشأ يقول :

– واجتمع ثلاثتنا من جديد ، للمرة الاخيرة ! فلنخضع لمشيئة الاقدار ، لنذكر الماضي بالخير ، وليبارك الرب الحياة الجديدة وانشد – «وعلى بركة الله في الطريق الطويل» (٣٢) . وتوقف . احس فجأة بالخجل والحرج . فمن الاثم الغناء حيث يرقد المحتضر . وفي هذه الحجرة ، وفي هذه اللحظة ، كان يحتضر الماضي الذي ذكره ، ماضي الناس المجتمعين فيها . كان يحتضر لبعث حياة جديدة ، ولنقل ذلك . . . ولكنه كان يحتضر على اية حال .

قال اينساروف مخاطباً زوجته :

– حسناً ، يلينا . هذا كل شيء ، كما يبدو ؟ دُفع كل شيء ، وحزمت جميع الامتعة . بقي انزال هذه الحقيبة فقط . يا صاحب البيت !

دخل صاحب البيت الى الحجرة مع زوجته وابنته . واستمع الى ايعاز اينساروف متمايلاً قليلاً ، وطرح الحقيبة على كتفه ، وهبط الدرج الى الاسفل بسرعة ، طارقاً الارض بحذائه .

قال اينساروف :

– والآن لنجلس لحظة ، حسب العادة الروسية .

جلس الجميع . وقعد بيرسينيف على الاريكة القديمة ، وجلست يلينا بالقرب منه ، وانكمشت ربة البيت وابنتها على العتبة . والجميع صامتون ، والجميع يبتسمون بجهد ، ولا احد كان يعرف لِمَ يبتسم . كان كل واحد يود ان يقول شيئاً في الوداع ، وكان كل واحد (باستثناء صاحبة البيت وابنتها ، بالطبع ، حيث كانتا تحملقان لا غير) يشعر بأن في مثل هذه اللحظات ، لا يباح الا المبتذل من القول ، فان كل كلمة مهمة ، او ذكية ، او نابعة من القلب ، لا غير ، ستبدو في غير مكانها ، وكاذبة تقريباً . كان اينساروف اول من نهض ، وراح يرسم علامة الصليب ، وهتف : «وداعاً ، يا حجرتنا !»

وترددت قبلات رنانة ، ولكنها باردة ، قبلات فراق ، وتمنيات في سفر ميمون ، لم تقل كاملة ، وفي الوعد بالمراسلة ، وكلمات وداع اخيرة نصف مكتومة . . .

جلست يلينا في الزلاجة ، والدموع تغمر وجهها ، وغطى اينساروف قدميها بالسجادة بعناية . وكان الجميع واقفين على مدخل البيت : شوبين ، وبيرسينيف ، وصاحب البيت ، وصاحبته وابنتهما في المنديل الذي لا يفارق رأسها ، والبواب ، وحرفي عابر يرتدي روب عمل مخططاً . واذا بزلاجة مترفة تدخل الفناء فجأة يجرها حصان جيد سريـــع العَدو ، ويقفز منها نيقولاي ارتيميفيتش مزيحاً الثلج من ياقة معطفه . ويهتف وهو يدنو من زلاجة السفر راكضاً :

– حمداً لله على انني وجدتك لم ترحلي بعد . يلينا ، هذا لك ، بركتنا الابوية الاخيرة .

وادخل رأسه تحت سقف الزلاجة واخرج من جيب سترتـــه ايقونة صغيرة ، مخاطة بحافظة مخملية صغيرة ، ووضعها في رقبتها . انفجرت يلينا باكية ، وراحت تقبل يديه ، وخلال ذاك اخرج الحوذي من مقدمة الزلاجة زجاجة من الشمبانيا ، وثلاثـــة اقداح .

– طيب ! – قال نيقولاي ارتيميفيتش ، والدموع تقطر غزيرة على ياقة معطفه من فراء القُنْدس – يجب توديعكما . . . والتعبير عن التمنيات – واخذ يصب الشمبانيا ، ويداه ترتعشان ، وطفح الحَبب على الحوافي ، وسقط على الثلج . تناول قدحاً واعطى القدحين الاخرين ليلينا ولاينساروف الذي كان قد لحق ليجلس جنبها . وشرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– يعطيكما الله . . . – ولم يستطع ان يكمل . فشرب قدحه ، وشرب الآخران ايضاً – والآن ينبغي عليكما ، ايهـــا السيدان – اضاف مخاطباً بيرسينيف وشوبين ، ولكن الحوذي ساق الحصان في تلك اللحظة . ركض نيقولاي ارتيميفيتش قرب العربة . وراح يقول بصوت متقطع – لا تنسي ، اكتبي لنا . – اخرجت يلينا رأسها ، وقالت : «وداعاً ، بابا ، اندريه بيتروفيتش ، بافل ياكوفليفيتش ، وداعاً ، الجميع ، وداعاً ، يا روسيـــا !» وارتدت الى الخلف . لوّح الحوذي بسوطه ، وصفر ، وصرفت زلاجة السفر بمزلجتيها ، واستدارت من بوابة الفناء الى اليمين ، واختفت .

كان يوماً مشرقاً من ايام نيسان . وكان جندول حاد المقدمة يتمايل باتزان كلما دفع الجندولي مجذافه الطويل ، لينزلق في المنبسط المائي العريض الذي يفصل فينيسيا عن ليدو ، وهو الاسم الذي يطلق على شريط ضيــــق من رمل البحر المجروف . كانت يلينا واينساروف جالسين تحت سقفه الواطئ على نضد جلدية ناعمة .

لم تتغير قسمات وجه يلينا كثيراً منذ مغادرتها موسكو ، الا انها اكتسبت مسحة اخرى ، فكانت اكثر استغراقاً وصرامة ، وكانت عيناها اجسر . تفتح كل جسدها ، وبدا شعرها اكثر نعومة واكثر مؤطراً جبينها الابيض وخديها النضين . وشفتاها وحدهما ، حين لا تبتسمان ، تكشفان عن انشغال مستديم خفي يلوح كغضن لا يكاد يبين . اما اينساروف ، فبالعكس ، ظل تعبير وجهه كما كان ، الا ان ملامحه تغيرت بشدة . نحف ولاح عليه الكبر ، وشحب ، وتقوس ظهره بعض الشيء . وكان يسعل ، باستمرار تقريباً ، سعالاً قصيراً جافاً ، وكانت عيناه الغائرتان تلمعان لمعاناً غريباً . وكان في طريق سفره من روسيا ، قد اقعده المرض في الفراش ما يقارب الشهرين قضاهما في فينا . وفي نهاية آذار فقط وصل الى فينيسيا مع زوجته . وكان يأمل ان يسافر منها ، عبر زارا ، الى الصرب ، وبلغاريا . فكانت جميع الطرق الاخرى مغلقة عليه . وكانت الحرب ما تزال تهدر في الدانوب ، وقد اعلنت فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا ، وجميــــع الامصار السلافية مضطربة تتهيأ للانتفاضة (٣٣) .

رسا الجندول على الحافة الداخلية لليدو . وتوجهت يلينا واينساروف منها الى البحر ، خلال درب رملي ضيق ، غرست فيه اشجار عجفاء (تغرس كل عام ، وتموت كل عام) .

سارا بمحاذاة الساحل . وكان بحر الادرياتيك يسوق امامهما امواجه الزرقاء الكدرة مزبدة مرغية ، صاعدة هابطة مخلفة عــلى الرمل ، في تراجعها ، اصدافاً صغيرة ، ومزقـــاً من الاعشـــاب البحرية .

قالت يلينا :

– يا له من مكان مقبض ! اخشى ان يكون البرد هنا اكثر مما تتحمله . ولكنني حزرت لِمَ اردت ان تأتي الى هنا .

قال اينساروف بتكشيرة سريعة مريرة :

– برد ! ولكن اي جندي سأكون اذا اخاف من البرد . سأقول لك ، لماذا جئت الى هنا . انظر الى البحر ، واشعر وانا في هذه البقعة ، بأنني اقرب الى بلادي – واضاف ماداً ذراعه الى الشرق – فهي هناك . وهذه الريح قادمة من هناك .

قالت يلينا :

– الا تسوق هذه الريح تلك السفينة التي تنتظرها ؟ هناك شراع ابيض في الافق ، ألعله شراعها ؟

نظر اينساروف في المدى البحري ، الى حيث اشارت يلينـــا وقال :

– وعد ريندتيتش ان يرتب كل شيء لنا ، خلال اسبوع . يبدو ان الاعتماد عليه ممكن . هل سمعت ، يلينا – اضاف بحيوية مفاجئة – يقال ان الصيادين الفقراء في دالماسيا كانوا يتخلون عن تلك القطع الرصاصية الصغيرة التي تثقل الشباك وتنزلها الى القاع – ليصنعوا منها طلقات (٣٤) ! لم تكن لديهم نقود . كانوا يعيشون على صيد الاسماك وحده ، ولكنهم اعطوا آخر ما يملكون بفرح ، وهم يتضوّرون جوعاً الآن . اي اناس هؤلاء !

– Aufgepasst ! *

صدر هذا الصوت بعجرفة من الخلف . وترددت كركبة حوافر حصان خافتة الرنين ، ومرّ على فرسه ضابط نمساوي في سترة رمادية قصيرة ، وقبعة خضراء ذات ظليلة . . . وما كادا يلحقان ليتنحيا عن طريقه .

شيّعه اينساروف بنظره جهماً ، قالت يلينا :

– ليس ملوماً ، ليس لهم مكان آخر للتدريب على ركوب الخيل ، كما تعرف .

قال اينساروف :

– ليس ملوماً ، ولكنه اثار دمي بصيحته ، وشاربيه ، وقبعته العسكرية ، وبكل مظهره (٣٥) . لنعد .

---

* احترس ! (بالالمانية في الاصل) .

– لنعد ، دميتري . هناك تيار من الريح ، بالفعل . لم تحرص انت على نفسك ، بعد مرضك في موسكو ، فدفعت ثمن ذلك في فينا . يجب ان تكون اكثر حذراً ، الآن .

صمت اينساروف ، الا أن التكشيرة المريرة السابقة ، رفّت على شفتيه . وتابعت يلينا تقول :

– هل تريد أن نركب جندولاً في القناة الكبيرة ؟ نحن حتى الآن لم نر فينيسيا ، بشكل طيب . وفي المساء نذهب الى المسرح . عندي تذكرتان في المقصورة . يقال ان اوبرا جديدة تُعرض هناك . اتريد أن نُوقف هذا اليوم على انفسنا ، وننسى السياسة ، والحرب ، وكل شيء ، ولا نعرف الا شيئاً واحداً وهو اننا نعيش ، ونستنشق الهواء سوية ، ونفكر سوية ، واننا قد ارتبطنا الى الابد . . . هل تريد ؟

اجاب اينساروف :

– انت تريدين ذلك ، يا يلينا ، ومعنى ذلك انني اريده ايضاً .

قالت يلينا مبتسمة :

– كنت اعرف ذلك . لنذهب ، لنذهب .

وعادا الى الجندول ، وجلسا فيه ، وامرا الجندولي ان يسير بهما في القناة الكبيرة على مهل .

ومَنْ لم ير فينيسيا في نيسان لا يكاد يعرف فتنة هذه المدينة السحرية ، الفتنة التي تعز على الوصف . وداعة الربيع ونعومته تناسبان فينيسيا مثلما تناسب شمس الصيف الساطعة مدينة جنوى الرائعة ويناسب الخريف الذهبي القرمزي مدينة روما العظيمة ، العريقة . وجمال فينيسيا ، كالربيع ، يمس رغائب النفس ويوقظها ، ويداعب القلب الغرير ويناكده ، وكأنه وعد بسعادة دانية القطوف ليست لغزاً ، وان كانت مبهمة . كل ما في المدينة وضيئ ، قريب الى الفهم ، كل ما فيها مغشّى بنقاب ناعس من السكون العاشق . كل ما فيها صامت ، حَفيّ ، انثوي ابتداء من أسمها . فليس محض مصادفة ان يطلق عليها وحدها لقب «**الحسناء**» . عمائر قصورها وكنائسها تنتصب بخفة وروعة ، مثل حلم رهيف لآلهة شابة . هناك شيء سحري ، شيء غريب فتان في الالق الرمادي المخضوضر ، في الالتماعات الناعمة لموج قنواتها

الاخرس ، في سرحان جندولاتها الصموت ، في خلوها من اصوات المدن الخشنة ، ومن الطرّق الفظ ، والقرقعة ، والدندنة . ويقول لك اهل فينيسيا : «فينيسيا تحتضر . فينيسيا تُقفر» . ولكنها ربما كانت تفتقر الى هذه الفتنة الاخيرة . فتنة ذبول جمال في ذروة تفتحه وانتصاره . والذي لم يرها لا يعرفها . فلا كاناليتي ، ولا غواردي (٣٦) (ودع عنك الرسامين المحدثين) استطاع أن ينقل رقة الهواء الفضية هذه . ولا ذلك المرمى المتنائي والقريب ، ولا ذلك التناسق العجيب لأرشق الملامح والالوان الذائبة . ومَنْ ولّى زمانه ، وحطمتـــه الحياة لا داعي له ان يزور فينيسيـــا ، فستكون مريرة المذاق في ذهنه ، كذكرى احلام لم تتحقق في مطلع حياته . ولكنها ستكون حلوة المذاق لمن ما يزال العنفوان في اعطافه ، ولمن يشعر بالسعادة في ذات نفسه . فليأت بسعادته الى كنف سمائها الساحرة . وليغمرها ألقها الذهبي الآبد ، مهما يكن لسعادته من لألاء .

مرّ جندول اينساروف ويلينا رخياً بـ Riva dei Schiavoni * وبقصر الدوجي ** ، وبيادزيتا ، وخرج الى القناة الكبيرة . كانت القصور الرخامية تمتد على الجانبين ، فكانت تبدو وكأنها تمر عائمة بهدوء ، لا تكاد تتيح للمرء ان يشملها ببصره ويفهم كل محاسنها . كانت يلينا تشعر بسعادة غامرة . لم تكن في سماء قلبها اللازوردية غير سحابة داكنة واحدة ، وحتى هذه راحت تبتعد . لان اينساروف في هذا اليوم كان يشعر بتحسن اكثر . مضى بهما الجندول حتى طاق ريالتو العالي ، وعاد بهما . كانت يلينا تخشى برودة الكنائس على اينساروف ، ولكنها تذكرت اكاديمية delle Belle Arti *** (٣٧) ، وطلبت من الجندولي ان يأخذهما اليها . طافا في قاعات هذا المتحف الصغير بسرعة . ولم يتوقفا امام كل لوحة ، ولم يزحما نفسيهما ، وهما ليسا خبيرين في ذلك ، ولا متفيهقين . وغمرهما فرح نَضِر مفاجئ . فقد بدا لهما فجأة ان كل شيء مسلٍ جداً (الاطفال يعرفون هذا الشعور جيداً) . اثارت يلينا الغيظ الشديد

---

* كورنيش شيافوني (بالايطالية في الاصل) .
** رئيس جمهورية فينيسيا التجارية المنتخب مدى الحياة .
*** الفنون الجميلة (بالايطالية في الاصل) .

لثلاثة من الزوار الانجليز ، حين ضحكت ، حتى سالت دموعها ، من القديس ماركو لتينتوريتو (٣٨) ، وقد قفز من السماء كما تقفز الضفدعة الى الماء لينقذ عبداً من التعذيب . كما تهلل اينساروف بشراً ، من ناحيته ، حين رأى ظهر وربلتي الرجل النشيط في ازار أخضر ، وهو يقف في صدر لوحة تيتسان «الرفع» ، ماداً يديه في إثر العذراء . بينما العذراء نفسها ، وهي امرأة جميلة قوية ، مندفعة بسكينة وعظمة الى احضان الاله الأب ابهرت اينساروف ويلينا كليهما . كما اعجبتهما ايضاً لوحـــة الشيخ تشيما دا كونيليانو (٣٩) الصارمة القدسية . وعندما خرجا من الاكاديمية نظرا مرة اخرى الى الانجليز الثلاثة الذين خرجوا وراءهما باسنانهم الطويلة كاسنان الارانب ، وقذالاتهم المرتخية ، وضحكا . ورأيا صاحب الجندول الذي جاء بهما بسترته القصيرة وبنطلونه القصير ايضاً ، وضحكا . ورأيا بائعة قد لفّت شعرها الاشيب على شكل صرة صغيرة فوق يافوخها تماماً ، فضحكا اصدح من ذي قبل ، واخيراً نظر احدهما فى وجه الآخر ، وانفجرا ضاحكين . وحالما استقرا في الجندول ضم احدهما يد الآخر بقوة . ذهبا الى الفندق ، وهرعا الى حجرتهما ، وطلبا ان يجلب لهما الغداء فيها . ولـــم يزايلهما المرح ، وهما على مائدة الطعام . اطعم احدهما الآخر ، وشربا في صحة اصدقائهما في موسكو وصفّقا للحاجب ثناء على طبق السمك اللذيذ ، وراحا يلحان عليه لتقديم * frutti di mare حيّة ، هز الحاجب كتفيه ، وشحط بقدميه ، وهزّ رأسه لدى خروجه ، بل وهمس مرة في زفرة ! poveretti (مساكين !) . وبعد الغداء توجها الى المسرح .

في المسرح عرضت اوبرا لفيردي مبتذلة جداً ، اذا اردنـــا الصدق ، ولكنها استطاعت ان تطوف في مسارح اوربا كلها ، اوبرا مشهورة جداً عندنا ، نحن الروس ، وهي «ترافياتا» (٤٠) . كان الموسم قد انتهى في فينيسيا ، وجميع المغنين لم يرتفعوا عن المستوى الوسط ، وكان كل مغن يصرخ باعلى ما تستطيـــــع حنجرته . وقد مثلت دور فيوليتا ممثلة مغمورة ، لا يحبهـــا الجمهور كثيراً ، اذا حكمنا بالبرود الذي جوبهت به ، ولكنها لم

---

* ثمار البحر ، اي المحار المأكول . (بالايطالية في الاصل) .

تكن تخلو من موهبة . وكانت هذه فتاة شابة سوداء العينين وليست على حظ كبير من الجمال لها صوت غير متسق تماماً ، وتالف . وكانت في ملابس مزركشة الى حد السذاجة ، وبلا ذوق . كان شعرها مغطى بشبكة حمراء ، وفستانها من الاطلس الازرق الناصل يضغط على نهديها ، وقفازاها السويديان السميكان يصلان الى كوعيها المدببين ، ثم من أين لها أن تعرف ، وهي ابنة راع من رعاة برغامو ، كيف تلبس غادات الكاميليا الباريسيات ! كما انها لم تحسن الوقوف والحركة على المسرح . ولكن تمثيلها كان يحفل بالكثير من الصدق ، ومن البساطة الخالية من التحايل ، وكانت تغني بتلك العاطفية في التعبير والايقاع ، تلك التي يتميز بها الايطاليون وحدهم . كانت يلينا واينساروف جالسين لوحدهما في مقصورة مظلمة عند خشبة المسرح تماماً ، وهما ما يزالان تحت سيطرة ذلك المرح اللعوب الذي غمرهما في اكاديمية delle Belle Arti . وحين ظهر على المسرح والد الشاب التعيس الذي وقع في شراك الغاوية ، مرتدياً سترة فراك بلون الحمص ، وباروكة بيضاء منفوشة الشعر ، وفتح فمه باعوجاج ، وأطلق «ترميلو» * خفيضة النبرة كئيبة ، مرتبكاً هو نفسه ، قبل الاوان ، كادت ان تند منهما ضحكة . . . ولكن تمثيل فيوليتا أثر فيهما . قالت يلينا :

— لا يكاد أحد يصفق لهذه الفتاة المسكينة بينما انا افضلها الف مرة على اية شهيرة من الدرجة الثانية معتدة بنفسها كانت ستتلوى ، وتتثنى ، وتسعى طوال الوقت الى اثارة الاعجاب . اما هذه فتبدو وكأنها تشعر بحالها جدية . انظر اليها ، انها لا تلتفت الى الجمهور .

مال اينساروف الى حافة المقصورة ، وتفرس في فيوليتا . وقال :

— نعم ، انها لا تمزح . تتوجس الموت .

سكتت يلينا .

وبدأ الفصل الثالث . وارتفعت الستارة . . . وجفلت يلينا من مرأى السرير ، والستائر المسدلة ، وقارورات الدواء ، والمصباح

---

* ارتعاشة في الاوتار الصوتية . **المترجم** .

المحجوب . . . تذكرت الماضي غير البعيد . . . وطاف في ذهنها : «والمستقبل ؟ والحاضر ؟» ، ومن نكد الطالع أن الممثلة سعلت سعالاً تمثيلياً فردّ عليه من المقصورة سعال جاف حقيقي من جانب اينساروف . . . اختلست يلينا النظر اليه ، ولكنها اسرعت فطبعت الرصانة والهدوء على قسمات وجهها . فهمها اينساروف ، وأخذ يبتسم ، مترنماً بلحن الاغنية قليلاً .

ولكنه سرعان ما سكت . وصار تمثيل فيوليتا أحسن فأحسن واكثر طلاقة . تخلّت عن كل ما هو دخيل ، عن كل ما هو زائد ، **ووجدت نفسها** ، وتلك سعادة نادرة عالية جداً للفنان ! تجاوزت فجأة الحد الذي يستحيل تحديده ، ولكن الجمال يكمن وراءه . سرت حركة بين الجمهور ، واخذته الدهشة . لقد بدأت الفتاة القبيحة ذات الصوت التالف تأخذ بزمامه ، وتسيطر عليه . ولم يعد صوتها تالفاً ، فقد اشاع الدفء فيه واشتد . وظهر «الفريدو» وكادت صيحة فيوليتا الفرحة تثير تلك العاصفة التي تسمى fanatismo * والتي لا تهزم امامها كل صياحاتنا الشمالية الكئيبة . . . وما هي الا لحظة ، واذا بالجمهور قد جمد مرة اخرى . وبدأ اللحن الثنائي ، اروع قطعة في الاوبرا ، والذي استطاع فيه الموسيقار ان يعرب عن كل الاسف على تبذير الشباب بطيش ، والصراع الاخير لحب يائس عاجز . واستسلمت المغنية للموجة التي ارتفعت بها مأخوذة ومغمورة بدفق التجاوب الشامل ، وفي عينيها دموع الفرح الفني والعذاب الحقيقي ، وتغير وجهها ، وامام شبح الموت الرهيب المقترب فجأة اندفعت من شفتيها كلمات الرجاء التي تصل الى عنان السماء «Lascia mi vivere... morir si giovane !» (دعني اعيش . . . اموت وانا شابة !) واذا بالمسرح كله يهتز بالتصفيق العارم ، وهتافات الحماس والاعجاب .

واحست يلينا بالبرودة تجتاح جسدها كله . اخذت تبحث بيدها ، خلسة ، عن يد اينساروف ، ووجدتها وضغطت عليها بقوة . استجاب هو لحركة يدها ، ولكنه لم ينظر اليها ، ولم

---

* تحمس (بالايطالية في الاصل) .

تنظر هي اليـــه . ان ضـم اليدين هذا لم يكن يشبه ذلك الذي حدث بينهما في الجندول قبـــل بضع ساعات ، واحدهما يحتفي بالآخر .

في طريق العودة الى الفندق سار بهما الجندول في القناة الكبيرة ثانية . كان الليل قد هبط وضيئاً ناعمـــاً . واستقبلتهما نفس القصور على امتداد القناة ، الا أنها بدت مختلفة . كان القمر يضيء بعضها فيبدو ابيض مذهباً ، وكأنما قد ابتلع ببياضه تفاصيـــل الزخارف ومعالم النوافذ والشرفات ، بينما برزت هذه بوضوح اكثر في المباني المسربلة بنقاب خفيف من الظل السبط . وبدت الجندولات باضوائها الحمراء الصغيرة اخفت صوتاً واسرع حركة ، وكانت قيادمها الفولاذية تلمع غامضة غموض مجاذفها التي كانت تعلو وتهبط فوق الالتماعات الفضية للماء المستثار . وهنا وهناك كان الجندوليون يتبادلون نداءات قصيرة خافتة (انهم الآن لا يغنون ابداً) ؛ وما من اصوات اخرى تقريباً . كان الفندق الذي نزل فيه اينساروف ويلينا في Riva dei Schiavoni ، وقد نزلا من الجندول قبل الوصول اليه ، وطافا عدة مرات حول ساحة القديس ماركو تحت الاطواق التي كان عدد كبير من المتبطلين يزدحمون امام مقاهيها الصغيرة . لطيف جداً ان يسير الانسان مع محبوبه في مدينة غريبة ، وسط اناس غرباء . فقد كان كل شيء يبدو جميلاً مهماً ، فتتمنى للجميع الخير والسلام والسعادة التي تملأ جوانحك . ولكن يلينا لم تعد الآن قادرة على الاستسلام للشعور بسعادتها بخلو بال . وما كان في وسع قلبها ان يهدأ ، وقد روّعتـــه الايحاءات قبل وقت قصير . اما اينساروف فقد اشار بصمت ، حين مرّا بقصر الدوجي ، الى مواسير المدافع النمساوية المطلة من تحت عقود السقوف الواطئة ، ودفع قبعته الى حاجبيه . وكان يشعر بالتعب فضلا عن ذلك . نظرا للمرة الاخيرة الى كاتدرائية القديس ماركو ، والى قبابها ، وقد اشعلت اشعة القمر نقاطاً من الضوء الفوسفوري على قصديرها المزرورق ، وعادا الى الفندق على مهل .

كانت حجرتهما تطل بنوافذها على المنبسط البحري العريض الممتد من Riva dei Schiavoni الى جيوديكا . ومقابل فندقهـــم تقريباً كان يرتفع برج القديس جيورجي المدبب الطرف ، والى

اليمين تلتمع كرة دوغانا الذهبية المرتفعة في الهواء وتنتصب كنيسة Redentore ، لبالاديو (٤١) ، وهي واحدة من اجمل الكنائس ، مزدانة كعروس ، والى اليسار تلوح صواري السفن وحبالها ، ومداخن البواخر سوداء اللون . وهنا وهناك كان احد الاشرعة المنشورة الى النصف يتدلى كجناح كسير ، واعلام السفينة المثلثة لا تكاد ترفرف . جلس اينساروف امام نافذة ، ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلاً . اذ احس بحمى مفاجئة ، وتملكه ضعف موهن . فأرقدته في الفراش ، وانتظرت حتى غفا ، وعادت الى النافذة بهدوء . آه ، كم كان الليل ساجياً حنوناً ، والهواء اللازوردي مشبعاً بوداعة الحمام ، وكل عذاب ، كل بلية لا يمكن لها الا أن تهجع وتغفو تحت هذه السماء الصافية ، وتحت تلك الاشعة القدسية الطاهرة ! وفكرت يلينا مع نفسها : «يا الَهي ! لمَ الموت ، لمَ الفراق ، والمرض والدموع ؟ او لمَ هذا الجمال ، هذا الشعور اللذيذ بالامــل ، ولمَ الاحساس المهدئ بالملجأ الآمن ، بالحماية الوثقى ، والرعاية الخالدة ؟ ما تعني هذه السماء الباسمة المباركة ، هذه الارض السعيدة المستريحة ؟ أيمكن ان يكون هذا كلهُ فينا فقط ، وفي خارجنا البرودة الأبدية والسكون ؟ أيمكن ان نكون نحن هنا . . وحدنا . . وكل شيء هناك ، في كل مكان من هذه الاعماق السحيقة التي لا تُسبر ، غريباً علينا ؟ اذن ، فما نفع هذا الظمأ وفرحة الصلاة ؟ (تردد في داخل نفسها «Morir si giovane») الا يجوز للمرء ان يتضرع ويتحاشى وينجو . . . اوه ، يا الَهي ، الا يجوز الايمان بمعجزة ، حقاً ؟» — ووضعت رأسها على ذراعيها المطويتين ، وهمست — «أهذا كل شيء ؟ معقول انه كل شيء ؟ كنت سعيدة ، لا لدقائق ، ولا لساعات ، ولا لايام بطولها ، بل لاسابيع متتالية . ولكن باي حق ؟» واحست بالرهبة من سعادتها ذاتها . وفكرت : «ماذا لو أن ذلك غير مباح ؟ ماذا لو كان لا يُعطى بلا مقابل ؟ انه السماء . . . بينما نحن بشر ، مساكين ، خاطئون . . . Morir si giovane اوه ، ايها الشبح الاسود المشؤوم ، انصرف ! حياته ضرورية ليست لي وحدي !»

وفكرت ثانية : «ولكن ماذا لو كان هذا عقاباً ، ماذا لو كان علينا الآن ان ندفع الثمن كاملاً على ذنبنا ؟ كان ضميري هادئاً ،

وهو الآن هادئ . ولكن أهذا برهان على البراءة ؟ آه ، يا الهي ، ايعقل اننا مجرمون بهذا الشكل ؟ أيعقل انك ، خالق هذا الليل ، وهذه السماء تريد ان تعاقبنا لان احدنا احب الآخر ؟» واضافت بصورة لاارادية : «واذا كان كذلك ، اذا هو مذنب ، وانا مذنبة ، فاجعله يموت ، يا الهي ، اجعل كلينا يموت على الاقل ميتة شريفة ماجدة ، في رحاب وطنه ، هناك ، وليس هنا ، ليس في هذه الحجرة المعزولة» .

«وفاجعة المسكينة ، الام الوحيدة ؟» — سألت نفسها ، واضطربت من سؤالها هذا ، ولم تجد اعتراضاً عليه . ولم تكن تعرف ان سعادة انسان قائمة على تعاسة انسان آخر ، بل وان نفعه وراحته ، كالتمثال ، تتطلبان قاعدة من خسارة الآخرين ومضايقتهم .

غمغم اينساروف اثناء نومه : «رينديتش !»

سارت يلينا اليه على اطراف اصابعها ، وانحنت عليه ، ومسحت العرق من وجهه . تقلب على المخدة قليلاً ، وسكن .

عادت الى النافذة ، وعادت افكارها تتوارد . اخذت تقنع نفسها وتؤكد لها انْ ليس هناك سبب للخوف . بل وخجلت من ضعفها . وهمست : «وهل هناك خطر حقاً ؟ او ليست صحته قد تحسنت ؟ ولو لم نكنْ اليوم في المسرح ، لما طافت في ذهني هذه الخواطر» . وفي تلك اللحظة رأت نورساً ابيض يحلق عالياً فوق الماء ، ربما روّعه صياد ، فطار بصمت ، صاعداً هابطاً ، وكأنما يبحث عن مكان يحط فيه . وفكرت يلينا : «ان طار الى هنا ، كان فألاً حسناً . . .» حام النورس دائراً في مكان واحد ، واطبق جناحيه ، وسقط بعيداً وراء سفينة مسودة ، مطلقاً صيحة شاكية ، وكأنما اصيب بطلقة . جفلت يلينا ، ثم خجلت من جفولها هذا ، فاستلقت على السرير ، دون ان تخلع ثيابها ، جنب اينساروف الذي كانت انفاسه تتلاحق ثقيلة سريعة .

استيقظ اينساروف في ساعـــة متأخرة يطوق رأسه صداع أصم ، ويغمره احساس بضعف لئيم ، على حد تعبيره ، يسري في جسده كله . ولكنه نهض وكان سؤاله الاول :

— الم يأت ريندينتش ؟

— لم يأت بعد .

ردت يلينـــا عليـــه ، وقدمت له العدد الاخير مـــن « Osservatore Triestino » * (٤٢) . وكان فيه حديث كثير عن الحرب ، وعن البلدان السلافية ، وعن الامارات . شرع اينساروف يقرأ ، وانشغلت هي بتحضير القهوة له . . . واذا بطرق على الباب .

وفكر كلاهما مع نفسه : «ريندينتش» ، ولكن الطارق تكلم بالروسية : «هل ممكن ان ادخل ؟» تبادلت يلينـــا واينساروف النظرات في استغراب ، وقبل ان يردا دخل الحجرة رجل انيق الملبس ذو وجه صغير مدبب ، وعينين حركتين . كان يتألـــق بكليته ، وكأنما قد ربح لتوه مبلغاً ضخماً من المال ، أو سمع نبأ ساراً .

رفع اينساروف جسمه عن الكرسي .

قال الغريب متقدماً نحوه بمشية متخلخلة ، منحنياً ليلينـــا بأدب :

— لا تعرفني . انا لوبوياروف ، هل تذكرني ؟ التقينا في موسكو عند آل ي . . . .

قال اينساروف :

— نعم ، عند آل ي . . . .

— بالتأكيد ، بالتأكيد ! ارجو ان تقدمني لعقيلتك . كنت دائماً ، يا سيدتي ، احترم دميتري فاسيليفتش (وصحح نفسه) نيكانور فاسيليفيتش احتراماً عميقاً . . . وانا سعيد جداً في ان يكون لي الشرف ، آخر الامر ، ان اتعرف عليك — ومضى يقول مخاطباً اينساروف — تصور انني مساء امس فقط ، عرفت أنكما

---

* «مراقب تريست» (بالايطالية في الاصل) .

هنا . انا ايضاً اقيم في هذا الفندق . اية مدينة ، فينيسيا هذه ! انها الشعر بعينه ! شيء واحد فظيع هو ان النمساويين الملعونين في كل خطوة ! ضقت من هؤلاء النمساويين ! بالمناسبة ، لعلك سمعت بان معركة حاسمة جرت في الدانوب قتل فيها ثلاثمائة ضابط تركي . واحتلت سيليستريا ، واعلنت بلاد الصرب استقلالها (٤٣) . الا يبهجك هذا وانت المناضل ؟ انا ، السلافي ، يجعل الدم يفور في عروقي ! ومع ذلك انصحك بأن تكون اكثر حذراً ، وانا واثق من انك مراقب . الجاسوسية هنا مريعة ! بالامس دنا مني شخص مريب ، وسألني «هل انت روسي ؟» قلت له انني دنماركي . . . لا بد أنك عليل ، يا نيكانور فاسيليفيتش الفاضل ، وعليك ان تعالج نفسك . سيدتي ، عليك ان تعالجي زوجك . بالامس كنت اطوف كالمجنون في القصور والكنائس . لا بد أنكما كنتما في قصر الدوجي ؟ يا له من ثراء في كل مكان ! لاسيما تلك القاعة الكبيرة وموضع مارينو فاليارى (٤٤) ، كتب فيه decapitati pro criminibus * . وقد زرت السجون الشهيرة ، حيث انفعلت شديد الانفعال . لا بد انك تذكر . كنت دائماً احب الاهتمام بالمسائل الاجتماعية ، ووددت لو ارسل المدافعين عن الارستقراطية الى هذه السجون . كان بايرون محقاً في قوله «I stood in Venice on the bridge of sighs»** (٤٥) وكان ، بالمناسبة ، ارستقراطياً . كنت دائماً في صف التقدم . الجيل الفتي كله في صف التقدم . والانجليز والفرنسيون ؟ سنرى هل سيفعل بوسترابا وبالمرستون (٤٦) الشيء الكثير . انت تعرف ان بالمرستون اصبح الوزير الاول . على كل حال ، القبضة الروسية ليست مزحة . ان بوسترابا هذا محتال فظيع . هل تريد ان اعطيك «Les Châtiments de Victor Hugo» *** (٤٧) شيء مدهش ! «L'avenir le gendarme de Dieu» **** (٤٨) وهو قول جريء بعض الشيء ، ولكنه القوة ، القوة . وما قاله الامير فيازيمسكي جيداً ايضاً : «اوربا لا تفتأ تردد :

---

* «قطع رأسه لجرائمه» (باللاتينية في الاصل) .

** «وقفت في فينيسيا على جسر التنهدات» (بالانجليزية في الاصل) .

*** «العقوبات» لفيكتور هوغو . (بالفرنسية في الاصل) .

**** «المستقبل منفذ حكم الرب» (بالفرنسية في الاصل) .

باش – كاديك – لار ، وابصارها مثبتة في سينوب» (٤٩) . انا اعشق الشعر . وعندي ايضاً آخر كتاب برودون (٥٠) . عندي كل شيء . لا اعرف كيف انت ، ولكن الحرب تسرني ، فقط ان لا تلجأني الى السفر الى الوطن ، بينمـــا انا انوي السفر من هنا الى فلورنســـا ، والى روما ، واظن ان السفر الى فرنســـا متعذر ، فسأسافر الى اسبانيا ، يقال ان النساء هناك مذهلات ، سوى كثرة الفقر والحشرات ، وكنت سأسافر الى كاليفورنيـــا ، نحن الروس مباح لنا كل شيء ، ولكنني عاهدت احد المحررين على دراســـة مسألة التجارة في البحر الابيض المتوسط بكل تفاصيلها . قد تقول ان هذا الموضوع غير ممتع ويهم المتخصصين ، ولكننا بحاجة الى المتخصصين ، كفانا تفلسفاً ، الممارســـة ضروريـــة الآن ، الممارسة . . . اظنك مريضاً جداً ، يا نيكانور فاسيليفيتش ، ربما اتعبك ، ولكنني سأبقى جالساً بعض الوقت ، على اية حال ، اجلس قليلاً . . .

وظل لوبوياروف يثرثر بهذا الشكل وقتاً طويلاً ، ووعد ، لدى خروجه ، بزيارة ثانية .

استلقى اينساروف على الاريكة وقد اتعبته هذه الزيارة غير المنتظرة .

نظر الى يلينا وقال بمرارة :

– هذا هو جيل الشباب في روسيا : بعضه يتعاظم ويتباهى ، ولكنه في قرارته فارغ كهذا السيد .

ولم ترد يلينا على زوجها ، فقد كان ضعف اينساروف في تلك اللحظة يقلقها اكثر بكثير من وضع كل الجيل الفتي في روسيا . . . جلست الى جانبه ، وتناولت التطريز . اغمض اينساروف عينيه ، وتمدد بلا حراك ، وبدا شديد الشحوب نحيلاً . نظرت يلينا الى صفحة وجهه الحادة الخطوط ، والى ذراعيه المسبلتين ، واعتصر قلبها بخوف مفاجئ . قالت :

– دميتري . . .

جفل اينساروف .

– ماذا ؟ جاء ريندينش ؟

– لا ، لم يأت بعد . . . ولكن ما رأيـــك ، هـــل

نستدعي طبيباً ؟ صحتك ليست على ما يرام ، وحرارتك مرتفعة ، حقاً .

– اخافك ذلك الثرثار . لا حاجـــة . سأستريـــح قليلاً ، ويزول كل شيء . وسنخـــرج مرة اخرى بعـــد الغـــــداء . . . الى مكان ما .

انقضت ساعتان ، واينساروف ما يزال متمدداً على الاريكة ، ولكنه لم ينم ، رغم ان عينيه مغمضتان . ولم تبتعد يلينا عنه . جعلت التطريز على ركبتها ،ولم تتحرك . واخيراً سألته :

– ولماذا لا تنام ؟

– على مهلك – وتناول يدها ، وتوسّدها – هكذا . . . لطيف . . . ايقظيني ، حالمـــا يأتي ريندتيش . . . واذا قال المركـــب جاهز سافرنــــا في الحال . . . يجب ان نصـــف كل امتعتنا .

اجابت يلينا :

– لا يحتاج ذلك الى وقت طويل .

وبعد قليل قال اينساروف :

– ما قاله ذلك الرجل عن المعركة وعن بلاد الصرب لابد انه قد اختلقه كله . ولكن يجب ان نسافر . ولا يجوز تضييــــع الوقت . . . كوني متهيئة .

وغفا . وهدأ كل شيء في الحجرة .

القت يلينا رأسها على ظهر الكرسي ، واستغرقت تنظر من النافذة وقتاً طويلاً . ساء الطقس ، هبت ريح ، وراحت تجوب اقطار السماء بسرعة غيوم بيضاء كبيرة . تمايلت صارية نحيلة في الافق البعيد ، وراح العلم المثلث الطويل بصليبه الاحمر يرفرف بلا انقطاع ، يسترخي ويرتفع من جديد . وكان رقاص الساعة القديمة يدق ثقيلاً ، وبهسيس حزين . اغمضت يلينا عينيها . وكانت قد نامت نوماً سيئاً في الليل . فغفت ، هي الاخرى ، شيئـــاً فشيئاً .

حلمت حلماً غريباً . تراءى لها في النوم انها في قارب على بركة تساريتسينو بصحبة اناس غرباء يجلسون صامتين بلا حراك ، ولا أحد يجذف ، والقارب يسير من تلقاء نفسه . ولم تكن يلينا مرتعبة ، ولكنها ضجرة ، فقد كانت تريد ان تعرف من هؤلاء

الناس ، ولم هي معهم . وتحدق ، فاذا بالبركة تتسع ، والضفاف تختفي ، ولم تعد البركة بركـــة ، بل صارت بحراً مضطرباً . والامواج اللازوردية الصامتة الهائلة تؤرجح القارب ببطء ، ويطلع من القاع شيء هادر مرعب واذا بالغرباء يقفزون على ارجلهم ، ويصيحون ويلوّحون باذرعهم . . . وتتعرف يلينا على وجوههم ، وابوها بينهم ولكن الاعصار الابيض يدوّم في الامواج وراح كل شيء يدور ، ويختلط . . .

وتنظر يلينا فيما حولها . كل شيء ابيض كالسابق ، ولكن الثلج يتساقط الى ما لانهاية ، ولم تعد جالسة في القارب ، بل في الزلاجة التي نقلتها من موسكو ، وليست وحيدة ، بل مع مخلوق صغير ملتف بمعطف نسائي قديم . وتتمعن يلينا فتعرف فيه كاتيا ، صاحبتها المتسولة المسكينـــة . وترتعب . ويجول في ذهنها : «الم تمت بعد ؟»

– كاتيا ، الى اين نحن ذاهبتان ؟

ولا تجيب كاتيا ، وتلتف بمعطفها . كانت ترتعد برداً . وتحس يلينا بالبرودة ايضاً . وترسل بصرها عبر الطريق ، فترى مدينة تلوح في البعيد ، خلال رذاذ الثلج . ابراج بيضاء عالية برؤوس فضية . . . كاتيا ، كاتيا ، أهذه موسكو ؟ تفكر يلينا مع نفسها : لا ، هذا دير سولوفيتسكي ، وفيه الكثير ، الكثير من الصوامع الصغيرة الضيقة ، والجو هناك خانق ، ودميتري محتجز هناك ، ويجب ان اطلق سراحه . . . وفجأة تنشق امامها هاوية بيضـــاء فاغرة . وتسقط الزلاجة ، وتضحك كاتيا . ويتردد صوت من الهاوية : يلينا ، يلينا !

ويصدر صوت واضح في اذنيها – «يلينا !» رفعت رأسها بسرعة ، والتفتت ، وجمدت على حالها ، فقد رأت اينساروف مبيضاً كالثلج ، كالثلج الذي رأته في حلمها ، يرفع جسمه على الاريكة الى النصف ، ويحدق فيها بعينين واسعتين وضاءتين مرعبتين . وشعره متناثر عـــلى جبينه وشفتاه منفرجتـــان بشكل غريب ويرتسم على وجهه المتغير فجأة رعب ممزوج بحنان وكآبـــة وقال :

– يلينا ! انا احتضر .

ركعت على ركبتيها صارخة ، وانضغطت على صدره . كرر اينساروف :

— كل شيء انتهى . انا احتضر . وداعاً ، يا زوجتي المسكينة ، وداعاً ، يا وطني ! . .

وانطرح بظهره على الاريكة .

خرجت يلينا من الحجرة راكضة ، وراحت تنادي طالبة النجدة ، وانطلق خادم لاستدعاء طبيب . وارتمت يلينا على اينساروف .

وفي تلك اللحظة ظهر على عتبة الباب رجل عريض المنكبين ، ملوّح البشرة في معطف سميك من الفانيله ، وقبعة واطئة من المشمع . وتوقف في حيرة . هتفت يلينا :

— ريندتيش ! انت هذا ! انظر ، بحق الرب ، انه في غيبوبة ! ماذا به ؟ يا الهي ، يا الهي ! بالامس خرج ، وقبل لحظات كان يتكلم معي . . .

لم يقل ريندتيش شيئاً ، سوى انه تنحى . وتجاوزه خطفاً شخص صغير يضع على رأسه شعراً مستعاراً ، ويلبس نظارة . انه طبيب كان يقيم في نفس الفندق . وتقدم من اينساروف .

وبعد لحظات قال :

— سينيورا . السيد الاجنبي مات — il signore forestiere e morto — من تمدد الاوعية الدموية مع اختلال الرئتين .

٣٥

في اليوم التالي كان ريندتيش واقفاً عند النافذة ، في نفس الحجرة وقد جلست يلينا امامه ملتفة بشال . وكان اينساروف ممدداً في تابوت في الحجرة المجاورة . كان وجه يلينا مذعوراً وبلا حياة ، وقد ظهر غضنان على جبينها بين الحاجبين كانا يضفيان على عينيها الجامدتين مسحة الاجهاد . وعلى النافذة رسالة من آنا فاسيليفنا مبسوطة تستدعي فيها آنا فاسيليفنا ابنتها الى موسكو ، ولو لشهر ، وتشكو من وحدتها ، ومن نيقولاي ارتيميفيتش ،

وتسلم على اينساروف ، وتستفسر عن صحته ، وترجوه أن يسمح لزوجته بالسفر .

كان ريندتيش بحار من دالماسيا تعرف اينساروف عليه اثناء سفره الى وطنه ، ووجده في فينيسيا . وكان رجلاً صارماً خشناً جسوراً مخلصاً للقضية السلافية . وكان يحتقر الاتراك ، ويبغض النمساويين .

سألت يلينا بالايطالية :

– كم ينبغي ان تمكث في فينيسيا ؟

وكان صوتها بلا حياة كوجهها .

– يوماً لشحن الحمولة ، ولعدم اثارة الريبة ثم نتجه الى زارا رأساً . لن افرح ابناء وطني . كانوا ينتظرونه منذ زمان ، ويعوّلون عليه .

ردت يلينا بآلية :

– يعولون عليه .

سأل ريندتيش :

– متى ستدفنينه ؟

تلكأت يلينا في الجواب .

– غداً .

–غداً ؟ سأبقى . اريد ان القي حفنة تراب على قبره . ويجب ان اساعدك ايضاً . كان الافضل ان يرقد في تربة سلافية .

نظرت يلينا الى ريندتيش ، وقالت :

– يا قبطان ، خذني واياه ، وانقلنا الى ذلك الجانب من البحر بعيداً عن هنا . أهذا ممكن ؟

غرق ريندتيش يفكر .

– ممكن ، ولكنه شاق . لا بد من تدبير الامور مع الرؤوساء الملاعين هنا ، لنفرض اننا تجاوزنا كل ذلك ، ودفناه هناك ، ولكن كيف سأعود بك ؟

– لا حاجة عند ذاك ان تعود بي .

– كيف ؟ واين ستبقين ؟

– سأجد لنفسي مكاناً الجأ اليه ، فقط ان تأخذنا ، تأخذني . . .

حك ريندتش علباء .

— كما تشائين ولكن كل ذلك يقتضي جهداً كبيراً . انا ذاهب وسأحاول . انتظريني هنا بعد حوالي ساعتين .

وانصرف . ذهبت يلينا الى الحجرة المجاورة ، واتكأت على الحائط ، وبقيت واقفة لفترة طويلة كالمتحجرة . ثم ركعت على ركبتيها ، ولكنها لم تستطع ان تصلي . لم تحس في روحها بتأنيب ولوم ، ولم تتجاسر على ان تسأل الله لمَ لمْ يرحمهما ، ولم يشفق عليهما ، ولم يصنهما ، ولمَ عاقبهما اكثر من ذنبهما ، لو كانا مذنبين ؟ ان كل واحد منا مذنب اصلاً لكونه يعيش ، وما من مفكر عظيم ، ولا اي محسن للانسانية ، يمكن ان يأمل ، بحكم ما فعل من خير ونفع ، بأن يكون له الحق في ان يعيش . . . ولكن يلينا لم تستطع ان تصلي ،فكانت متحجرة .

في تلك الليلة غادر قارب عريض مرسى الفندق الذي كان اينساروف وزوجته يقيمان فيه . وفي القارب يلينا وريندتش ، وصندوق طويل مغطى بقماشة سوداء . وساروا زهاء ساعة ، حتى وصلوا ، اخيراً الى سفينة صغيرة ذات صاريتين كانت تلقي مرساتها عند المخرج من المرفأ تماماً . وصعدت يلينا وريندتش الى السفينة ، وحمل البحارة الصندوق . وعند منتصف الليل هبت زوبعة ، ولكن السفينة كانت ، في باكر الصباح ، تمر بالليدو . وخلال النهار كانت الزوبعة تعربد بقوة رهيبة ، وكان البحارة المحنكون في مكاتب شركة «لويد» يهزون رؤوسهم ، ولا يتوقعون اي خير . والبحر الادرياتيكي بين فينيسيا وتريست والساحل الدالماسي خطر للغاية .

وبعد ثلاثة اسابيع من خروج يلينا من فينيسيا تلقت آنا فاسيليفنا في موسكو الرسالة التالية :

«والديّ العزيزين . اودعكما الى الأبد . لن ترياني بعد الآن . يوم امس قضى ديمتري نحبه ، وانتهى كل شيء بالنسبة لي . اليوم ساسافر مع جثمانه الى زارا . سأدفنه هناك ، ولا اعرف ماذا سيكون معي ! ولكن لم يعد لي وطن ، غير وطن د . يجري الاعداد لانتفاضة هناك ، والناس يتهيؤون للحرب ، وسأكون ممرضة فيها ، واعتني بالمرضى والجرحى . انا لا اعرف ماذا سيحدث

لي ، ولكنني سأظل ، بعد وفاته ، مخلصة لذكراه ولقضية حياته . اعرف الآن اللغتين البلغارية والصربية . ولعلني لا اتحمل كل ذلك ، وهذا افضل . لقد وصلت الى حافة الهاوية ، ويجب ان اسقط . ان القدر لم يجمع بيننا جزافاً . من يدري فقد اكون انا التي قتلته ، والآن جاء دوره ليجرني وراءه . كنت ابحث عن السعادة ، ولكنني ربما سأجد الموت . والظاهر ان هذا ما كان يجب ان يكون . الظاهر ان خطيئة قد ارتكبت . . . ولكن الموت يغطي كل شيء ، ويسوي كل شيء . أليس كذلك ؟ سامحاني عن كل الاحزان التي سببتها لكما . ان ذلك لم يكن بارادتي . ثم لمَ اعود الى روسيا ؟ ماذا افعل في روسيا ؟

تقبلا قبلاتي الاخيرة وتبريكاتي ، ولا تدينانني .

ى ."

انقضى على ذلك زهاء خمسة اعوام ، ولم يأت اي خبر آخر عن يلينا . ولم تجد نفعاً كل الرسائل والاستفسارات كما لم يأت بشيء سفر نيقولاي ارتيميفيتش نفسه الى فينيسيا وزارا ، بعد انعقاد الصلح . في فنيسيا لم يعرف الا ما يعرفه القارئ حتى الآن ، وفي زارا لم يستطع احد ان يمده بمعلومات ايجابية عن رينديتش ، ولا عن السفينة التي استأجرها . وسرت شائعات غامضة تزعم أن تابوتاً قد قذف الى الساحل ، بعد زوبعة شديدة ، منذ عدة سنوات ، وقد وجدت في هذا التابوت جثة رجل . . . وتقول معلومات اكثر وثوقاً ان هذا التابوت لم يقذفه البحر اطلاقاً ، بل جاءت به سيدة اجنبية قادمة من فينيتسيا ودفنته قرب الساحل ، واضاف آخرون ان هذه السيدة قد شوهدت بعد ذلك في الهرسك مع قوات كانت تؤلف آنذاك ، بل ووُصفت ملابسها السوداء من الراس حتى القدمين . ومهما يكن من شيء فان اثر يلينا قد اختفى ، والى الابد ، ولا احد يعرف هل ما تزال حية مختفية في مكان ما أم أن لعبة الحياة الصغيرة قد انتهت ، وانتهى فورانها الخفيف ، وحلّ الاجل . يحدث ان يستيقظ انسان في نومه ، ويسأل نفسه بذعر مباغت : أصحيح انني بلغت الثلاثين . . . الاربعين . . . الخمسين ؟ وكيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ ودنا الموت هذا الدنو ؟ ان الموت كالصياد الذي اصطاد

سمكة ، وابقاها في شبكته في الماء لبعض الوقت ، والسمكة ما تزال تسبح ، ولكن الشبكة تطوقها ، والصياد يخرجها متى شاء .

ماذا جرى لاشخاص قصتنا الآخرين ؟

ما تزال آنا فاسيليفنا حية ترزق ، وقد ظهر عليها الكبر كثيراً بعد الضربة التي صعقتها ، وقلّت شكاواها ، ولكنها صارت اشد حزناً . كما ظهر الكبر على نيقولاي ارتيميفيتش ايضاً ، وغشاه الشيب ، وانقطعت علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا . . . وهو الآن يشتم كل ما هو اجنبي . ومدبرة بيته ، وهي امرأة روسية جميلة في نحو الثلاثين من العمر ترفل بالحرير ، وتتحلى بخواتم واقراط ذهبية . وكورناتوفسكي ، ذو المزاج الحاد ، والولوع بالشقروات الوسيمات ، لكونه اسود الشعر حيوياً ، تزوج زويا التي طاعته كثيراً ، بل وكفت عن التفكير بالالمانية . وبيرسينيف في هايدلبورغ ؛ ارسل الى الخارج على نفقة الحكومة ، وزار برلين وباريس ، وهو لا يضيع الوقت سدى . وسيطلع منه معلم صاحب كفاءة . وقد لفتت انظار الجمهور المتعلم مقالتان له هما : «عن بعض خصائص القانون الالماني القديم في مسألة العقوبات القضائية» ، و«عن اهمية نشوء المدن في مسألة الحضارة» .

والمؤسف فقط ان كلتا المقالتين قد كتبتا بلغة ثقيلة قليلاً تتخللها الكلمات الاجنبية . وشوبين في روما ، وقد انقطع بكليته الى فنه ، ويعتبر واحداً من اروع النحاتين الشبان الواعدين كثيراً . ويرى الصفائيون المتشددون انه لم يدرس القدامى دراسة كافية ، وانه يفتقر الى «اسلوب» ويعدونه من المدرسة الفرنسية ، وله طلبيات كثيرة جداً من الانجليز والامريكين . وفي الفترة الاخيرة اثارت نحته «الباخوسية» ضجة كبيرة . وكان الكونت الروسي بوبشكين ، وهو ثري شهير ، ينوي شراءه بالف سكودي ، ولكنه فضل ان يعطي ثلاثة الاف سكودي لنحات آخر ، فرنسي * pur sang ليقتني نحت «ريفية شابة تموت من الحب

* نقي الدم (بالفرنسية في الاصل) .

على صدر ملاك الربيع» . وكان شوبين يراسل ، من حين لآخر ، اوفار ايفانوفيتش الذي هو وحده لم يتغير قط في اي شيء . وقد كتب شوبين له منذ حين : «هل تذكر ما قلته لي في الليلة التي عرفنا فيها بزواج يلينا المسكينة ، حين كنت جالساً على سريرك ، واتحدث اليك ؟ هل تذكر حين سألتك : هل سيكون عندنا بشر ؟ واجبتني : «سيكونون» . آه ، يا قوة التربة السوداء ! والآن ايضاً اسألك مرة اخرى من هنا ، من «بعدي المريح» : «حسناً ، يا اوفار ايفانوفيتش ، هل سيكونون ؟»

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه ، وثبت نظرته اللغزية في البعيد .